الجامع الأموي الكبير

الدكتور عفيف البهنسي

المراسلات مع الدار على العنوان التالي :
الجمهورية العربية السورية
دمشق
أوتوستراد المزة ـ طلعة الاسكان ـ بناية الدالي
هاتف ٢٤٤١٢٦ ـ ٢٤٣٩٥١
ص.ب ١٦٠٣٥
تلكس ١٢٠٥٠
برقياً طلاسدار

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

الجامع الأموي الكبير

أول روائع الفن الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى

١٩٨٨

الدكتور عفيف البهنسي

الجامع الأموي الكبير

أول روائع الفن الإسلامي

الجامع الاموي الكبير في دمشق

وفي دمشق ـــ المسجد الجامع الذي ليس على الارض مثله بناءً
ولا أحسن منه صفةً
ولا أتقن منه إمكاناً
ولا أوثق منه عقداً
ولا أغرب منه رسماً
ولا أبدع منه تلميعاً ، بأنواع الفص المذهب ، والآجر المحكوك والمرمر المصقول.

الشريف الادريسي ـــ ١١٥٤م

المقدّمة

لم يكتب عن الجامع الكبير الذي بناه الأمويون في دمشق كتاب مستقل يعتبر مرجعا تاريخيا وفنيا له . وإنما هي انطباعات ولمحات قدمها المؤرخون والرحالة العرب للحديث عن أكثر الأمور إثارة في هذا البناء الضخم وهي قيامه على أنقاض معابد سابقة ، وزخرفته المترفة التي كلفت دخل الدولة لسبعة أعوام .

ولقد تصدى للحديث عن الجامع الكبير مستشرقون كبار أخصهم سوفاجية وكريزول وكانت دراستهما أثرية فنية ، وقد اعتمدا ولاشك على كتابات المؤرخين العرب في تصوير خلفية بناء هذا المسجد الكبير .

وبقيت المكتبة بدون مرجع كامل عن هذه الآبدة الرائعة التي اعتبرت أول وأكمل منشأة اسلامية . وكان لابد من تحرير ماكتب عنها من الوهم والخطأ والمبالغة ، والاعتماد على أدق المصادر والدراسات الميدانية التي تناولت هذا البناء الضخم .

لقد أنشىء الجامع في مكان المعبد الوثني القديم حيث بقيت بعض أطلاله . ولايدين الجامع في مضمونه المعماري والفني الى الفن القديم ، بل كان بداية الابداع العربي الذي دفع اليه المسلمون الأوائل ، فكان هذا المسجد منشأة اسلامية كاملة ، ذلك أن ماتبقى من جدران وزخرفة رومانية في الواجهة الجنوبية لم يكن أساسا في عمارة المسجد ، بل لقد أهمل وحجب عن الرؤية بمنشآت اضافية كما نرى اليوم .

فالحديث عن الجامع الكبير ، هو حديث عن نشأة الفن الاسلامي ، فن العمارة الداخلية والزخرفة والفسيفساء .

العمارة الداخلية مؤلفة من قناطر مضاعفة تحمل السقوف وتشكل الاجنحة العرضية والطولية ، ومن كسوة رخامية رائعة ، وبلاط بديع حجري ، وسقوف خشبية مزينة وملونة ، وتصوير جداري فسيفسائي ، وأبواب مصفحة بالمعدن المنقوش ، وأثاث مسجدي مؤلف من المحراب والمنبر والمقصورة والسدة وضريح النبي يحيى ، ومن كتل انشائية فنية ، كقبة النسر وقبة المال ومئذنة العروس الرائعة والمئذنة البيضاء والغربية . هذه الروائع الفنية التي أشرف عليها معماريون وفنانون وعمال فنيون من أهل البلاد ، فأخرجوا للعالم آبدة نموذجية تجمعت فيها الثروة الجمالية الاسلامية الأولى ، تجعل من الجامع الكبير متحفاً ضم ابداعات المسلمين جميعا ، هذه الابداعات التي لم تقتصر على ماقدم في عهد الوليد ابن عبد الملك ، بل كان المد الابداعي مستمرا عبر القرون ، يتجسد أثناء عمليات الترميم والتجديد التي لم تنقطع عن الجامع خلال تاريخه كله وحتى اليوم .

ولعل من ساهم متأخرا من أهل الفن في عمارته وزخرفته ، كان اوضح أصالة ممن تقدمه ، ذلك ان الفن الاسلامي وقد نشأ في بلاد الشام ذات

التقاليد الفنية القديمة الواضحة في الأوابد الأثرية ، كان لابد ان يستفيد من هذا التراث الكبير في تكوين فنه الأول ، ولكن هذا الفن أخذ ينفصل عن ذكريات الماضي شيئا فشيئا في اعمال الترميم والتجديد اللاحقة ، مكونا شخصية مستقلة لا علاقة لها بما سبق الاسلام من فنون ولاعلاقة لها بالفنون الاخرى المعاصرة له .

بيد أن الفسيفساء في الجامع الكبير ظل محتفظاً بأصوله الأولى ، ذلك ان عمليات الترميم المتعاقبة لم تكن لتتجاوز تثبيت ماتبقى منه بعد كل فاجعة تصيب الجامع . فلقد زال القسم الأكبر من هذا الفسيفساء ، ولكن ماتبقى منه لايدعنا نشك أن من صمم مواضيعه ونفذ تصفيفه ، لم يكن فنانا غريبا عن بلاد الشام ، هذه البلاد الحافلة بروائع الفنون القديمة التي أغنت المنشآت السابقة . ولقد تأكد مؤرخو الفن من ذلك .

كذلك فإن قبة النسر ومئذنة العروس والزخرفة الرخامية والمحاريب والمنبر وغير ذلك من لوازم التأثيث ، لم يخرج عن حدود الأصالة والابداع المحلي ، وهكذا فان هذا الجامع لخص في صورته الأولى المستوى الفني الرفيع الذي كان عليه الفنان الشامي .

إن هذه الدراسة التي تناولت الجامع الكبير والخصائص الفنية فيه ، هي دراسة للفن الاسلامي في نشأته الأولى ، وهي مع ذلك دراسة للفن الاسلامي في بلاد الشام ، ذلك أن مايبدو واضحا من فن الزخرفة والعمارة الداخلية فيه ، انما يعود الى فترات متلاحقة كان آخرها مانفّذ خلال هذا القرن . ويبقى الجامع الكبير مسجد المسلمين جميعا على امتداد مساحة أرضهم في عهد الامويين ، وعلى امتداد التاريخ منذ الوليد وحتى اليوم . وهو جدير بدراسة شاملة مزودة بالصور الملونة ترضي تطلع القارىء للتعرف على هذه الآبدة

العظيمة ، وما نتمناه هو أن يلبي هذا الكتاب الاهتمام الذي يوليه المسلمون والعرب لهذه الآبدة الرائعة .

ومن الله التوفيق

الدكتور عفيف البهنسي

الفصل الأول

الجامع قبل الوليد

- الجامع الكبير وتكون الفنّ الإسلامي .
- المساجد الأولى .
- الأرض المقدّسة ـ معبد حدد ـ معبد جوبيتر الدمشقي .
- الكنيسة ومقرّها هيكل المعبد (الناوس) .
- مشهد القديس يوحنّا (النبي يحيى) .
- الجامع قبل الوليد .
- الوليد وبناء الجامع .

الجامع قبل الوليد

الجامع الكبير وتكوّن الفن الاسلامي

الفن الاسلامي الذي ظهر في بلاد الشام في عهد الأمويين ، كان فنا شاميا ، ولكن التعاليم الاسلامية والثقافية العربية وجهت هذا الفن الشامي وبسرعة ، نحو شخصية متميزة منسجمة مع الفكر الاسلامي ومع ظروف التوسع الكبير الذي كان سببا في توسيع آفاق الثقافة العربية باحتكاكها مع الثقافات العالمية .

وتبدو شخصية هذا الفن قوية عندما نراها تتشكل بسرعة حاملة طابع الاسلام، وعندما نراها تنفصل بشكل جذري عن طابع الفن الاسلامي الكلاسي . فالجامع الكبير في تقسيمه وهندسته وفي الفن الزخرفي فيه ، مستقل تماما عن شخصية الفن الروماني الذي يبدو متمثلا في الباب الجنوبي وفي زخرفة تيجان الأعمدة في الجامع . نقول ذلك على الرغم من ان المعمار العربي في عهد الوليد ، لم يتردد في استعمال الأحجار المتبقية من السور الكبير، وماكان قائما ضمن حدود جدار التيمنوس ، ومع ذلك لم يؤثر هذا في خلق ملامح جديدة لهذا الفن الذي قام على خلفيّة جديدة مستمدة من الفكر العربي والعقلية الاسلامية .

لقد كان الفن الكلاسي غريبا في المنطقة العربية ، ذلك لأنه فن يعتمد على فلسفة جمالية خاصة . فمنذ عهد أرسطو كان المثل الأعلى في الوجود هو الانسان ،

١ ــ مكة المكرمة ــ الكعبة الشريفة .

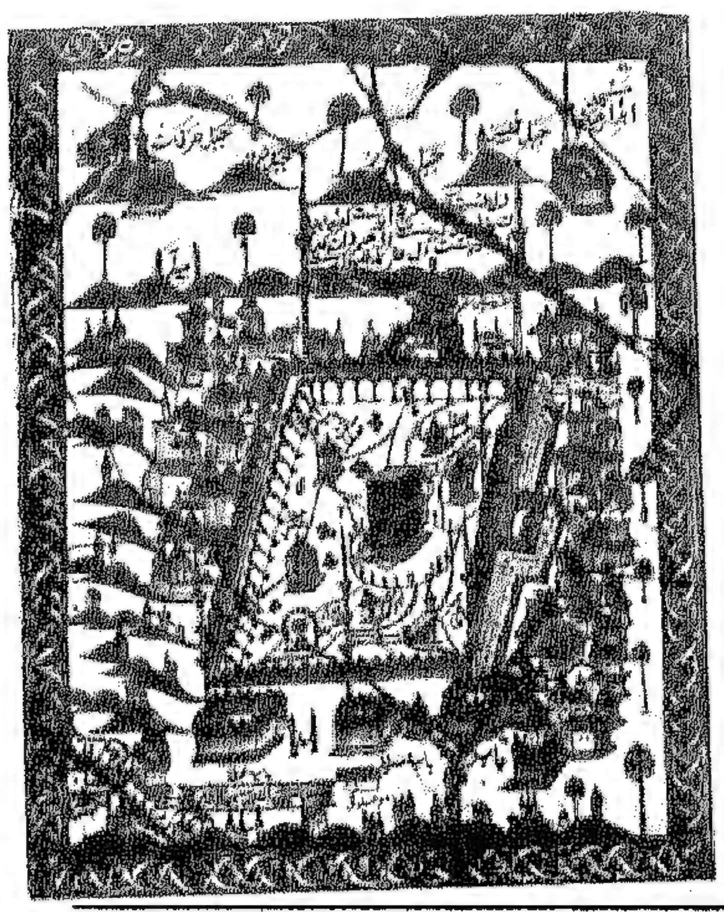

٢ ــ بلاطة خزفية عليها صورة الكعبة وخارطة الحرم المقدس ــ متحف القاهرة

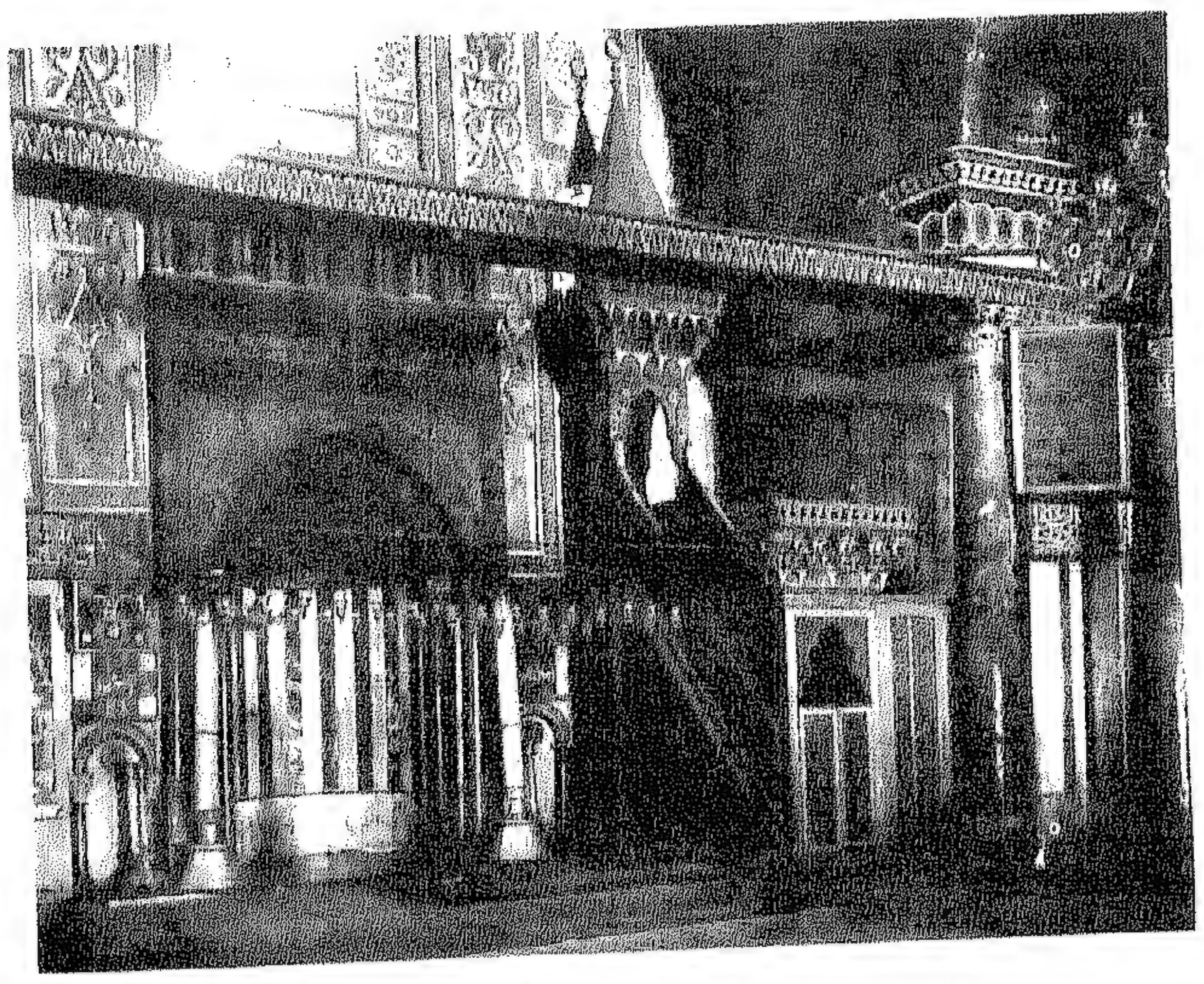

٣ ــ القدس ــ المسجد الأقصى ــ الواجهة

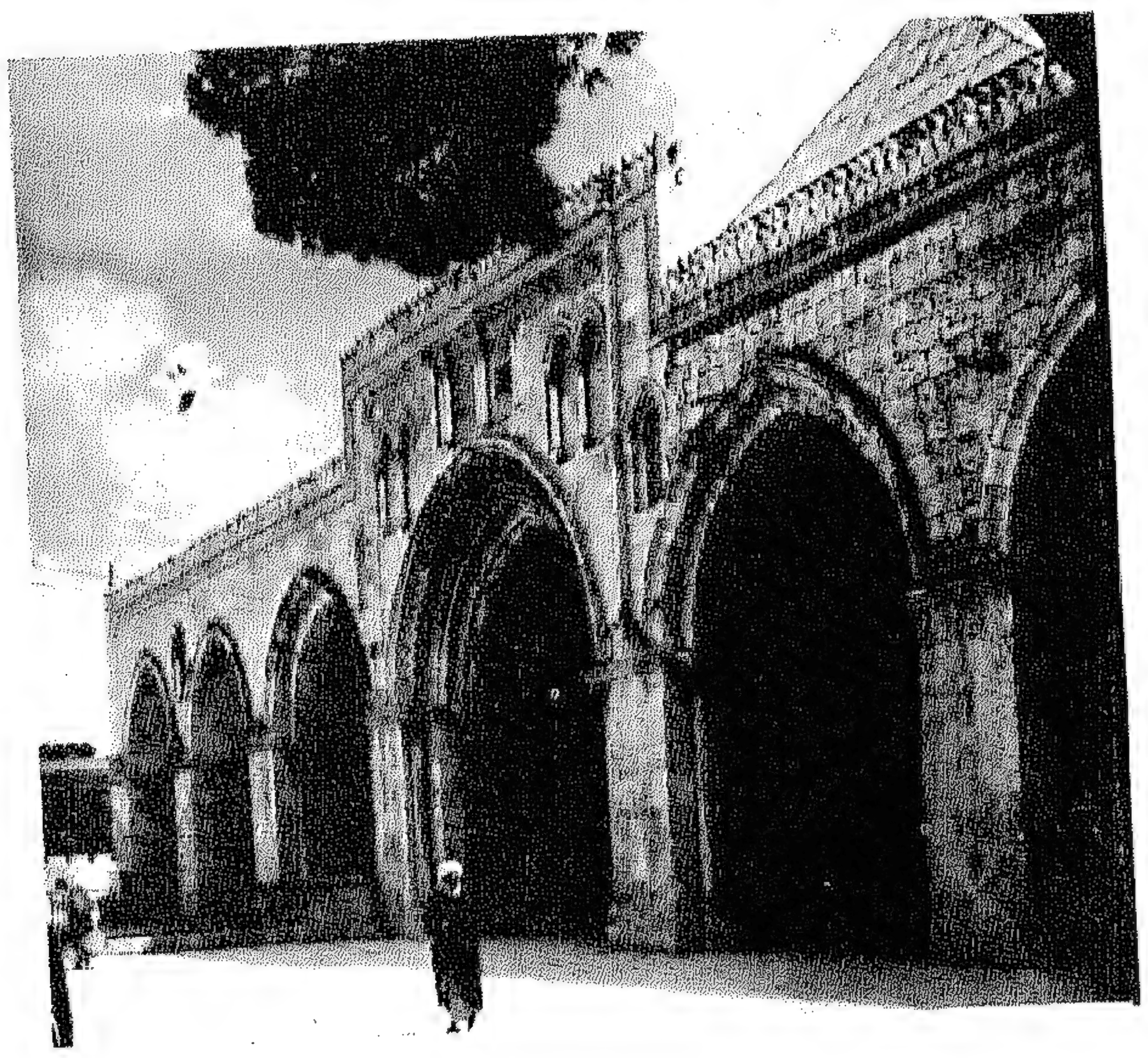

٤ ــ القدس ــ المسجد الأقصى ــ الحرم

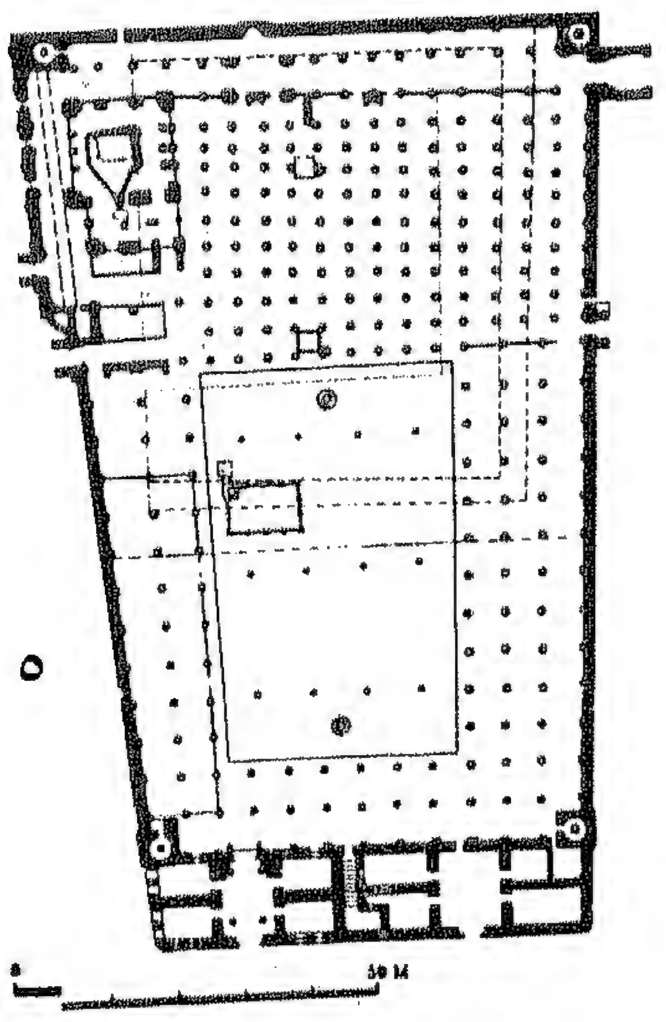

٥ ــ المدينة المنورة مخطط مسجدالرسول بوضعه الحالي

وكان هذا الانسان بقيمه الشكلية وبقوته مقياسا للجمال والكمال . وكانت العقيدة الوثنية تقوم على جعل الآلهة في أبهى صورة من صور الانسان ، كما كان الفن صورة من صور العقيدة . وعندما انتقل هذا الفن الى الشرق في العهود الهلنستية والرومانية ، فانه انتقل كعقيدة لم تستطع فرض نفسها على الناس، وهكذا كان الفن الاغريقي — الروماني رمز الغرباء وعقيدتهم ، فكان غريبا على الرغم من أن المواطنين كعمال ومنشئين ، هم الذين نفذوا بناءه ، ولكنهم عندما أرادوا ان ينفذوا نحتا وتصويرا ، خرجوا عن الاسلوب المفروض الى اسلوب ينسجم الى حد بعيد مع مفهوم الفن عندهم . وهكذا فان الفن الاسلامي تكون منذ اللحظة التي توضحت فيها معالم الدين الاسلامي وحلت فيه محل عقائد أخرى .

لقد قام الاسلام على مفهوم واسع لمعنى الله ، فالله قيمة مطلقة غير قابلة للتحديد ، وهذه القيمة هي المثل الأعلى الذي يسعى وراءه الانسان ليكشف عن أبعاده ، وفي هذا السعي الدائب نحو الملاذ الأجل، يكمن معنى الحضارة والابداع ، فالانسان في سعيه هذا ، يكتشف ويبدع ويبني التراث .

ان بناء الجامع الأموي في بيئته التي اختزنت الحضارة الكلاسية لألف عام هو أول تشخيص للعقيدة الاسلامية متمثل في فن العمارة والتصوير الوليدين . وهو بداية ناضجة لفن تلمس أبعاده أولا من القيم الثقافية والأدبية للعقيدة الجديدة ، وتحقق بفعل فنانين ومعماريين مواطنين ، دخل الايمان الى قلوبهم وتفتحت نزعة الأصالة في أعمالهم ، رافضين ذلك التشكل الكاذب لفن غريب ، كان قد ظهر قسراً بأمر السلطة البيزنطية .

المساجد الأولى

ان أول مسجد في الاسلام ، **هو مسجد النبي** الذي أنشأه الرسول في المدينة في العام الأول للهجرة (٦٢٢ م) ، وكان عبارة عن سقيفة طولها سبعون ذراعا (الذراع ٥٨ سم) وعرضها ثلاثة وستون ، وفيها صفان من جذوع النخيل موازيان لجدار القبلة في كل صف ستة جذوع ، وثمة سقيفة مقابلة للقبلة . وكانت القبلة مبنية من

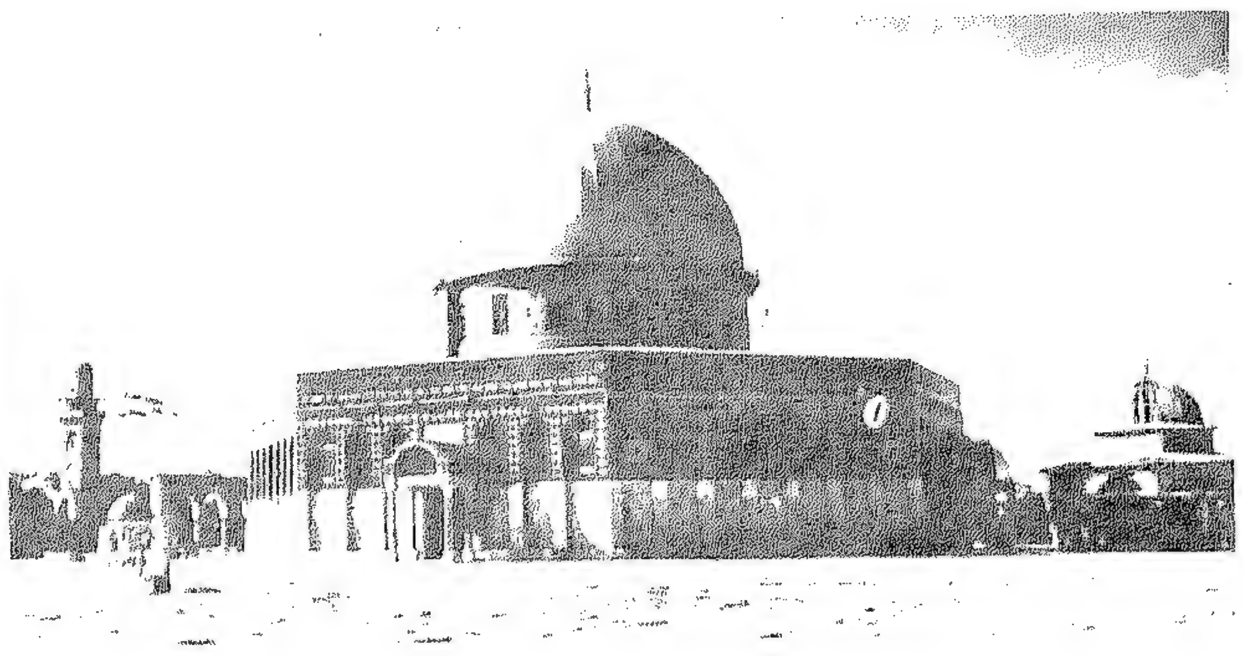

٦ ـــ القدس قبة الصخرة

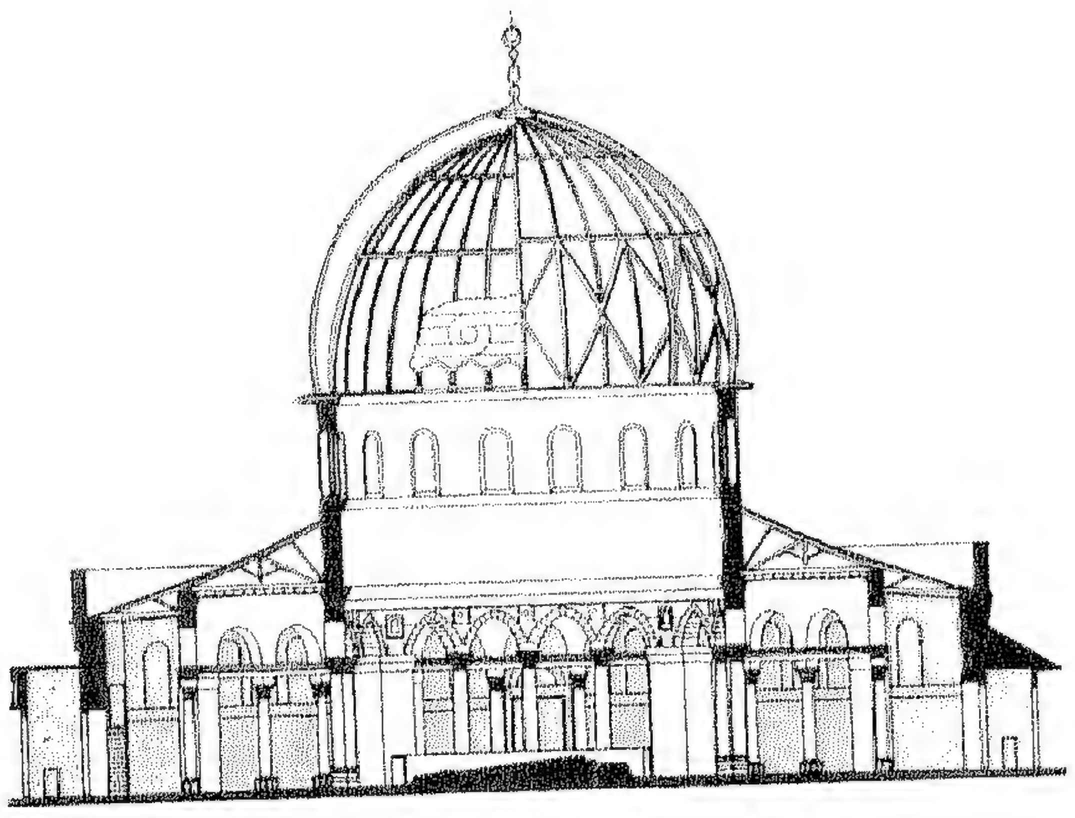

٧ ـــ القدس قبة الصخرة ـــ مقطع

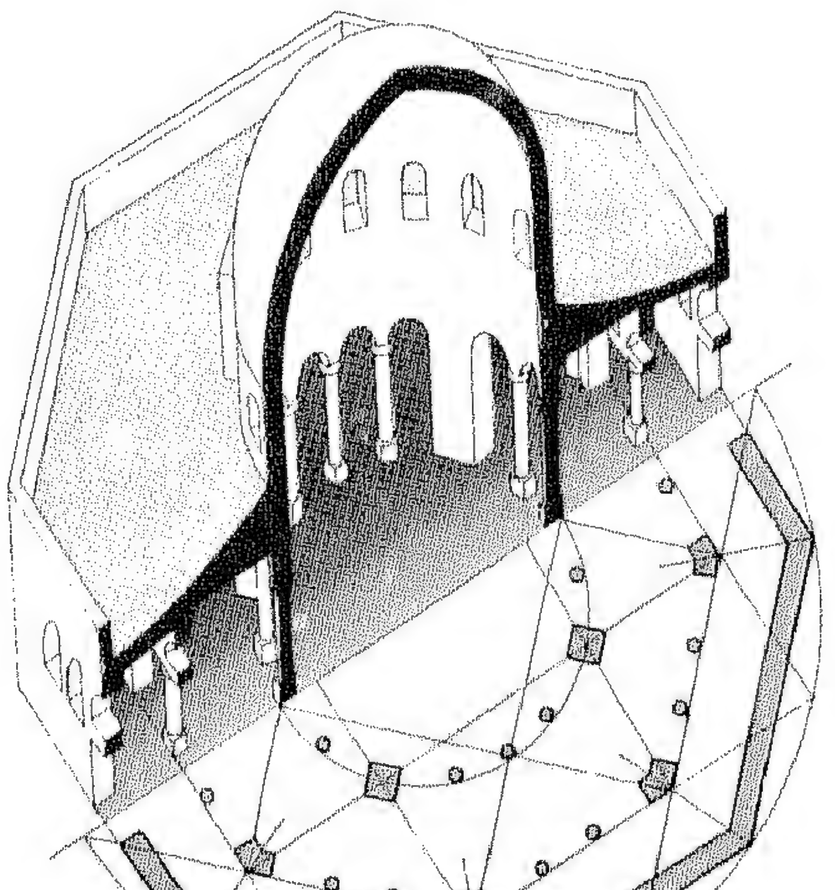

٨ ـــ القدس قبة الصخرة ـــ مقطع منظوري

٩ ـــ القدس قبة الصخرة ـــ المحراب

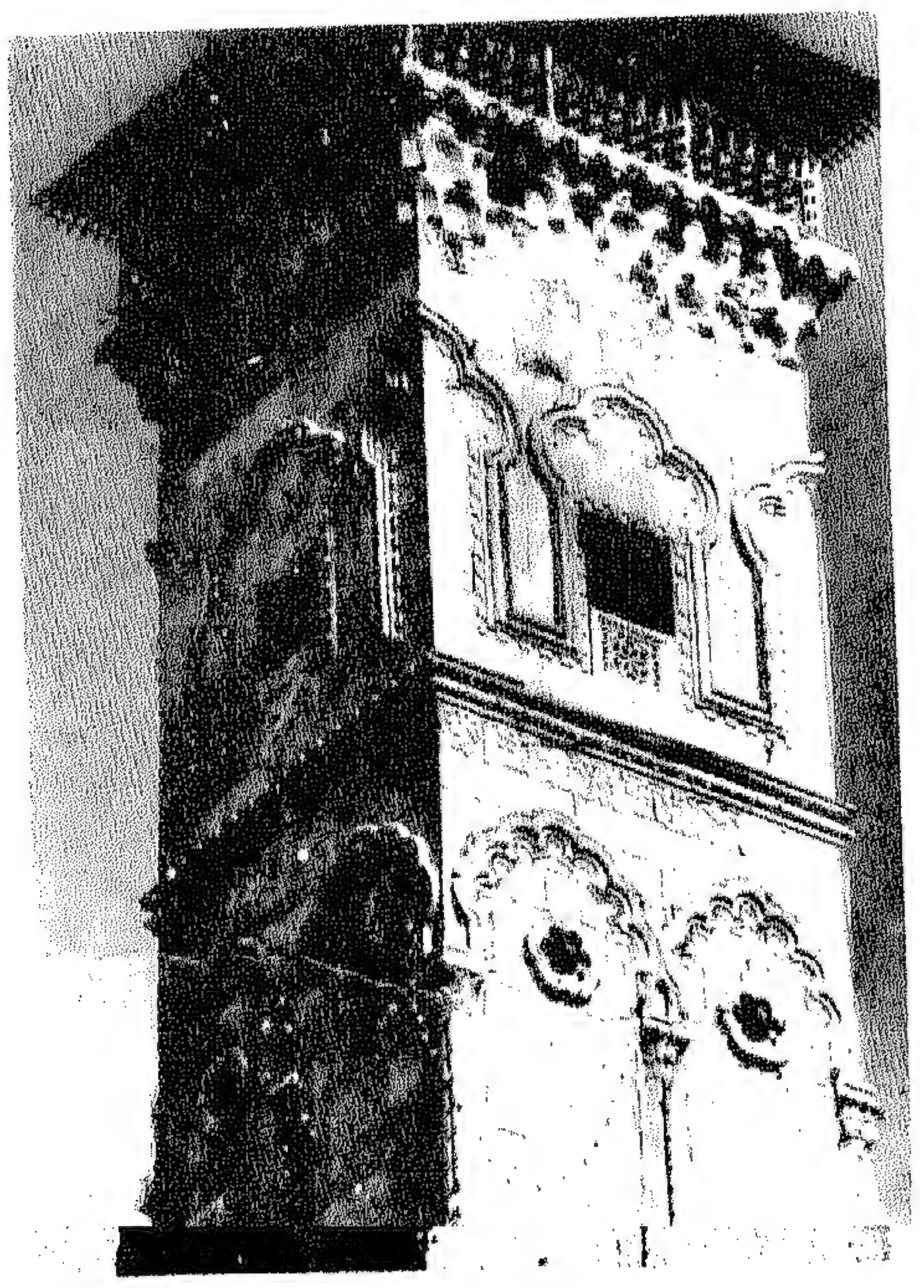

١٠ ـــ حلب ـــ الجامع الكبير ـــ المئذنة

اللبن والحجارة وتتجه الى بيت المقدس ، فقد كانت قبة الصخرة قبلة اتجه اليها المسلمون مدة سبعة عشر شهرا حتى حولت القبلة بأمر من الله؛ (قد ترى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينّك قبلة ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره ، وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون) البقرة ١٤٤ .

وأجريت في المسجد تعديلات متعاقبة كان أهمها البناء الجديد الذي أنشأه عمر ابن عبد العزيز بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك .

وفي عام ١٤ هـ (٦٣٥ م) أنشيء **مسجد البصرة** باشراف عتبة بن غزوان وكان مجرد سقيفة مغطاة بالقصب تنهض على جذوع نخل وكان يحيطه خندق ، دونما جدار .

وفي العام التالي (٦٣٦ م) أنشأ سعد بن أبي وقاص **مسجد الكوفة** . وكان في بداية انشائه من القصب يحيطه سور من القصب ، وأعاد بناءه باللبن زياد بن أبيه عام ٥١ هـ (٦٧٠ م) .

اما **مسجد الفسطاط** ، فلقد أنشيء عام ٢١ هـ (٦٤٢ م) بأمر من عمرو بن العاص ، وكانت مقاييسه ٥٠×٣٠ ذراعا ، وهو سقيفة تنهض على جذوع نخيل وليس له صحن متسع . ولقد أعيد انشاؤه مرات عدة ، وليس للمسجد الحالي الذي أنشيء عام ١٩٢٢ م علاقة بشكله القديم .

ومسجد عقبة بن نافع في القيروان انشيء عام ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ، وهو مجرد صحن محاط بسور من اللبن على شكل حصن . ولقد جدد بناؤه عام ٨٠ هـ (٦٩٠ م) بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان ، وفي عهد الوالي حسان بن النعمان والي المغرب ، فجعل له أبراجا على أركان سوره فأصبح حصنا ، وفي عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ هـ (٧٢٣م) قام بشر بن صفوان باجراء زيادات واسعة فيه .

وأعاد بناءه زيادة الله بن الأغلب عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) وأخذ شكله النهائي عام ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) في عهد ابراهيم بن أحمد ثامن امراء بني الأغلب .

على أن **قبة الصخرة** وهي مسجد مختلف في شكله عن مفهوم المساجد ، كان قد انشيء فوق الصخرة التي عرج الرسول منها في الحرم الشريف ، وقد ابتدىء بعمارتها عام ٦٩ هـ (٦٨٨ م) وتم انشاؤها بعد ثلاث سنين من قبل عمال وفنانين

من أهل الشام ، على شكل قبة نصف كروية تعلو الصخرة محمولة على ثمانية أعمدة ، يحيطها رواق يحده من الخارج ثمانية جدران . ولقد زينت هذه القبة من الداخل بالفسيفساء ومن الخارج بالزخارف والكتابات .

وفي عام ٧٠٦ ـــ ٧١٥ م انشىء **المسجد الكبير في دمشق** على غرار تقسيمات مسجد النبي في المدنية ، ولكنه يعتبر بروعته وسعته والفن فيه أقدم وأكمل آبدة اسلامية ، كما يعتبر أول مسجد تضمن محرابا ومقصورة ومآذن وميضأة ومشاهد ، وهو الأساس الذي أخذت عنه المساجد التالية ، شكلها وترتيبها .

ففي القدس أنشأ الوليد بن عبد الملك نفسه **المسجد الأقصى** عام ٧١٥ م ـــ ٧١٦ م وتهدم معظمه في زلزال عام ٧٤٧ م فأعاد بناءه الخليفة المنصور عام ٧٥٨ م ، ثم تهدم بسبب الزلازل عدة مرات حتى العهد الفاطمي ١٠٣٥ م ، وما زال المسجد يحتفظ بشكله الفاطمي رغم تخريبات وتعديلات الصليبيين . وكان في مخططه الأولي مشابها للمسجد الكبير بدمشق . وانشىء جامع ديار بكر وجامع حلب وجامع بصرى على غرار المسجد الكبير . وكذلك شأن **جامع القرويين** في فاس الذي انشىء بسيطا في البداية وقد بناه ادريس الثاني عام ٨٠٨م ، وفي عام ٨٥٩ م قامت فاطمة بنت محمد الفهري بتجديد بنائه وتوسيعه ، ثم اضيفت له فيما بعد زيادات أخرى . **والمسجد الجامع في قرطبة** الذي بدىء بانشائه عام ٧٨٦ م على يد عبد الرحمن الداخل كان في نسقه صورة مطابقة لمسجد دمشق ، فهو صحن ملحق بحرم وكانت مئذنة على واجهته . وتغطيه جملونات عرضانية وجناح معترض طولاني ، وكان مزينا بالفسيفساء كالجامع الكبير . ولقد تغيرت معالمه الاولى بفعل الزيادات المضطردة عليه .

وأكثر المساجد المرابطية والموحدية في المغرب ، استعارت الصيغة المعمارية السورية ، يبدو ذلك في تقسيم المسجد الى حرم وصحن مستطيلين والى المئذنة المربعة التي تسمى المئذنة السورية ، بل لقد صمم المسجد متجهاً في قبلته نحو الجنوب كالجامع الكبير، بينما تتجه القبلة في المغرب نحو الشرق . ويبدو ذلك واضحا في بناء مجسد الكتبية في مراكش وبناء مسجد حسان في الرباط .

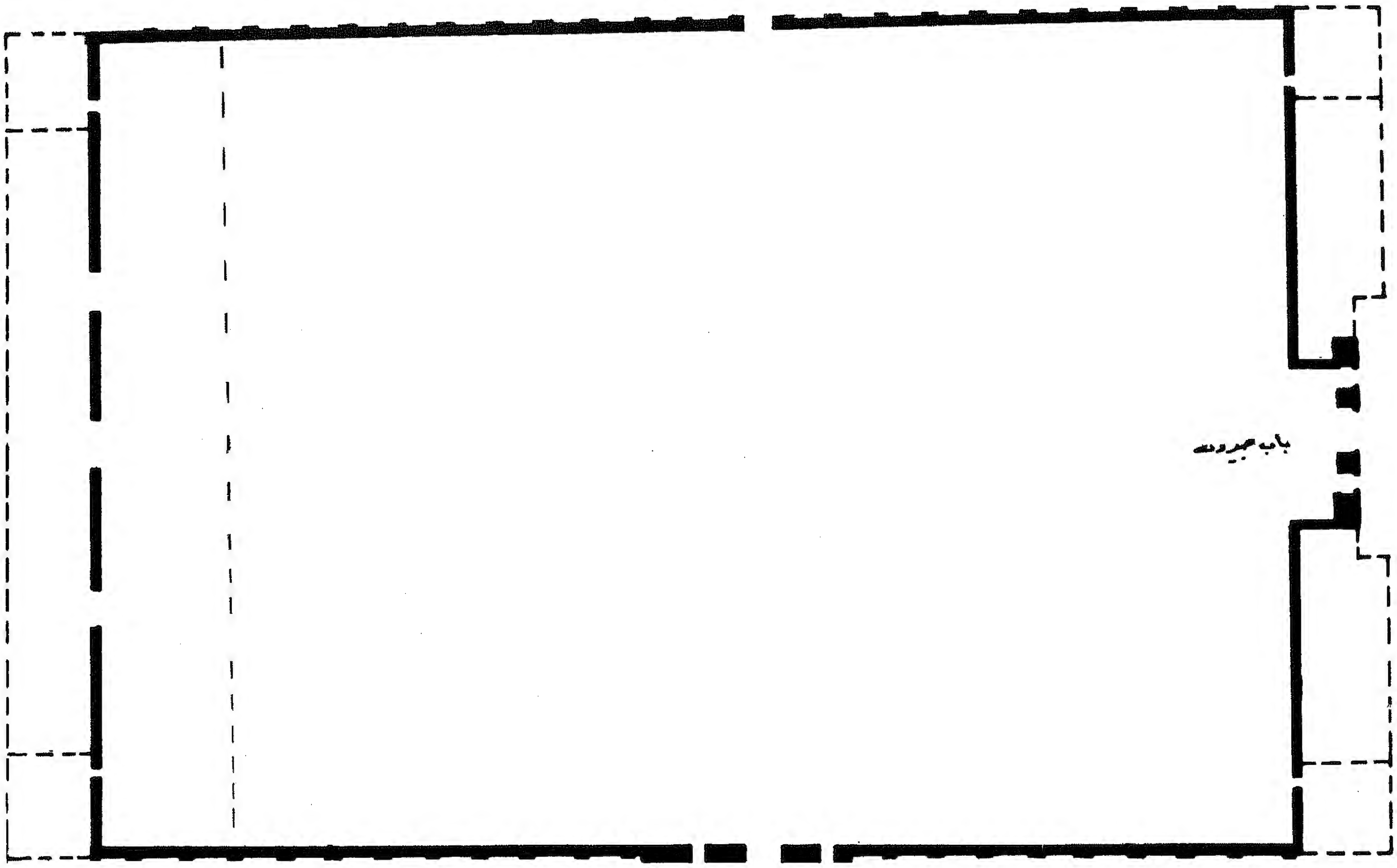

١١ ــ حدود المعبد قبل الزيادات الاسلامية

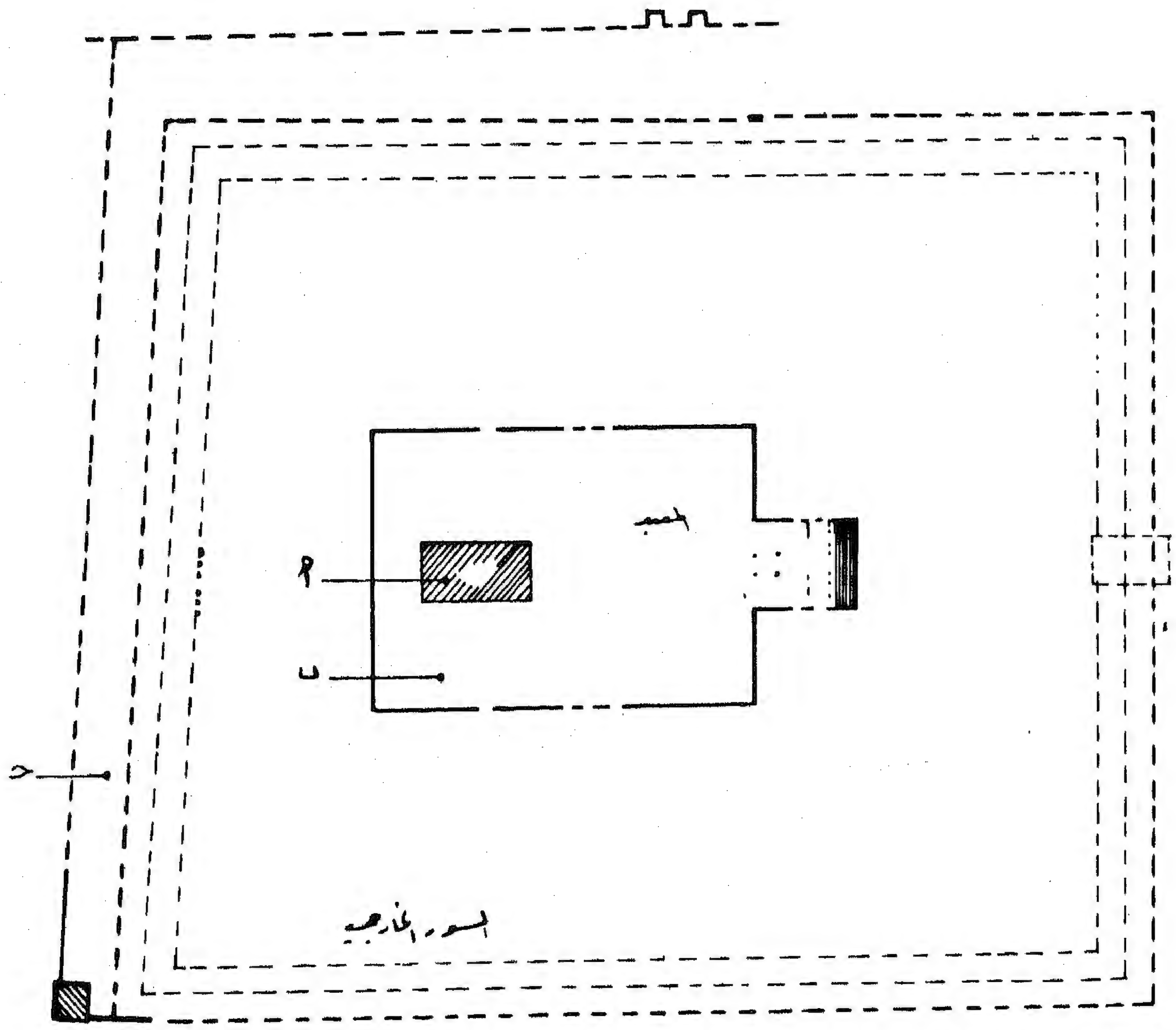

١٢ ــ المعبد والسور الخارجي في العهد الروماني .

أ ــ الهيكل cella

ب ــ حدود الحرم Temenos

جـ ــ الأروقة المحيطية . Peribol

الأرض المقدسة ــ معبد حدد

في البقعة التي يقام عليها المسجد الكبير في دمشق ، كان عدد من المعابد المتعاقبة ، أولها معبد حدد ، وهو اله الآراميين سكان دمشق الأوائل في القرن العاشر قبل الميلاد ، وهو إله العاصفة والمطر والخصب ، وكان هذا الرب معبودا في سورية كلها ، وكانت زوجته المعبودة آتارغاتيس صنوا لفينوس .

ولم يبق من آثار هذا المعبد ، الا لوح من الحجر البازلتي الأسود بعرض لايتجاوز المتر المربع الواحد وقد نقش عليه أسد مجنح يحاكي في أسلوبه اسلوب منحوتات آرامية تعود الى أثاث الملك الارامي حزائيل ، مما يشير الى ان معبدا آراميا كان في هذا المكان المقدس . ولقد عثر على هذا اللوح في الجدار الشمالي عند محاولة اعادة بنائه ، وهو محفوظ في المتحف الوطني بدمشق .

معبد جوبيتر الدمشقي

على انقاض معبد حدد القديم ، وتبعا لقاعدة « الاستمرار » انشىء في العهد الروماني معبد جوبيتر الدمشقي المؤلف من المنشآت التالية :

١ ــ الهيكل او الناوس Naos او السيلا Cella وهو المعبد الاساسي او قدس الاقداس ولاندري شيئا عن اوصافه الا انه كان يقع الى الغرب من المستطيل الذي يحيطه ، ولعل ابعاده هي في حدود ٤٠×٣٠ م .

٢ ــ التيمينوس Themenos وهو ساحة تحيط بالمعبد المقدس بطول ١١٩ او ١٣٦ م وعرض ٩٧ م من الشرق الى المغرب محاطة بجدار يلاصقه رواق محمول على أعمدة ؟ وفي منتصفها ينفتح باب ذوصيوان ، ولكن صيوان الباب الشرقي كان اكثر فخامة .

٣ ــ البيريبول Peribol وهو ساحة اخرى تحيط التيمينوس بطول ٣٨٠ مترا وعرض ٣١٠ من الشرق الى الغرب يحده سور خارجي واروقة داخلية او مخازن تفتح على اروقة تحمي المارة والمشترين ، وكان هذا القسم يشكل سوقا ، يمتد مائة وعشرين مترا ، ملحقا بالمعبد يساعد المؤمنين على قضاء حاجاتهم . وكان لهذا

٢٥..............الجامع الأموي وخلفه دمشق .
٢٦ ـــ ٢٧.............لوحة للفنان بلليني ويُرى فيها واجهة
القصر الأبلق المملوكي وخلفه الجامع
الأموي ـــ ق ١٦ متحف اللوفر
٢٨..........المحراب بشكله الجديد .

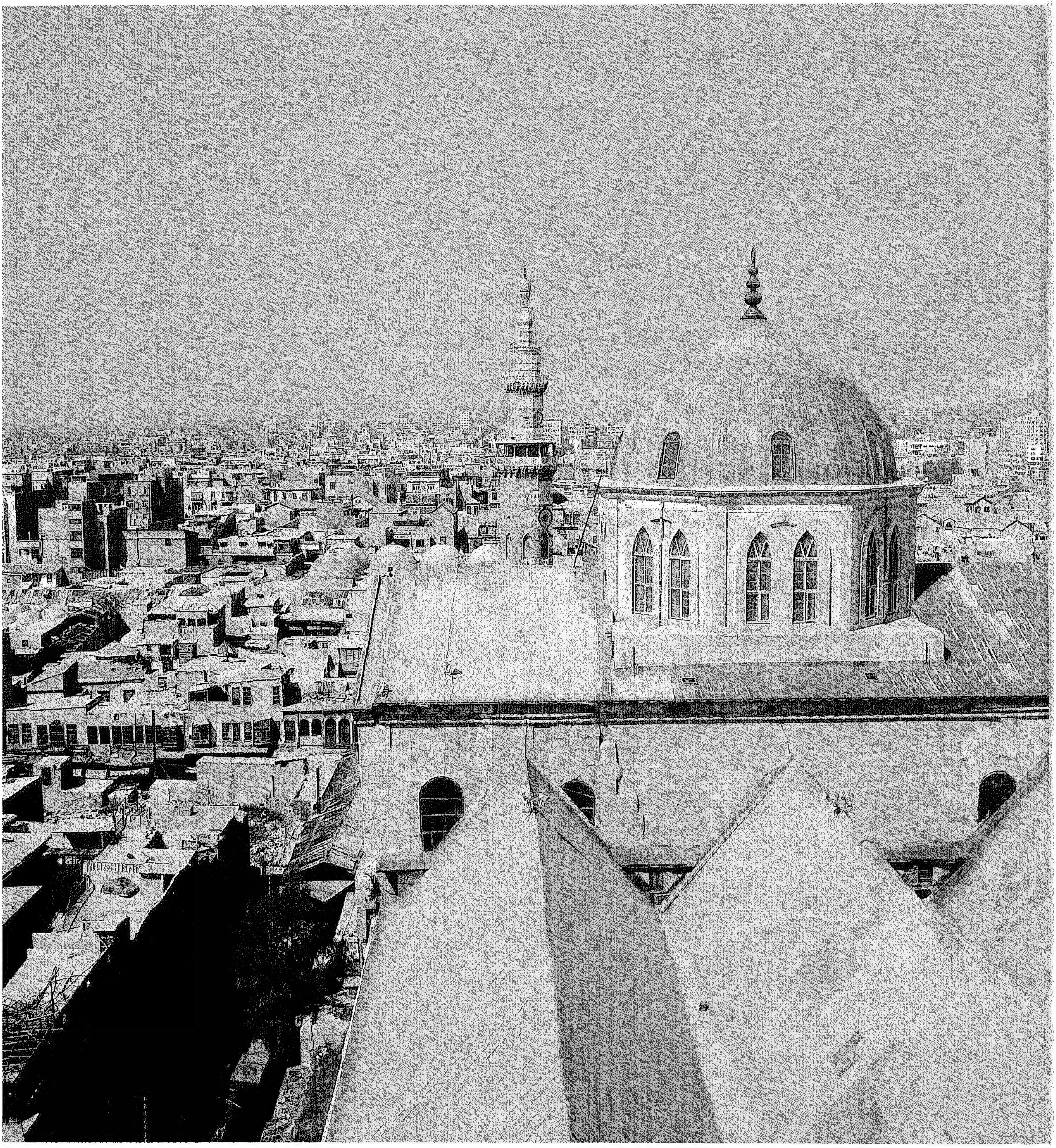

٢٥

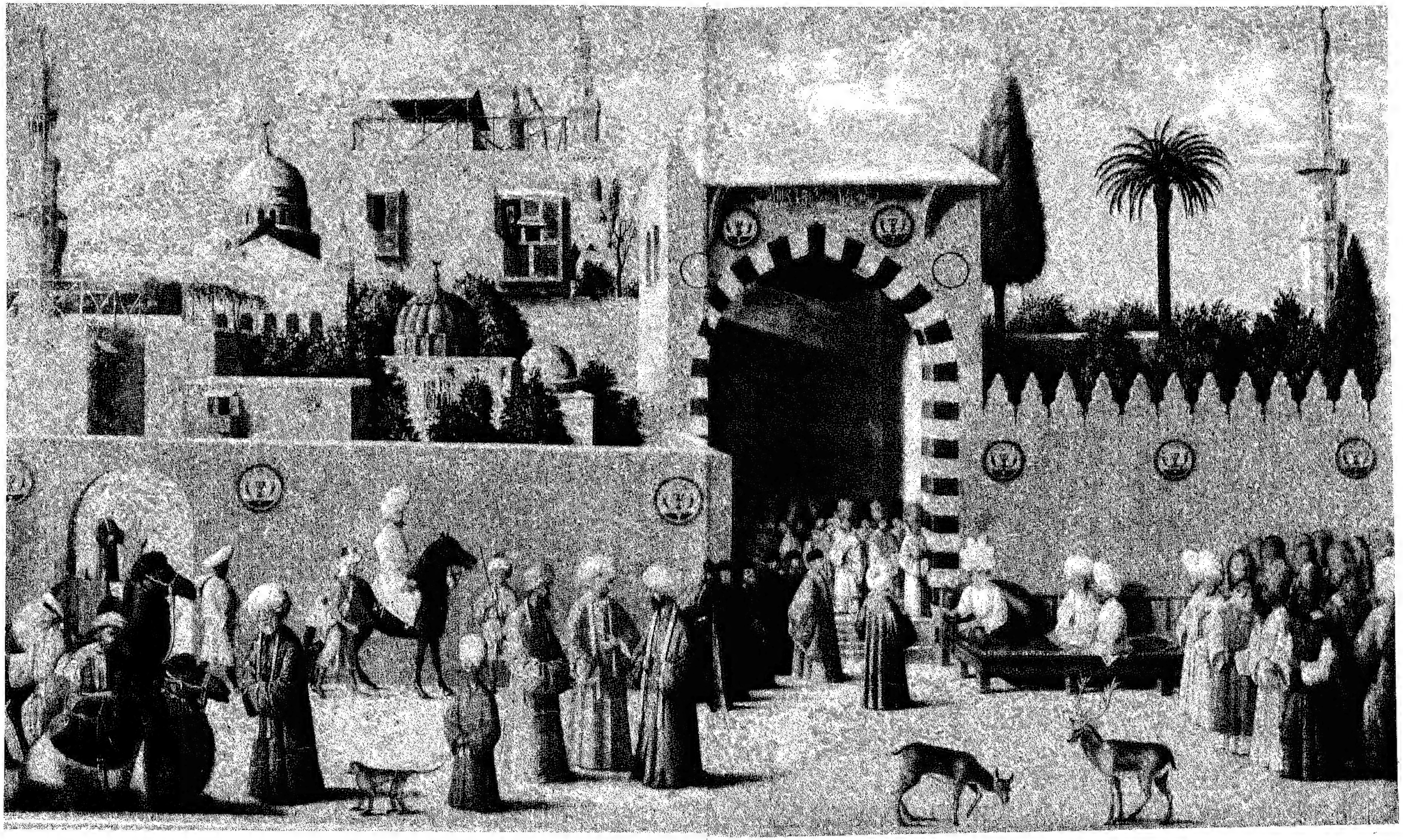

١٣ ــ المدخل الغربي للجامع وترى بقايا دار الأمارة وبوابة المعبد

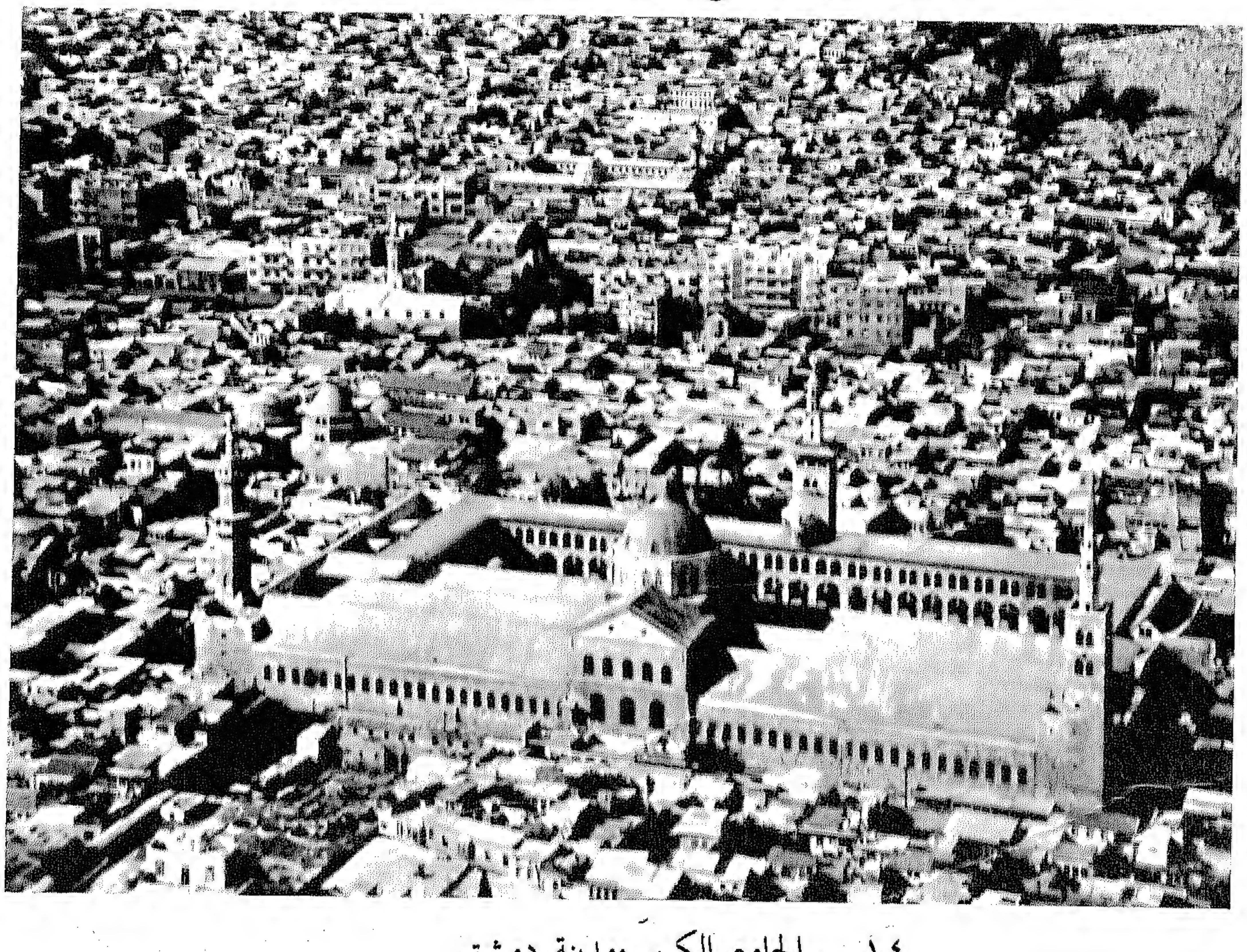

١٤ ــ الجامع الكبير ومدينة دمشق .

الحرم الكبير مدخلان فخمان من جهة الشرق والغرب اما بابا الشمال والجنوب فكانا اقل اهمية .

ويبدو ان صفا آخر من الاروقة انشىء فيما بعد خارج السور الخارجي (التيمينوس) من جهة الغرب والشمال ، فقد امتد صفان متقابلان من الاروقة التي تتضمن مخازن ، ولقد اطلق على هذا السوق اسم (غاما) لانه شبيه في شكله بالحرف الاغريقي . ولقد انفق على هذا السوق من واردات المعبد وكان ذلك عام / ٣٣٠ ـــ ٣٤٠ / للميلاد . وبقي من آثار السور الخارجي والاسواق بعض الاعمدة والاروقة مع طنفاتها في الجهة الغربية (باب البريد) وفي الجهة الشرقية (باب جيرون) وفي الجهة الشمالية (الكلاسة) . اما المعبد فان الجدران الخارجية القائمة حتى اليوم من مخلفات المعبد الروماني ، هي الجدار الجنوبي الذي ينفتح في وسطه الباب الرئيسي الثلاثي الفتحات يعلوه طنف ويحيطه اطار مزخرف جميل مازال بحالة جيدة حتى يومنا هذا .

الكنيسة ومقرها هيكل المعبد (الناوس)

في هذا المكان المقدس المؤلف من جدران واروقة آبدة ، كان لابد ان يقيم المسيحيون كنيسة لهم مستفيدين من المنشآت المتبقية من العهد الروماني ، ومن المعروف ان تيودوس استعمل هذا البناء ككنيسة مسيحية في عام ٣٧٩ م تحت اسم كنيسة القديس يوحنا المعمدان .

ولكن ماهو شكل الكنيسة واين كان مكانها ؟

هناك آراء مختلفة ، واتزنغر وفولزنغر Watzinger et Wulzinger يريان ان جدران المعبد والاروقة استخدما اولا كنيسة ثم انشىء على الجدار الجنوبي حرم مؤلف من ثلاثة أجنحة يقطعه جناح عريض معترض .

ويرى دوسو Dussaut نفس الرأي ، الا انه يعتقد انه في البداية كان ثمة حرم تغطيه ثلاثة اجنحة ثم أضيف الجناح المعترض .

ولكن تييرس Thiersch يرى ان الحرم كله اسلامي صرف ولم يكن له وجود في العهد المسيحي وكذلك هو رأي ستريكوفسكي Strzygowski ،

وجميع هذه الاراء هي حدوس لاتعتمد على نصوص او على دراسة اثرية . ويرى سوفاجية Sauvaget ان الكنيسة لم تكن بالشكل المعروف اليوم في الحرم ، اذ لو كان الامر كذلك لما تعارض الحرم في تصميمه مع موقع ضريح يوحنا المعمدان والباب الجنوبي الرئيسي الذي لايقوم على محور الجناح الاوسط الرئيسي والقبة ، وهو يؤيد القول من ان الحرم اسلامي البناء وانه من انشاء العمال المحليين .

وبصورة عامة ليس مايؤكد مكان وشكل الكنيسة البيزنطية ، وتتجه آراء العلماء وبخاصة كريزويل الى ان الكنيسة كانت في صحن المعبد الروماني . بل كانت تشغل الناوس القديم نفسه مع بعض التعديل ، ونحن نؤيد هذا الرأي .

مشهد القديس يوحنا (النبي يحيى)

يذكر ابن الفقية في مجال الحديث عن رأس يوحنا المعمدان فيقول : قال زيد بن واقد : وكلني الوليد على العمال بمسجد دمشق فوجدنا فيه مغارة ، فعرّفنا الوليد ذلك . فنزله في الليل فاذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في مثلها ، واذا فيها صندوق وفيه سفط مكتوب عليه : هذا رأس يحيى بن زكريا . فرأيناه ، فأمر به الوليد ان يجعل تحت عمود معيّن ، فجعل تحت العمود المسفّط الرابع الشرقي ، ويعرف بعمود السكاسك .

وقال ابو مهران : رأس يحيى بن زكريا تحت عمود السكاسك .

وقال زيد ايضا : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين وضع تحت العمود والبشرة والشعرة لم تتغير . وليس من المعقول ان يستمر رأس يوحنا واضحا بعد مرور سبعة قرون . لهذا ليس مايؤكد وجود رأس يوحنا في هذا المكان ، وأن اقامة مشهد له بالشكل الذي كان عليه لم يتم في عهد الوليد ، بل تم في عهد متأخر غير معروف بعد، ولكنه سابق للقرن الثاني عشر ، اذ أن ابن جبير شاهده ووصفه قائلا : « فأولها مشهد رأس يحيى بن زكريا ، عليه السلام ، وهو مدفون بالجامع المكرّم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية ، رضي الله عنهم ، وعليه تابوت خشب معترض من الاسطوانة ، وفوقه قنديل كأنه من بلّور مجوف ، كأنه القدح الكبير ، لايدري أمن زجاج عراقي ام صوري هو ، أم من غير ذلك ..» ولقد احترق التابوت عام ١٨٩٣ .

الجامع قبل الوليد

تم الفتح الاسلامي في دمشق عام ١٤هـ (٦٣٦ م) ويذكر المؤرخون ان خالد ابن الوليد دخل دمشق من الباب الشرقي ودخل عمرو بن العاص من باب توما ونزل شرحبيل على باب الفراديس ونزل ابو عبيدة على باب الجابية ونزل يزيد بن ابي سفيان على الباب الصغير الى الباب الذي يعرف بكيسان .

والواقع ان العرب المسلمين فتحوا دمشق مرتين ، الاولى كانت عام ٦٣٥ م في ١٥ رجب ١٤ هـ (كما يقول البلاذي ص ١٢٣) وبقي المسلمون في دمشق وحمص ثلاثة شهور ، ثم انسحبوا نحو الجنوب ، حتى إذا استطاعوا قهر هرقل في معركة اليرموك في ١٥ هـ (٦٣٦ م) عادوا إلى دمشق بعد أربعة شهور ، وكان الفتح الثاني .

ودخل خالد دمشق فاتحاً وكتب لأسقفها عهداً قال فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها ، أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لاتهدم ولايسكن شيء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء والمؤمنين ، لايعرض لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية) .

ودخل ابو عبيدة دمشق من باب الجابية ، والتقى مع خالد بالمسقلاط وهو موضع النحاسين بدمشق الذي يسمى البريص . واحتل أقسام المعبد المهملة والمفتوحة والحافلة بالاطلال .

وهكذا كان للمسلمين القسم الشرقي من الحرم ، وكان اول محراب في الاسلام هو محراب الصحابة الذي أقامه المسلمون الأوائل على الجدار الجنوبي . وهذا يعني ان المسلمين قبل الوليد انما شغلوا هذا القسم من المعبد الذي لم يكن كنيسة قط وأقاموا فيه محرابا هو محراب الصحابة وكانوا يدخلون الجامع من الباب الصغير الايسر في الجهة الجنوبية ، وكان متصلا بقصر الخضراء ، ولعل معاوية رمم مكان الصلاة فجعل منه مسجدا مؤقتا .

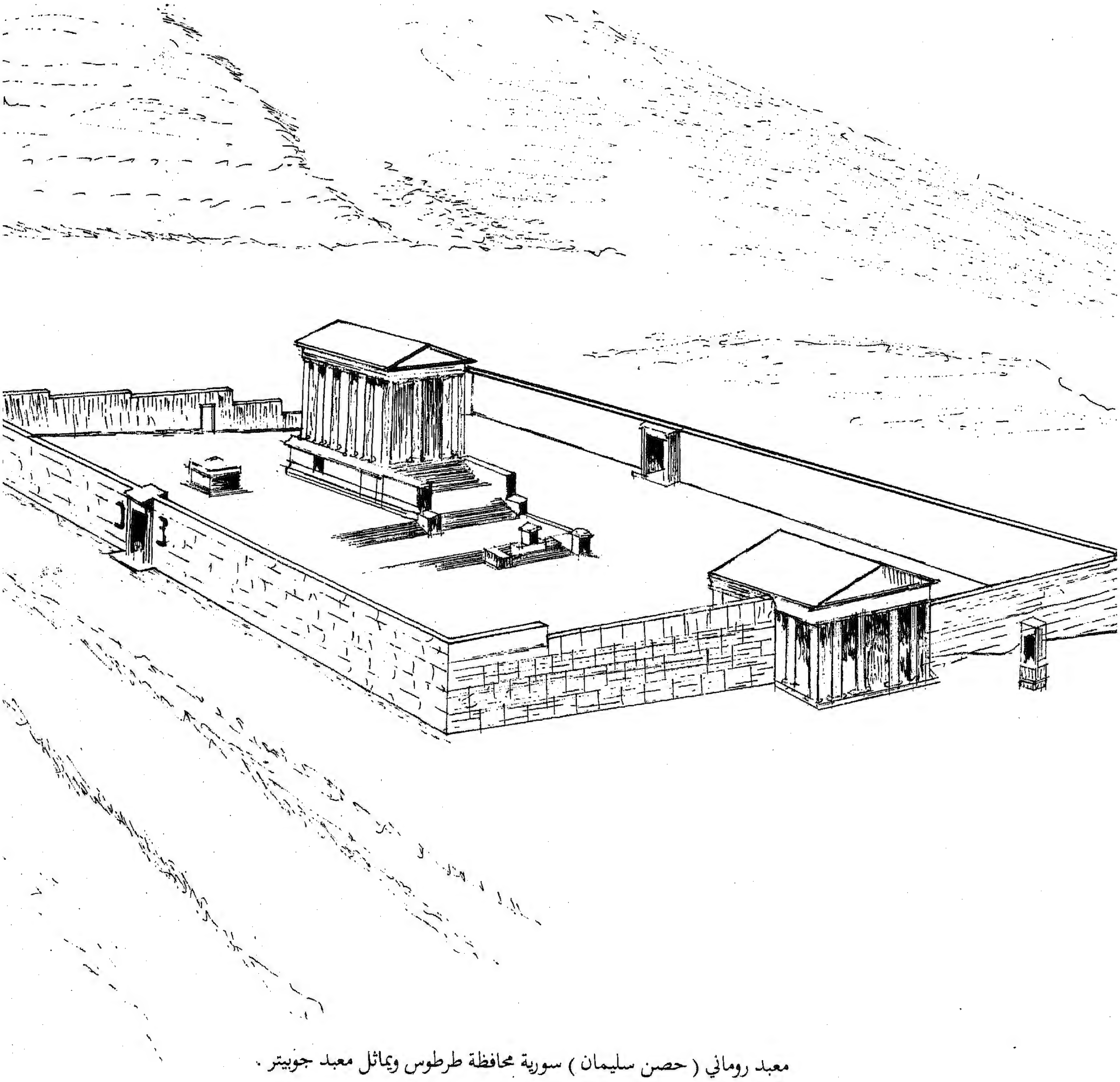

معبد روماني (حصن سليمان) سورية محافظة طرطوس ويماثل معبد جوبيتر .

الوليد والجامع الكبير

ان جميع الدلائل تؤكد ان الجامع الكبير أنشأه الوليد بن عبد الملك ضمن حدود جدران المعبد الوثني ، وان الكنيسة ـــ في اي مكان كانت ـــ أزيلت تماما .

يقول ابن الفقيه (توفي عام ٢٩٠ هـ ـــ٩٠٣ م) ولما أراد الوليد بن عبد الملك بناء مسجد دمشق دعا نصارى دمشق فقال : «إنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم هذه ونعطيكم موضع كنيسة حيث شئتم . فحذّروه ذلك ، وقالوا : إنا نجد في كتابنا أنه لايهدمها أحد الا خنق . فقال الوليد : فأنا أول من يهدمها . فقام عليها ، وعليه قباء أصفر فهدمها بيده ، وهدم الناس معه ، ثم زاد في المسجد » .

لقد بنى الوليد جميع ماكان داخل المعبد وزاد في سمكها ، ثم إنه توفي عام تسع وتسعين وقد انهى أخوه سليمان المسجد بعد عام من وفاته ، وكان الوليد قد بدأ في عمارة المسجد عام ٨٦ هـ ٧٠٤ م ، كما يقول العلموي .

يقول قدامه بن جعفر (توفي ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م) وفي المسجد الجامع في الرواق القبلي مما يلي المئذنة ، كتاب في رخامة بقرب السقف : «مما أمر ببنائه أمير المؤمنين سنة ست وثمانين » . وهي لوحة مصنوعة من الفسيسفساء مع آيات قرآنية أخرى تشكل شرائط رائعة لم يعد لها من أثر وتحدث عنها المؤرخون .

٣٧ .... مشهد جوي للجامع .

٣٨ ـــ ٣٩ .... زاوية من الصحن .

٤٠ .... المئذنة الشرقية .

٤١ .... مئذنة العروس الشمالية .

٤٢ ـــ ٤٣ .... مشهد عام للصحن .

٤٤ .... المئذنة الغربية .

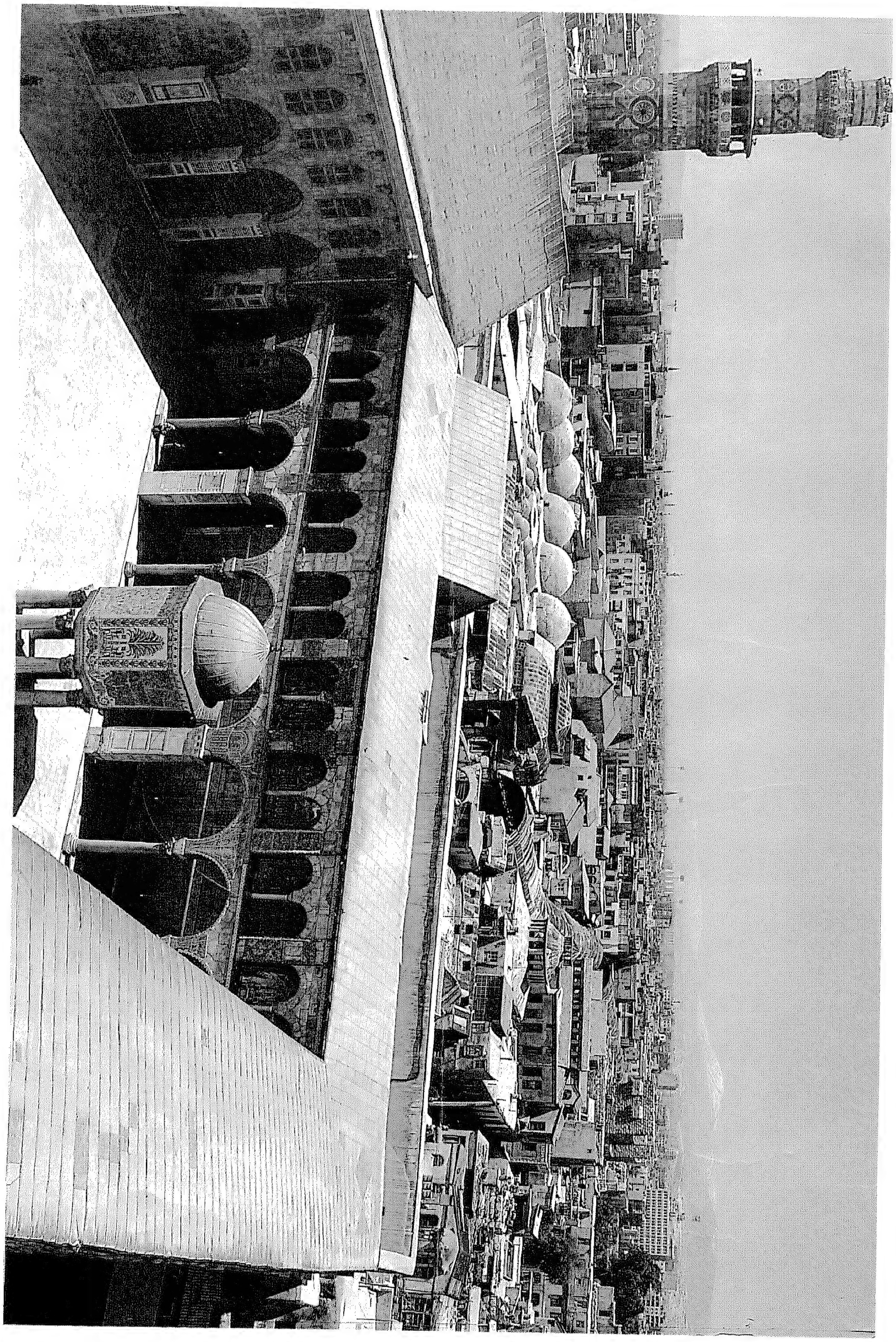

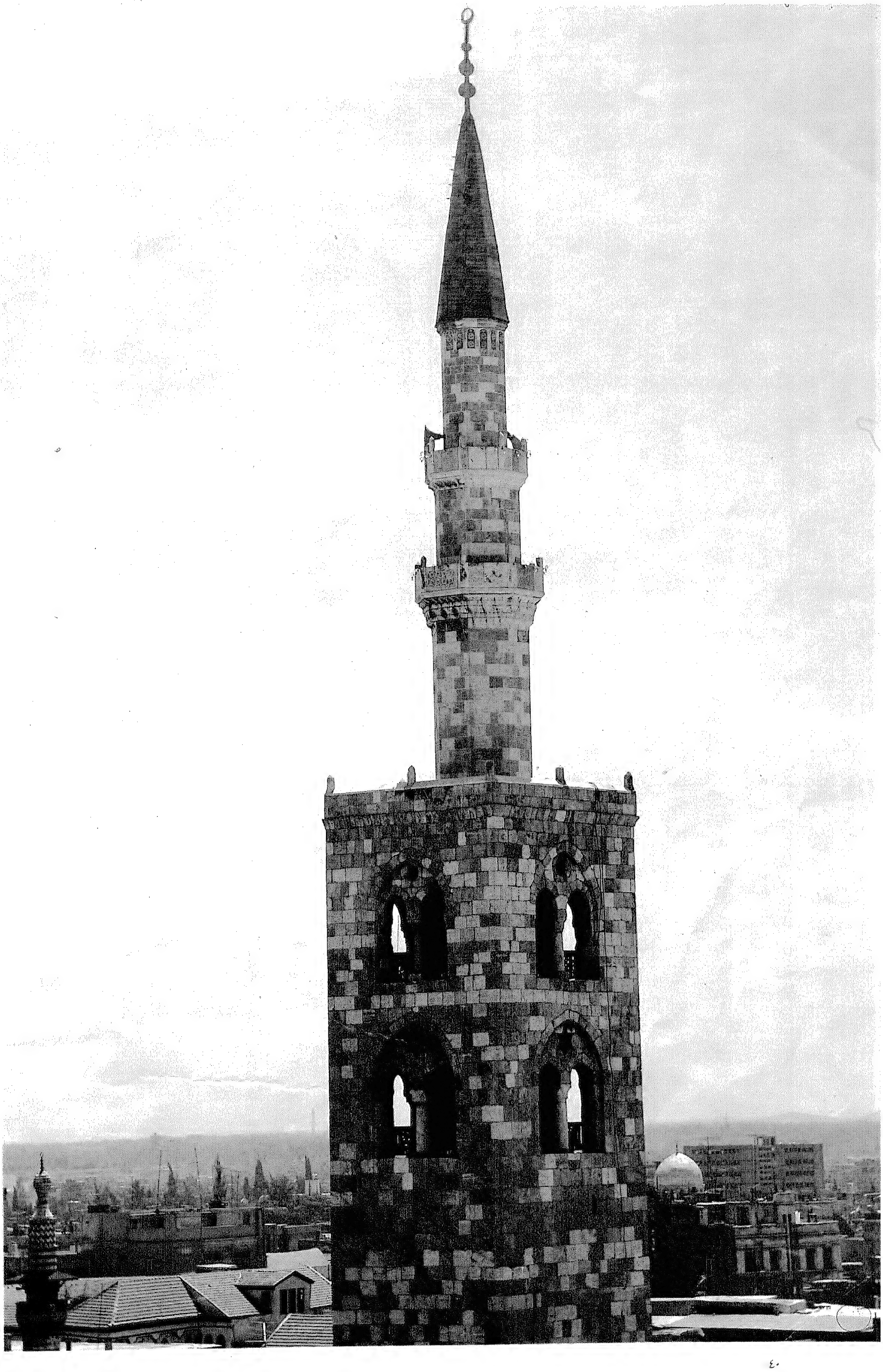

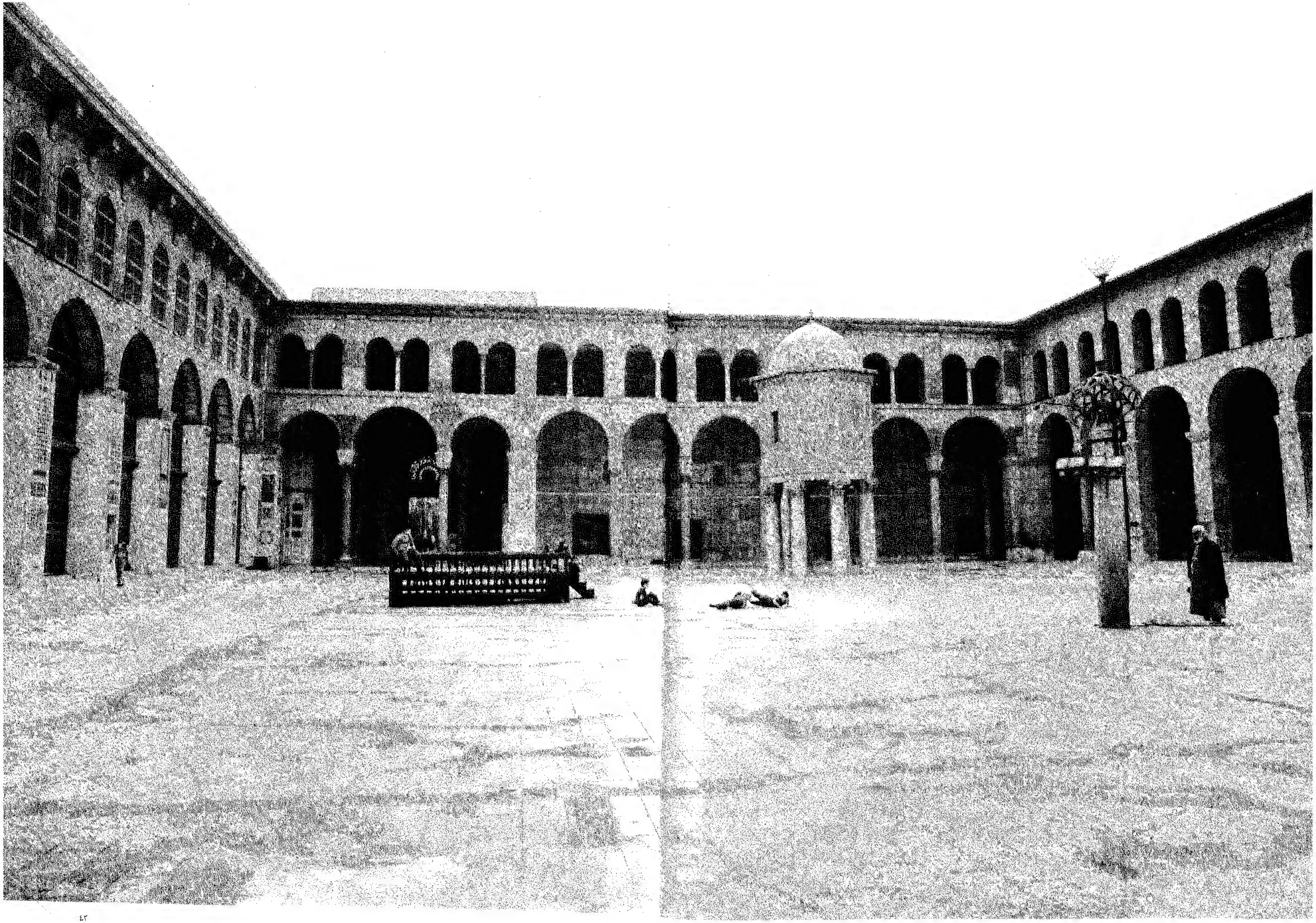

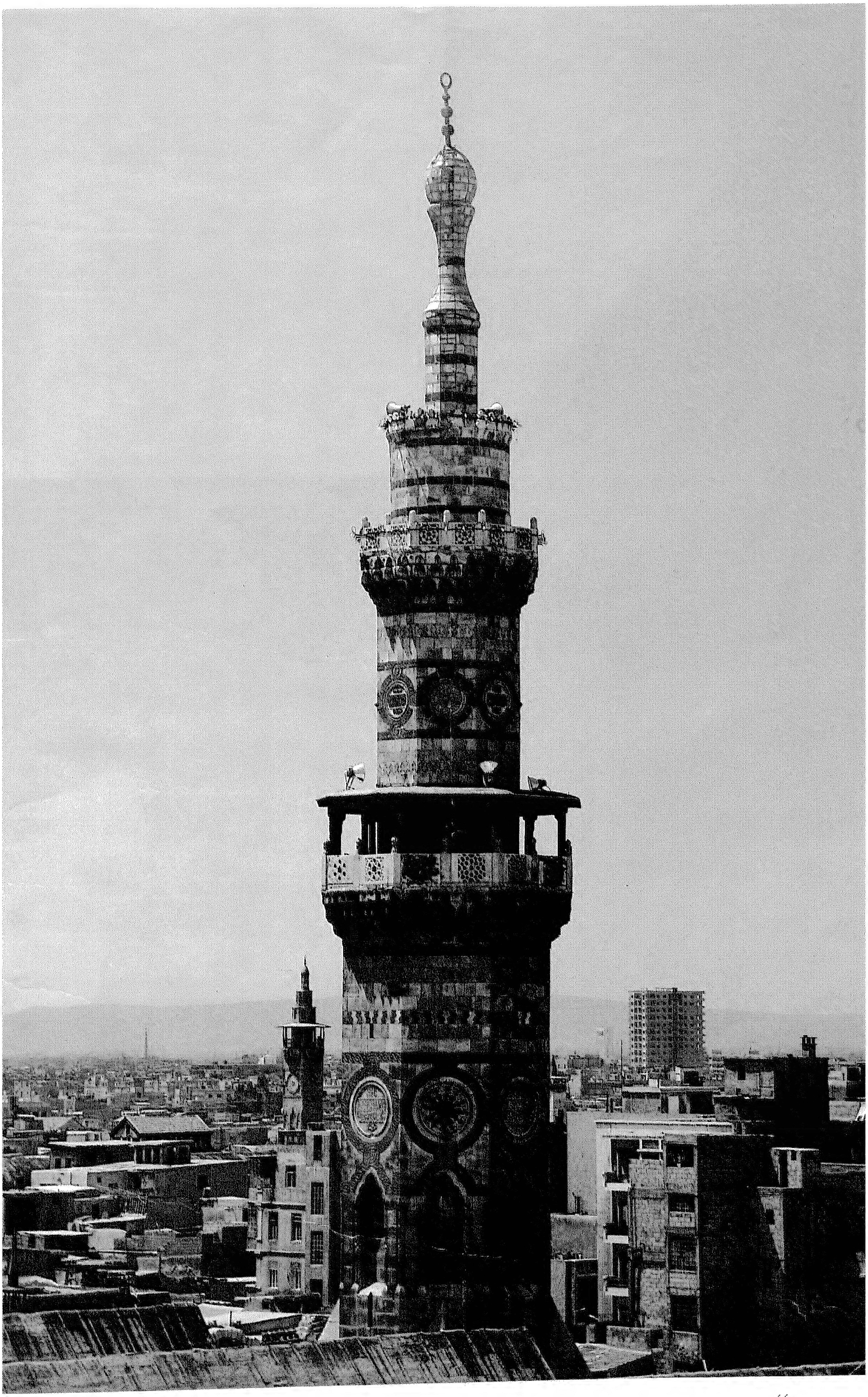

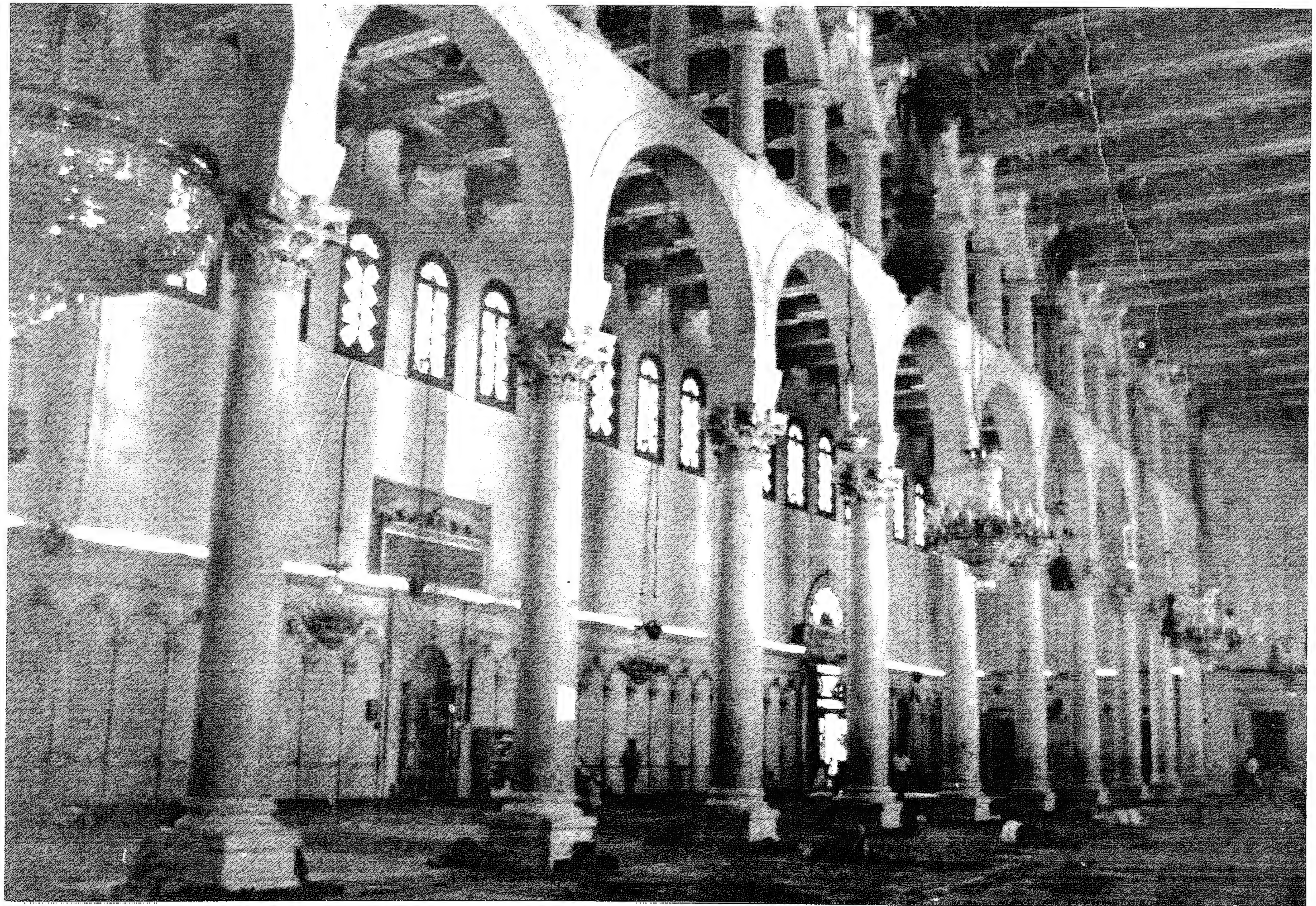

١٦ ــ حرم الجامع ودعاماته الثمانية والستون .

الفصل الثاني

انشاء الجامع

- مخطّط بناء الجامع ، وأصالة البناء الحالي .
- أقسام وَتوابع الجامع الكبير .

إنشاء الجامع

○ مخطط بناء الجامع ، وأصالة البناء الحالي .

استفاد المعمار في العهد الاسلامي من مخطط التيمينوس كما استفاد من الأحجار المهدمة والأعمدة والتيجان .

ونعتقد أن أبعاد التيمينوس كانت ٩٧×١١٥ م وتمت زيادة المخطط الى الغرب فأصبحت ٩٧×١٣٦ م . ورفعت الجدران والاروقة والحرم واقيمت قبة النسر ومئذنة العروس ثم أضيف الى الشرق والغرب زيادتان بعرض ١٠ر٤٥ مترا في كل زيادة برجان ركنيان وصالتان (مشهدان) وباب في الوسط ، لقد وجد البناؤن الذين كلفهم الوليد بعمارة المسجد الكبير ارضا مليئة بالأنقاض والأعمدة والتيجان ، وكان عليهم الاستفادة من هذه الأنقاض الجاهزة في بناء أعظم آبدة اسلامية ، وكان عليهم أولا وضع حدود الجامع وأقسامه .

لقد استفاد البناؤن ، وكانوا من أبناء البلاد المتمرسين في إنشاء الأوابد الضخمة ، من بقايا جدران التيمينوس وأساساته ويبدو الجدار القبلي في مداميكه السفلى وبابه الثلاثي من أبرز ماتبقى من الجدران القديمة .

ونحن نعتقد ان أبعاد التيمينوس كانت ذاتها أبعاد الجامع فيما عدا الجهة الغربية التي تمت فيها زيادة على ما نعتقد ونؤكد ذلك بما يلي :

١ ــ ان البابين في الشرق والغرب يقعان في منتصف الجدراين اما البابان في الشمال والجنوب فانهما ينحرفان الى الشرق .

٢ ــ ان الزيادة الغربية ينصفها في الجدار القبلي باب الزيادة الذي يعود حتما الى العهد الاسلامي .

٣ ــ ان عضادة ضخمة مازالت قائمة على الجدار القبلي تحدد النهاية القديمة للجدار الجنوبي الروماني .

٤ ــ ان موقع التيمينوس من الرواق المحيطي يبدو أكثر انسجاما وتناسبا عندما تكون أبعاد التيمينوس هي ٩٧×١١٩ م .

٥ ــ ان عرض الجدار الشرقي الداخلي للتيمينوس مختلف من عرض الجدار الغربي .
ومع ذلك فان تخطيط حرم الجامع قام على مبدأ احاطته بأروقة وهذا التخطيط مستمد من تخطيط التيمينوس الذي نرى نظيرا له في معبد بل في تدمر وهو مستمد أصلا من شكل التيمينوس القديم في معبد دمشق والذي بقيت بعضا من آثاره وأعمدته باقية عند الفتح الاسلامي .

ولقد أقيمت مئذنة في منتصف الجدار الشمالي هي مئذنة العروس وأنشىء مقابلها قبة النسر في وسط حرم عرضاني على امتداد الجدار القبلي . كان هذا المخطط الأولي للجامع الأموي وكان النموذج الذي اعتمدته المساجد بعده.

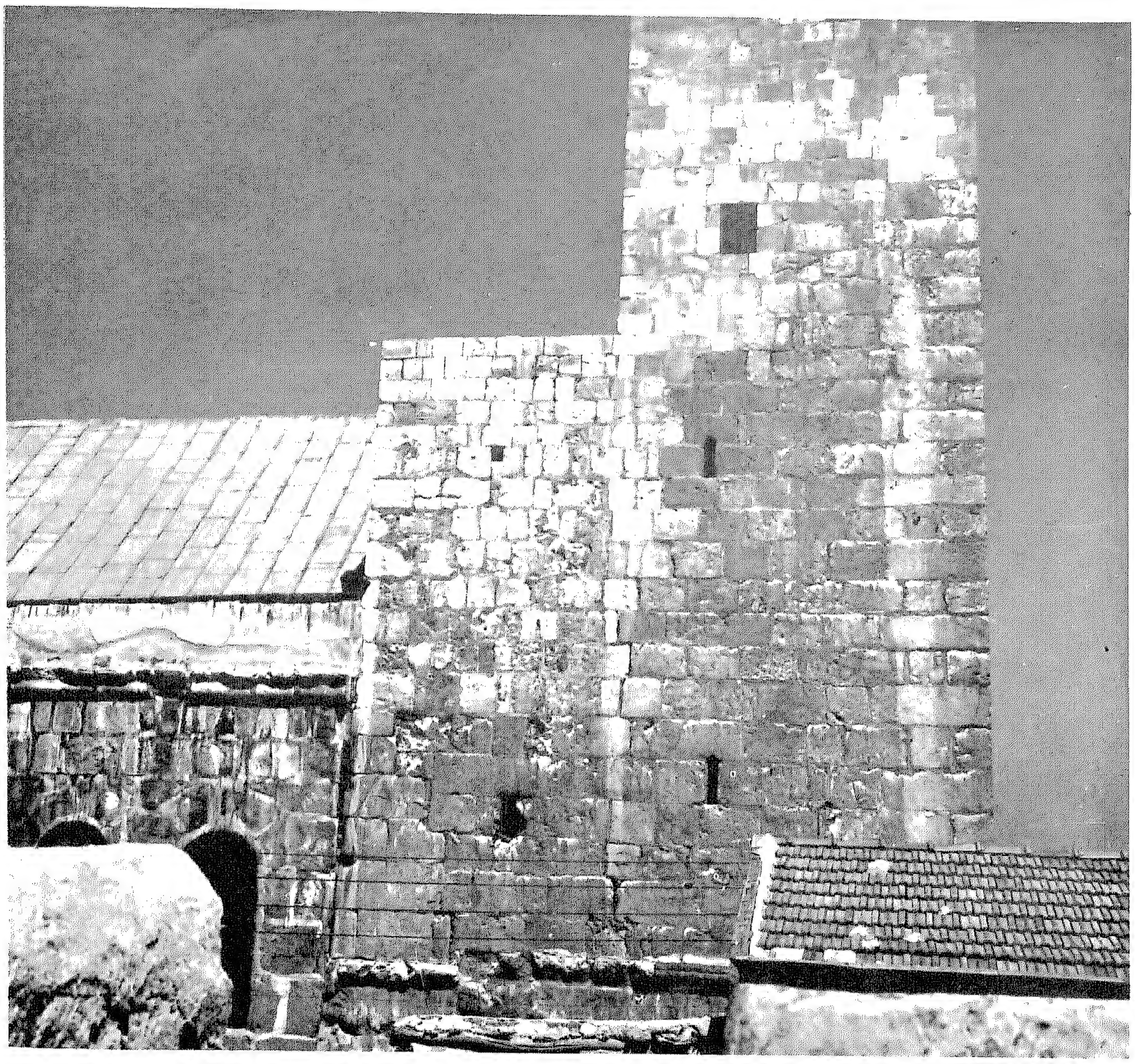

١٧ ــ قاعدة المئذنة الشرقية واختلاف مداميكها عن المداميك القديمة

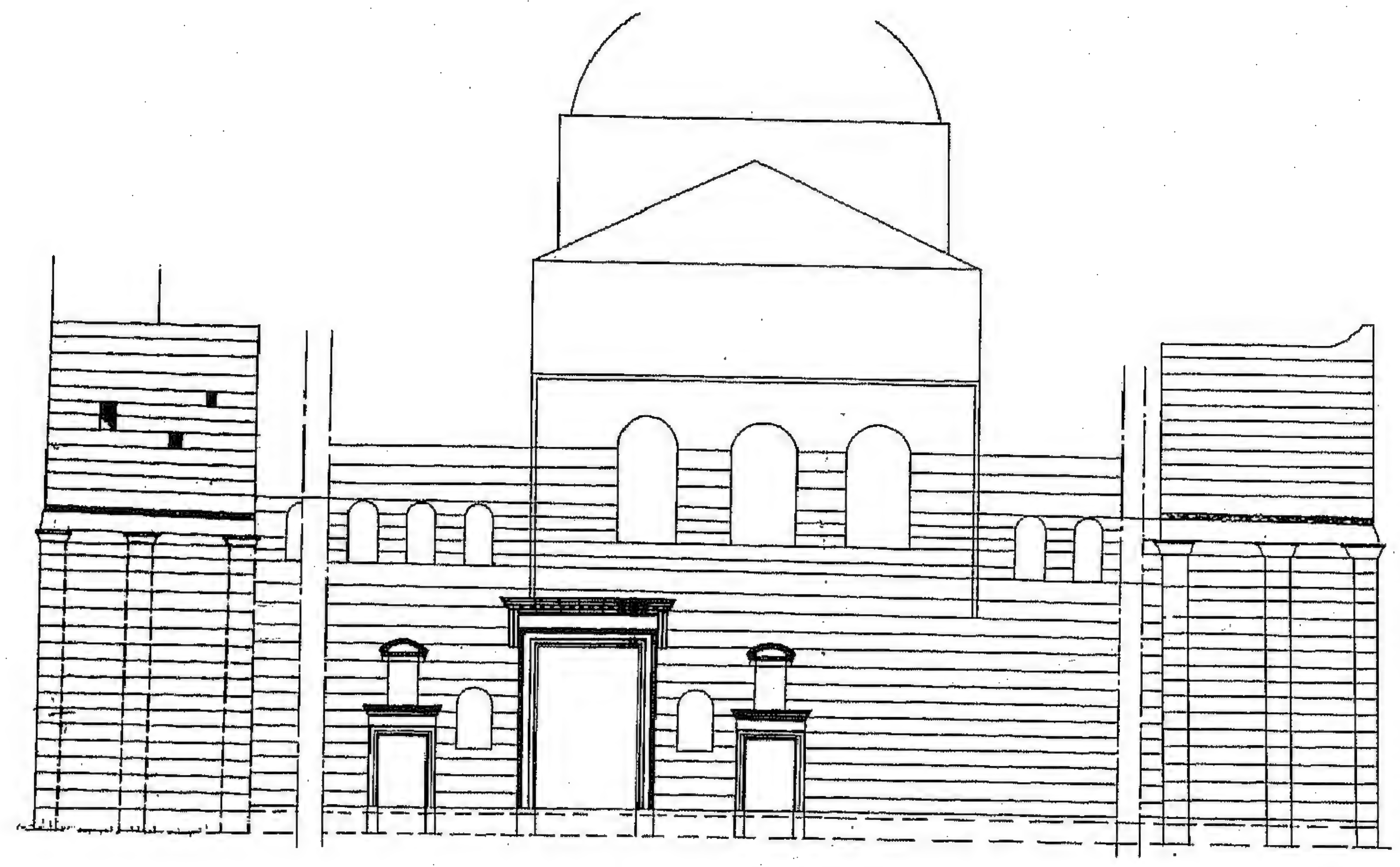

١٨ ــ مخطط واجهة الجدار الجنوبي .

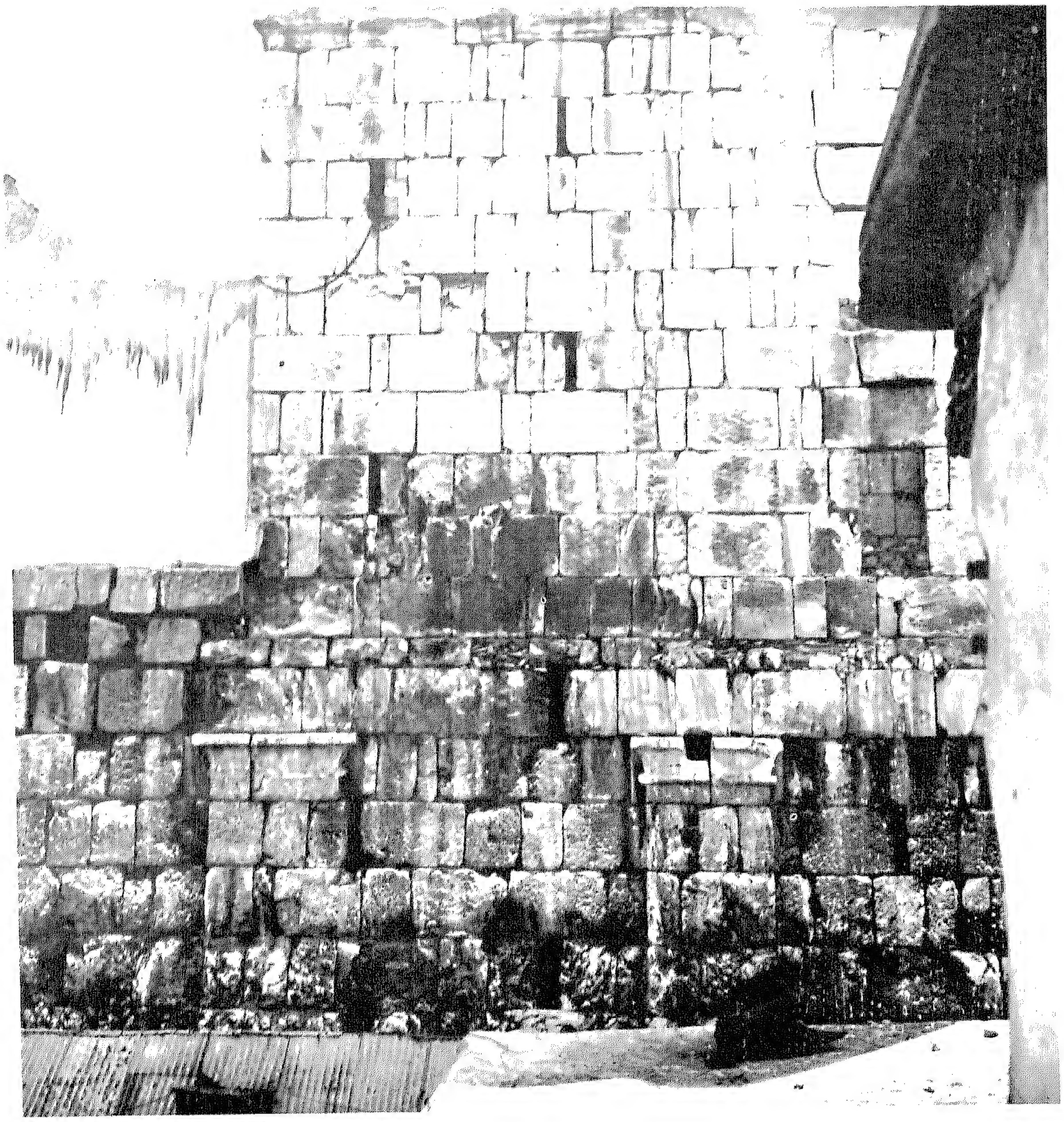

١٩ــ قاعدة المئذنة الغربية وانسجام مداميكها مع المداميك القديمة الاسلامية.

ان حجم الجهد والتكاليف التي أنفقها الوليد في بناء الجامع الكبير ، والتي ذكرها المؤرخون تؤكد أن هذا الجهد لايمكن أن يقتصر على تزيين الجامع ، بل على انشائه أيضا بحلة جديدة مستفيدا من بعض جدران وأروقة المعبد فقط .

لقد أنشئت واستعملت الصوامع الأربعة للآذان وهي رباعية وكانت ذات شرفات وجامور ولاشك ، وهدمت المئذنتان الشماليتان واستعملت أحجارها لترميم الجدار القبلي من الجهة الغربية عام ٧٢٨ هـ في عهد تنكز ، اما المئذنتان الجنوبيتان فلقد هدم جزء منهما عام ٦٤٦ هـ ثم أضيف اليهما منارات مختلفة في شكلها فوق ماتبقى من الصومعتين المربعتين القديمتين . واحدة وهي الشرقية انشئت في عهد الملك الصالح الأيوبي ارتفاعها ٦٥ متراً والغربية في عهد السلطان قايتباي بعد خرابها في عدوان تيمورلنك وارتفاعها ٥٦ مترا . ولم يكن من دافع الى تغيير شكل المآذن المضافة الا الاقتصاد الذي تم على حساب جمال المئذنة . ولكن لماذا إنشئت مئذنة العروس اذن ؟

نحن نرجح ان هدم المئذنتين او عدم اكمالهما تم لسبب ما في وقت مبكر وان مئذنة العروس قامت على أعقاب هدمهما وقد يكون قول ريفدار ان ذلك تم عام ٩٨٥ م منسجما مع هذا الرأي وان كنا نرجح الرأي القائل أنها انشئت في عهد الوليد وقبل بناء الابراج الاربعة .

وأخيرا فان هذا الرأي تؤكده الدراسة الأثرية للجدران الداخلية ومقارنتها مع الأبنية الأخرى كما عرضناها ، وهو رأي يجيب على كثير من التساؤلات التي كانت معلقة بدون جواب .

ونخلص من هذا العرض الى الرأي التالي :

ان الكنيسة كانت في الغرب من منطقة الحرم في موقع الهيكل الروماني وعندما أزيلت لم يبق شيء من آثارها وانما بقي بعض جدران المعبد القديم وهي :

١ ــ الجدار الجنوبي ذو الابواب الثلاثة الاساسية . ويعتقد ديكي ان هذا الجدار سلوقي متأخر ، ولا يعارض فاتزنغر هذا الرأي وان كان يفضل القول انه روماني من عهد معبد جوبيتر

٢ ــ الجداران الشرقي والغربي المطلان على الصحن ، وأروقة من الشرق .
٣ ــ بعض أجزاء من الجدار الشمالي
والاجزاء التي امر الوليد بانشائها هي التالية:

١ ــ هَدْمُ بعض الجدران القديمة وبناؤها من جديد بعد التأكد من اساساتها .
٢ ــ بناء الحرم . يقول العلموي « ثم هدمه سوى حيطانه الاربعة وانشأ قبة النسر والقناطر .. » ويذكر المؤرخون ان الوليد اراد ان يبني المسجد اسطوانات الى الكوى، فدخل بعض البنائين فقال ، لاينبغي ان يبنى هكذا ، ولكن ينبغي ان يبنى فيه قناطر وتعقد اركانها بعضها الى بعض ، ثم تجعل اساطين ويجعل عمد ، ويجعل فوق العمد قناطر تحمل السقف وتخفف عن العمد البناء ، ويجعل من كل عمودين ركن . فبني كذلك .
٣ ــ بناء قبة النسر .
٤ ــ بناء الابراج الاربعة والمشاهد الاربعة التي كانت قاعات ضخمة للحكم والاستقبال . وبناء المدخلين الكبيرين الشرقي والغربي ، ويؤكد فاتزنغر وزميله ان بناء المدخلين تم في وقت واحد مع بناء الابراج الاربعة .
٥ ــ الزخرفة المترفة بالفسيفساء والرخام والخشب الملون ..
٦ ــ انشاء الصحن وتبليطه
٧ ــ انشاء مئذنة العروس بديلا عن البرجين الشماليين ، وقبلهما
٨ ــ ضم قصر الخضراء ودار المطبق ودار الخليل ثم الحاق القصر بالبوابتين الشرقية والغربية وجعل ذلك مع المسجد (او مع مشاهده) بناء واحدا كما يقول فاتزنغر .

ولقد استعمل الوليد في انشاءاته الجديدة ، الحجر المنحوت الذي كان قائما في سور المعبد الخارجي ، ويؤكد ذلك العلامات الاغريقية التي كانت على بعض الاحجار والمتراكمة في البرجين الى يومنا هذا .

وكان دوسو قد استدل خطأ ان هذه الكتابة دليل على ان الابراج رومانية وانها ترجع الى القرن الثالث الميلادي بينما يرى ديكي ويؤيده أحياناً فاتزنغر انها تعود الى

العصر السلوقي المتأخر اي الى ماقبل الميلاد ، وفي هذا من التناقض مايجعل الفرضية ضعيفة .

يعتقد فاتزنغر وزميله ، ان الابراج الأربعة أنشئت في العهد الروماني مع الجدار الجنوبي وجميع الأسوار ، ثم يعود لكي يقول متفقا مع آراء أخرى أن البابين الشرقي والغربي أضيفا في وقت لاحق الى السور ، ودليله في ذلك عدم الارتباط العضوي بين البابين والجدار ، ويرى أن الابراج أنشئت في وقت واحد مع البابين

ويعتقد دوسو ان الابراج تعود الى القرن الثالث الميلادي بدلالة اشارات النحاتين اليونانيين على بعض أحجار الابراج التي مازالت حتى الآن . ويعتمد فاتزنغر على تحديد هوية الأبراج بمقارنتها مع معبد بل في تدمر ، كشاهد أن بعض المعابد الرومانية حوت نظير هذه الأبراج .

ولكن معبد بل في الواقع لم يحو أبراجا في التيمينوس بل هي مصاعد الى السطح أنشئت في أركان الهيكل (السيلا) ، وليس من معبد روماني أو سلوقي يحوي أبراجا عالية أو صوامع وليس في العبادة الوثنية أي وظيفة لهذا النوع من المنشآت .

وليست الكتابة اليونانية حجة تاريخية فلقد استمرت منتشرة حتى عهد الوليد .

أنبأنا أبو محمد بن الاكناني عن يحيى بن يحيى قال : «لما هم الوليد بن عبد الملك بهدم كنيسة يوحنا ليزيدها في الجامع ، دخل الكنيسة ، ثم صعد منارة ذات الاصابع المعروفة بالساعات وفيها راهب يأوي في صومعة له ..»

وهذا يدل أن برجا للاجراس أضيف للهيكل الذي أصبح كنيسة ، وقد هدم مع الكنيسة ذاتها .

وضمن نطاق دراسة اثرية قمنا بها في المديرية العامة للاثار والمتاحف ، كانت النتيجة التالية :

١ ـــ الجدار القبلي الخارجي مؤلف من مداميك ضخمة وحجارة كبيرة يعلوها من الأعلى نوافذ ذات فتحات عريضة ٢٫٤٣ سم يعلوها قوس نصف دائري . وفي منتصف هذا الجدار ينهض جدار الجناح المعترض وهو محاط باطار مرتفع في مستواه عن مستوى الجدار وفيه ثلاثة نوافذ مقوسة وواسعة . وفوق اطار الواجهة

ينهض جدار آخر جديد البناء مشكلا طابقا ثالثا وفيه خمسة نوافذ عالية بنفس قياس نوافذ الجدار الجانبية وفوق هذه الواجهة العلوية جبهة مثلثية يعلوها جملون ، وفي أسفل جدار هذا الجناح المعترض ينفتح الباب الروماني الكبير المؤلف من ثلاث فتحات ، الفتحة الوسطى كبيرة وتقع شرقي الجدار وفي غربها فتحة صغرى أصبحت محراب الخطيب . والفتحة الصغرى الثانية تقع في أسفل الجدار مع الجهة الشرقية .

ان عدم وجود الباب الكبير على محول الجناح المعترض يؤكد ان بناء هذا الجناح جاء متأخرا وانه تم في العهد الاسلامي بدليل انه أنشىء على محور الباب الصغير الذي أصبح محرابا ، والذي يعتبر بدقة منصفا للجدار الاسلامي المجدد .

٢ ــ أضيف الى هذا الجدار من الشرق والغرب برجان ويبدو من جدارهما المشرف على الجنوب ان بناءه متأخر وهو مختلف بمداميكه وحجارته وعضاداته وافريزه عن الجدار الجنوبي القديم ، ثم انه خال من النوافذ والفتحات .

٣ ــ الجداران الغربي والشرقي ، ويبدو واضحا ان بناءهما مطابق تماما لبناء جدار البرج من جهته الجنوبية والغربية ، مما يؤكد ان بناء المشاهد الغربية والبرجين ومدخل باب البريد هو بناء متأخر وهو اسلامي بحسب تقديرات سوفاجيه .

وهذان الجداران بدون فتحات وقائمان على (١٨) عضادة مندمجة بجسم الجدار . اما الجدار الشمالي فهو مغلق بدون فتحات ومداميكه مختلفة أيضا عن مداميك البرجين الشماليين اللذين لم يعد لهما ارتفاع عن مستوى الجدار ، وهذا يؤكد مرة اخرى ان الواجهتين الخارجيتين الشرقية والغربية مع الأبراج الأربعة أضيفت في عهد لاحق بل في العهد الاسلامي على وجه التحديد .

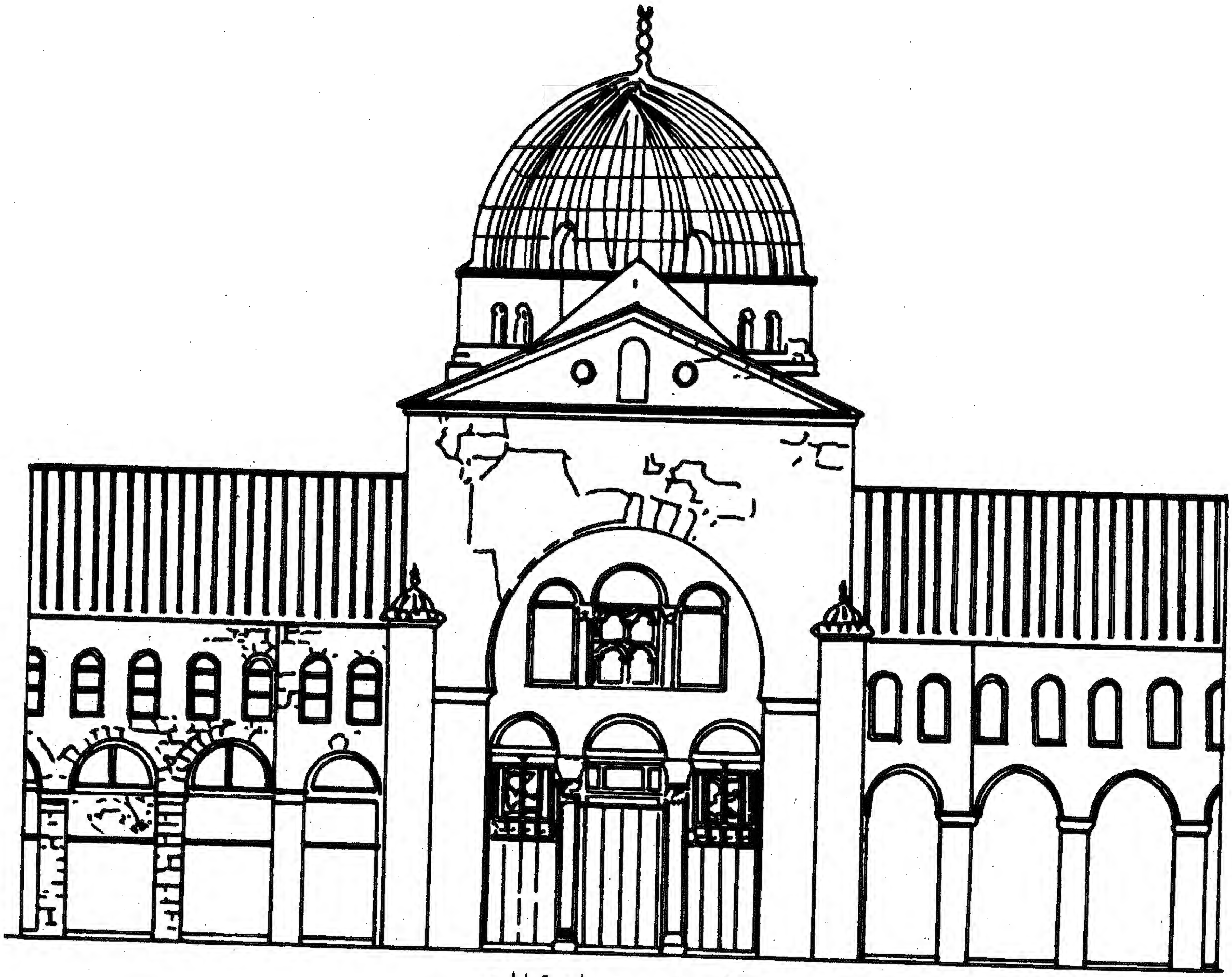

٢٠ ـــ قسم من واجهة الحرم.

21 ـــ مئذنة العروس خلف
قبة الملك الظاهر .

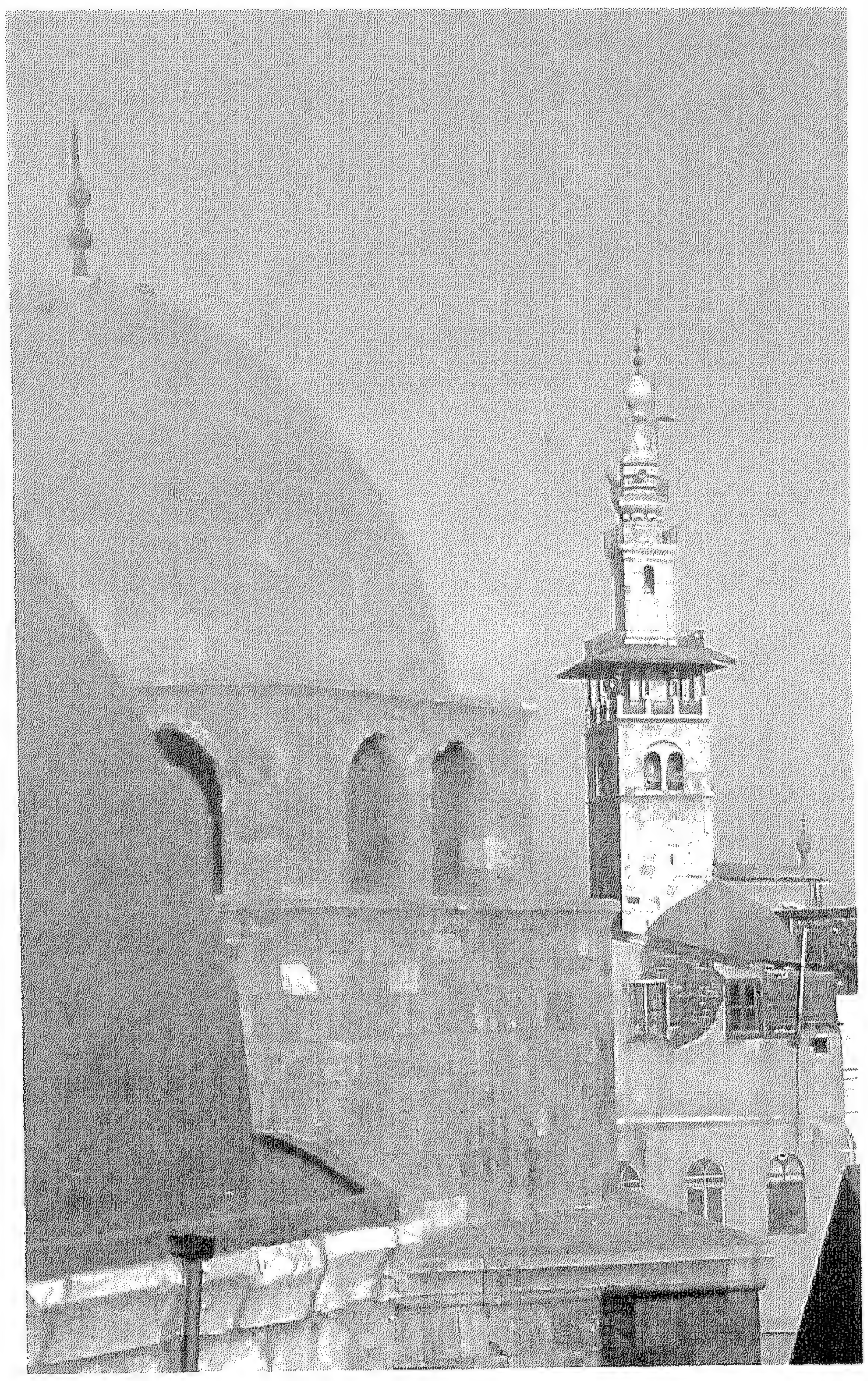

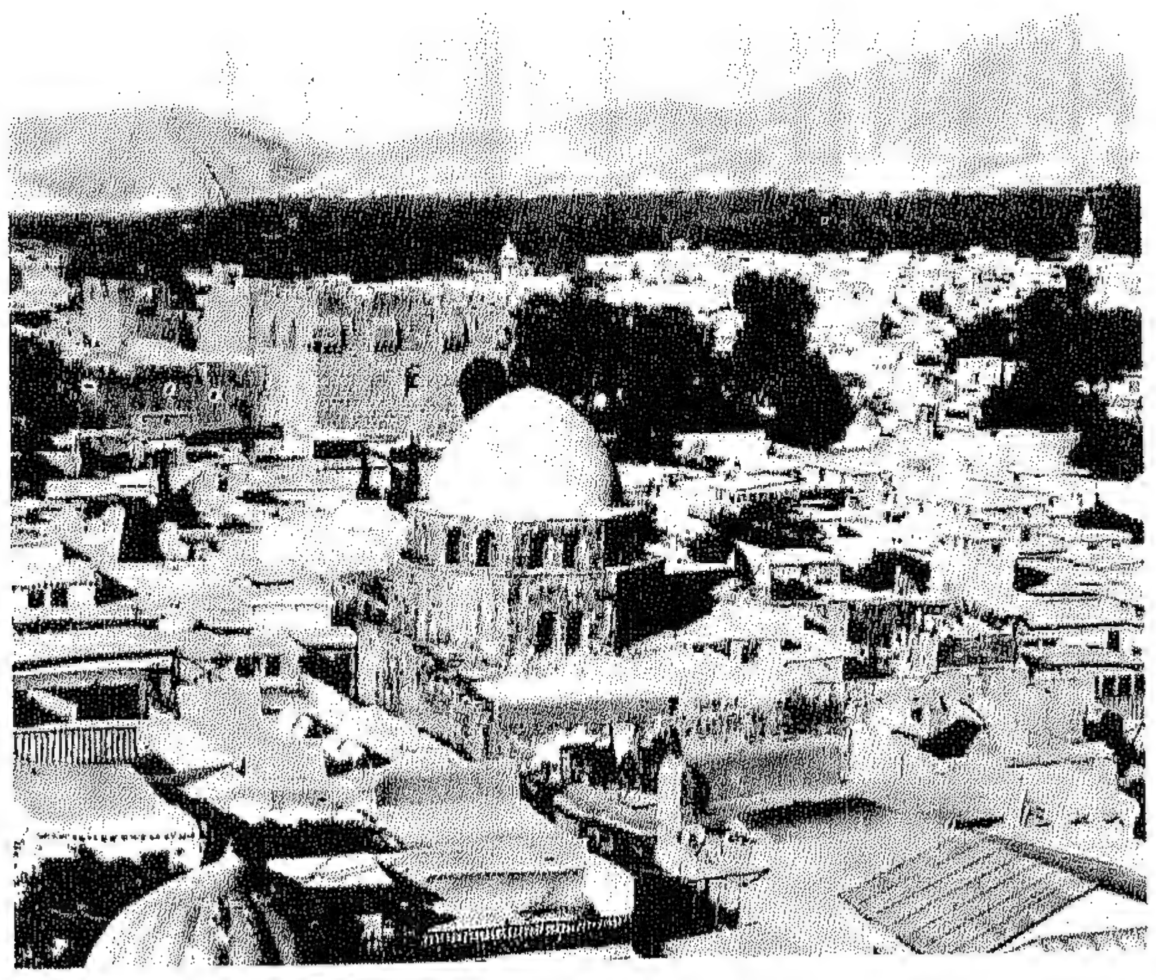

٢٢ ـــ مشهد قلعة دمشق ومدفن
صلاح الدين من مئذنة الأموي

٦١ ....قبة النسر.

٦٢ ....الحرم ــ مشهد عام.

٦٣ ....الحرم مشهد جانبي من جهة القبلة

٦٤ ــ ٦٥ ....الصحن.

٦٦ ....قبة النسر من الداخل.

٦٧ ....قبة زين العابدين.

٦٨ ....قبة النسر وقبة الخزنة.

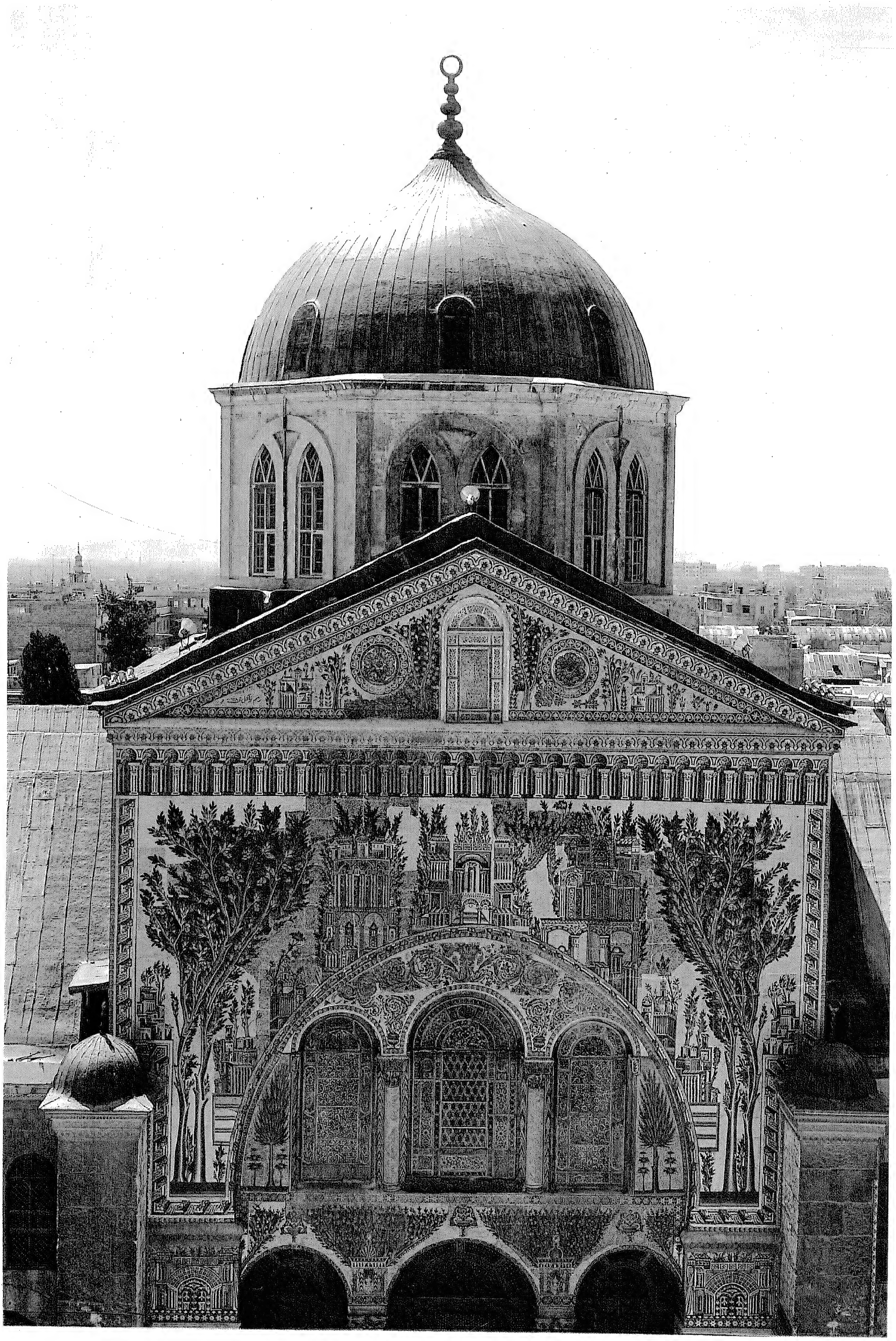

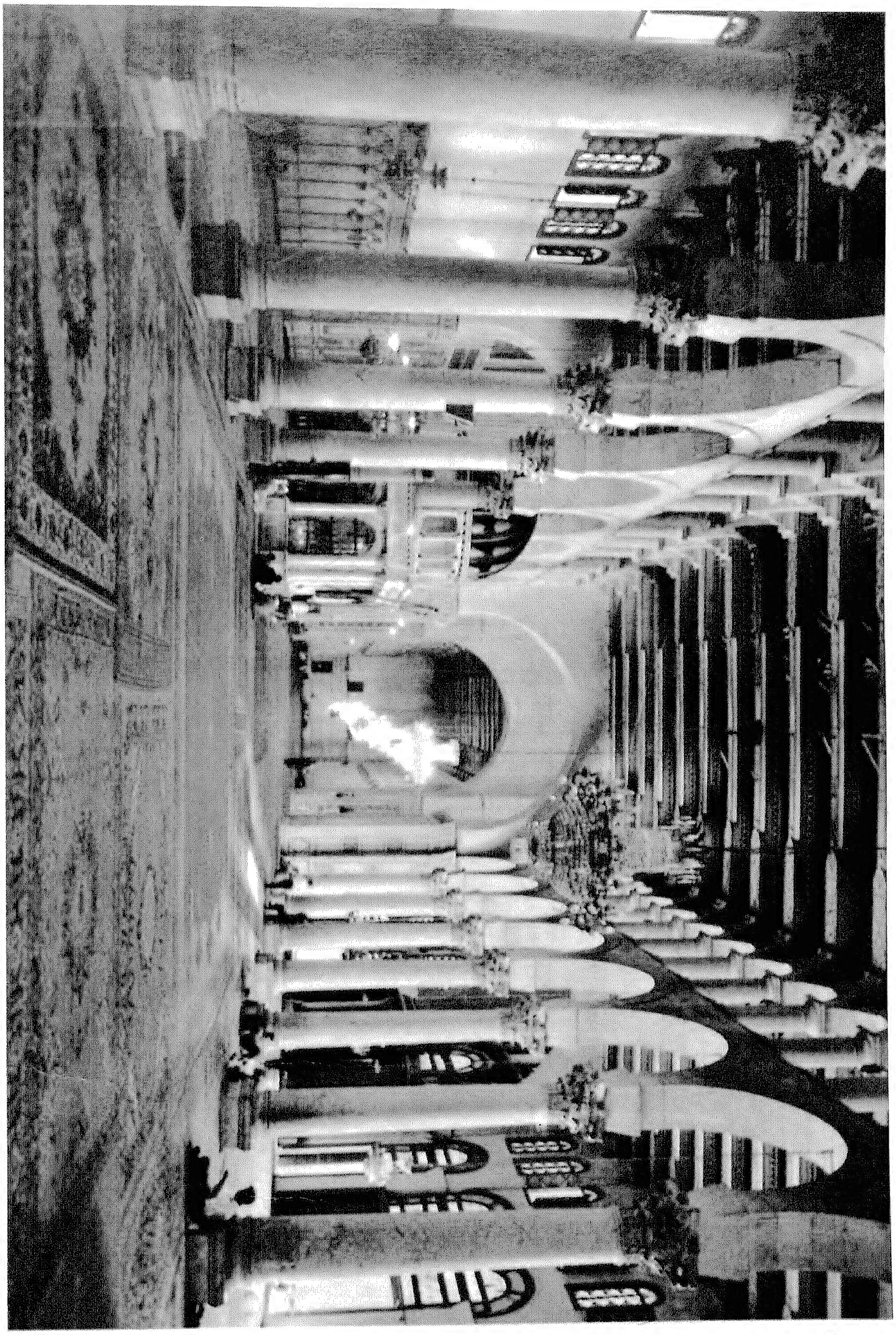

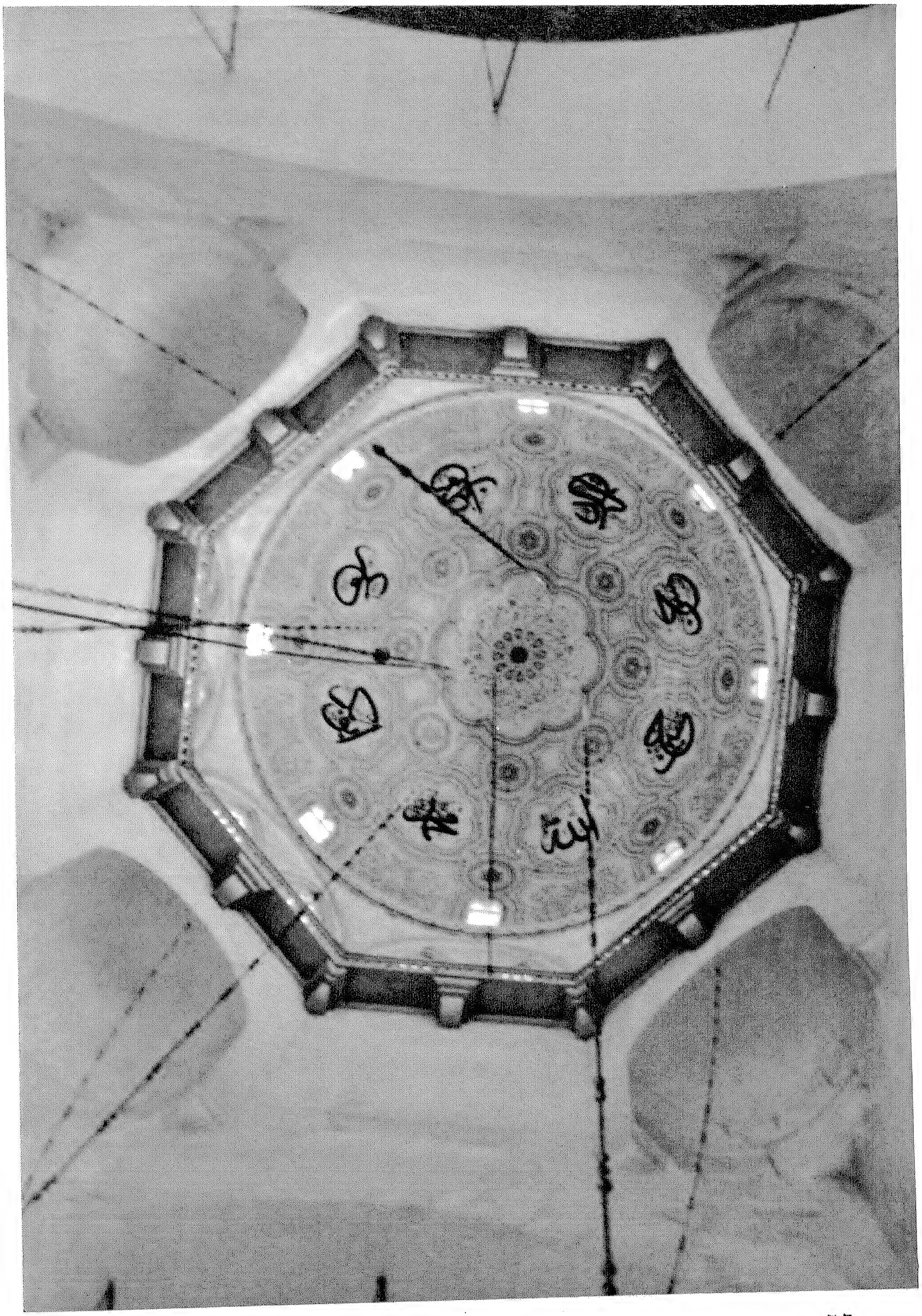

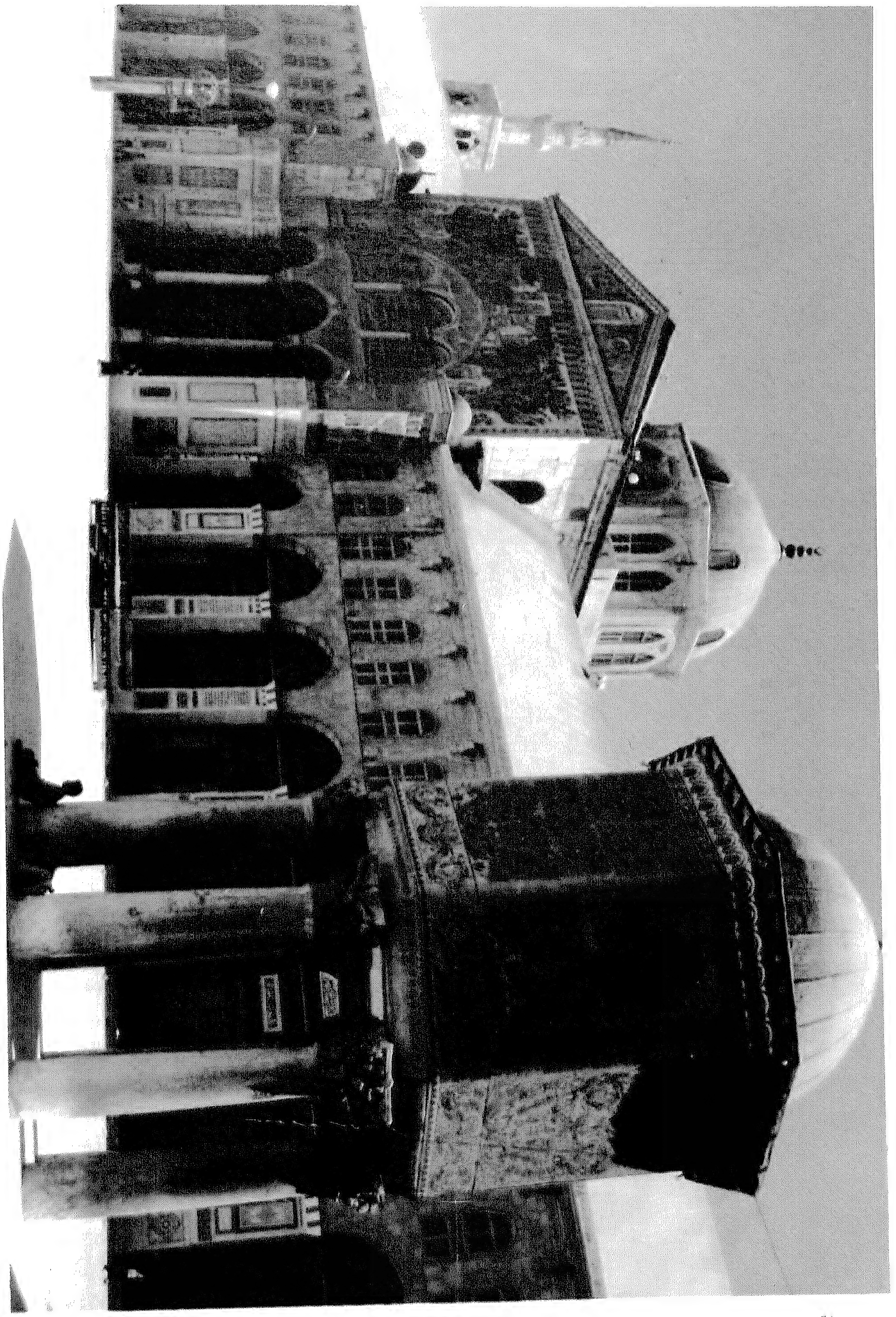

الفصل الثالث

روعة الجامع ومصائبه

- أوصاف المؤرخين لروعة الجامع الكبير وأقسامه وترميماته .
- مصائب الجامع الكبير وترميماته .
- حريق عام ١٨٩٣ وآخر الترميمات .

روعة الجامع ومصائبه

أوصاف المؤرخين لروعة الجامع الكبير وأقسامه وترميماته

عندما استلم الوليد بن عبد الملك الخلافة عام ٧٠٥ م كان الاسلام قد انتشر في بقاع واسعة ، وكانت دمشق عاصمة المسلمين تحتاج مسجدا جامعا يليق بمكانة المسلمين . وكان الوليد محبا للاعمار ، فلقد أتم بناء قبة الصخرة وأمر بانشاء مسجد المدينة وكان عمر بن عبد العزيز فيها واليا ، وكان الوليد اول من حفر المياه في طريق مكة الى الشام ، وأول من عمل البيمارستانات للمرضى .

ويقول الحافظ الذهبي « ان الوليد بن عبد الملك هو الذي بنى جامع دمشق ايام سلطنته ، وزخرفه ، وكان نصفه الغربي كنيسة للنصارى ، والنصف الآخر مسجدا للمسلمين فأرضى الوليد النصارى مقابل عدة كنائس صالحهم عليها ، ثم هدمه الا حيطانه الأربعة وأنشأ قبة النسر والقناطر وحلاه بالذهب والجواهر وستور الحرير ، وبقي العمل فيه تسع سنين ، وأنفق عليه الأموال العظيمة حتى جعله نزهة للناظرين » . وأنفق عليه اربعمائة صندوق كل صندوق أربعة عشر ألف دينار . ويقال ان الوليد أنفق عليه خراج المملكة سبع سنين ، وحملت اليه الحسابات بما أنفق عليه على ثمانية عشر بعيرا ، فأمر باحراقها ولم ينظر فيها . وقال : هو شيء أخرجناه لله فلم نتبعه .

قال الجاحظ : « قال بعض السلف : مايجوز ان يكون أحد أشد شوقا الى الجنة من أهل دمشق ، لما يرونه من حسن مسجدهم » .

وقال في كتابه الحيوان « وقول الدمشقيين ماتأملنا قط مسجدنا ، وتركيب محرابنا ، وقبة مصلّانا إلّا أثار لنا التأمل ، واستخرج لنا التفرّس بين غرائب حسن لم نعرفها ،وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندري أجواهر مقطعاته أكرم في الجواهر ، أم تنضيد أجزائه في تنضيد الأجزاء » .

ويروي ابن عساكر عن ابراهيم الكاتب قوله :

« وأفضيت الى جامعه فشاهدت ماليس في استطاعة الواصف أن يصفه ، ولا الرائي ان يعرفه . وجملته أنه بكر الدهر ، ونادرة الوقت ، وأعجوبة الزمان ، وغريبة الاوقات . ولقد أبقت به بنو أمية ذكرا يدرس ، وخلفت به أثرا لايخفى ولا يدرس » .

ويصف المهلبي البهنسي (توفي ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م» المسجد بقوله : « ومن طريف الاتفاقات فيه أنه كتب في حائطه من القرآن بالفسيفساء المذهب في تضاعيف النقش . فأول سورة كتبت من ذلك (والنازعات غرقا) واتفق أن وقع على نفس حنية القبلة تجاه وجه الامام من آيات القرآن (عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية) .

قالوا : وفي سقف المسجد خمسة طلّسمات للحيّات والعقارب والعناكب ، والخطاطيف والغربان ، فما يدخله شيء من هذا الحيوان .

والمسجد مبنى بالرخام والفسيفساء ، « مسقف بالساج منقوش باللازورد والذهب ، والمحراب مرصع بالجواهر المثمنة والحجارة العجيبة » كما يصفه ابن الفقيه . ويضيف الشريف الادريسي (٥٤٨ هـ) « فلما كان في أيام الوليد بن عبد الملك من بني أمية عمره ، فجعل أرضه الرخام ، ومعاقد رؤوس أساطينه ذهبا ، ومحرابه ذهبا ، وسائر حيطانه مرصعة بأشباه الجوهر ، ودور السقف كله مكتّبا ، كما يدور بترابيع جدران المسجد ، بأحسن صنعة وأبدع تنميق . ويقال انه جعل بأعلى السقف حصن رصاص محكمة التأليف وثيقة الصنعة ، والماء يصل اليه في قنوات رصاص ، فاذا احتاج ذلك المسجد الى الغسل فتح اليه الماء وغسل صحنه بأهون سعي » .

ويروي ابن الفقيه انه لما ولي عمر بن عبد العزيز وورد عليه رسل الروم . فدخلوا مسجد دمشق لينظروا اليه ، رفعوا رؤوسهم الى المسجد فنكّس رئيس منهم رأسه واصفرّ لونه ، فقال في ذلك . انا كنا معاشر أهل روميّة نتحدّث أن بقاء العرب قليل ، فما

رأيت مابنوا علمت أن لهم مدة سيبلغونها . فأخبر عمر بذلك فقال : أرى مسجدكم هذا غيظاً على الكفّار . فترك ما همّ به من أمر المسجد في إزالة زخارفه .

ويصف ابن حوقل (٣٦٧ هـ) زينة المسجد فيقول « فلما كان في أيام الوليد ابن عبد الملك عمّره فجعل أرضه رخاما مفروشا ، وجعل وجه جدرانه رخاما مجزّعا ، وأساطينه رخاما موّشى ، ومعاقد رؤوس أساطينه ذهبا ، ومحرابه مذّهب الجملة مرصّعا بالجوهر ، ودور السقف كلّه ذهبا مكتوبا عليه كما يطوف بترابيع جدار المسجد ، وقيل انه أنفق عليه وحده خراج الشام سنتين ، وسطحه رصاص . واذا أرادوا غسله بثق الماء فدار على رقعة المسجد بأجمعه ، حتى اذا فجّر منه انبسط عنه ، وعن جميع الأركان بالسوية » .

ويقول المقدّسي (٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) « والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم ، ولايعلم لهم مال مجتمع أكثر منه . قد رفعت قواعده بالحجارة الموّجهة كبارا مؤلفة، وجعل عليها شرف بهية،وجعلت أساطينها أعمدة سوداء ملساء على ثلاثة صفوف واسعة جدا ،وفي ازاء المحراب قبة كبيرة ، وأدير على الصحن أروقة متعالية بفراخ فوقها ، ثم بلط جميعه بالرخام الأبيض ، وحيطانه الى قامتين بالرخام المجزع ، ثم الى السقف بالفسيفساء الملونة والمذهبة ، صور أشجار وأمصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة . وقلّ شجرة او بلد مذكور الا وقد مثّل على تلك الحيطان . وطليت رؤوس الأعمدة بالذهب .

وقناطر الأروقة كلها مرصعة بالفسيفساء ، وأعمدة الصحن كلها رخام أبيض، وحيطانه بما يدور والقناطر وفراخها بالفسيفساء ، نقوش وطروح .

والسطوح كلها ملبسة بشقاق الرصاص ، والشرافيّات من الوجهين بالفسيفساء . وعلى الميمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد مرصع حيطانه بالفسيفساء ، وفي المحراب وحوله فصوص عقيقية وفيروزجية كأكبر مايكون من الفصوص . وعلى الميسرة محراب آخر دون هذا للسلطان . » .

ويصف ابن جبير زينة الجامع الكبير فيقول « هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا واتقان بناء ، وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه انه لاتنسج به العنكبوت ولا

تدخله ، ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف . انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك ، رحمه الله . فشرع في بنائه ، وبلغت الغايات في التأنق فيه ، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء ، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة ، قد مثلت اشجارا ، وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص ، ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف فجاء يغشى العيون وميضا وبصيصا» .

ويذكر إبن جبير تذريع المسجد ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته فيقول « ذرعه في الطول من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة ، وهما ثلاث مئة ذراع ، وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي مئتا ذراع ، فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرين مرجعا . وهو تكسير مسجد رسول الله (ص) ، غير ان الطول في مسجد رسول الله (ص)، من القبلة الى الشمال . وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب ، وقد قامت على أربع وخمسين سارية ، وثماني أرجل جصية تتخللها ، واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن ، وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم ، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، قد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب وأشكالا غريبة ، قائمة في البلاط الأوسط ، تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب ، سعة كل رجل منها ستة عشر شبرا ، وطولها عشرون شبرا ، وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة ، وفي العرض ثلاث عشرة خطوة ، فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبرا ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته : الشرقية والغربية والشمالية ، سعته عشر خطا ، وعدد قوائمه سبع وأربعون : منها أربع عشرة من الجص ، وسائرها سوار ، فيكون سعة الصحن ، حاشا المسقّف القبلي والشمالي ، مئة ذراع . وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص .

وأعظم مافي هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه ، سامية في الهواء ، عظيمة الاستدارة ، قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها ، يتصل من المحراب إلى الصحن ، وتحته ثلاث قباب : قبة تتصل بالجدار الذي إلى الصحن ، وقبة تتصل بالمحراب ، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما . والقبة الرصاصية قد أغصّت الهواء وسطه ، فاذا استقبلتها أبصرت منظرا رائعا، ومرأى هائلا يشبّهه الناس بنسر طائر ، كأن القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين ، ونصف الثاني

عن شمال ، جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو كأنها معلقة من الجو .

وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات : مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، وهي أول مقصورة وضعت في الاسلام ، وضعها معاوية بن ابي سفيان ، رضي الله عنهما ، وبازاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معاوية ، رضي الله عنه ، الى المقصورة منه الى المحراب . وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبي الدرداء، رضي الله عنه ، وخلفها كانت دار معاوية ، رضي الله عنه ، وهي اليوم سماط عظيم للصفّارين ، يتصل بطول جدار الجامع القبلى » .

ويضيف في مكان آخر « وكان هذا الجامع المبارك ، ظاهرا وباطنا منزلا كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة ، فأدركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدد ، وذهب أكثر رخامه ، فاستحال رونقه ، فأسلم مافيه اليوم قبتله مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسنا وغرابة صنعة ، يتقد ذهبا كله . وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سويريات مفتولات فتل الأسورة كأنها مخروطة ، لم ير شيء أجمل منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان . فشأن قبلة هذا الجامع المبارك ، مع مايتصل من قبابه الثلاث ، واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه ، واتصال شعاع الشمس بها ، وانعكاسه الى كل لون منها ، حتى ترتمي الأبصار منه اشعة ملونة ، يتصل ذلك بجداره القبلي كله ، عظيم لايلحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض مايتصوره الخاطر منه ، والله يعمره بشهادة الاسلام وكلمته بمنّه . »

ويتحدث القزويني (٦٨٢ هـ) عن فسيفساء الجامع فيقول « أقدار فصوصه متفقة وصنعته مؤتلفة . وهو منزه عن صور الحيوان الى صور النبات وفنون الاغصان تجنى ثمرتها بالابصار ولا يعتريها حوائج الأشجار ، والثمار باقية على طول الزمان ، مدركة في كل حين وأوان ، لا يمسها عطش من فقدان القطر ، ولا يصيبها ذبول مع تصاريف الدهر » .

ويصف احد الشعراء المسجد بعد حريق ألم بزينته وأتى على زخرفه فيقول :

دمشق قد شاع ذكر جامعها وماحوته ربى مرابعها
جامعها جامع المحاسن قد فاقت به المدن في جوامعها
تذكر في فضله ورفعته أخبار صدق راقت لسامعها
قد كان قبل الحريق مدهشة فغيّرته نار بلافعها
فأذهبت بالحريق بهجته فليس يرجى اياب راجعها
اذا تفكرت في الفصوص وما فيها تيقّنت حذق واضعها
أشجارها لاتزال مثمرة لاترهب الريح في مدافعها
وتحتها من رخامه قطع لاقطع الله كفّ قاطعها
وان تفكّرت في قناطره وسقفه بان حذق رافعها
وان تبينت حسن قبّته تحيّر اللب في أضالعها
وأرضه بالرخام قد فرشت ينفسخ الطّرف في مواضعها

مصائب الجامع الكبير وترميماته

أصيب الجامع الكبير بعدد من الزلازل والحرائق أتت على الجامع كليا وجزئيا. ففي عام ١٣٢ هـ (٧٤٨ م) أصيب المسجد بزلزال شديد فانشق سقف المسجد على طوله كما أصيب بزلزال آخر عام ٢٣٣/(٨٤٧) ولقد أدى هذا الزلزال إلى سقوط المئذنة فانهارت حجارتها، مما أدى إلى تخريب المسجد، وتراكمت الاحجار والانقاض كأنها جبل. وفي عام ٤٦١ هـ (١٠٨١ م) أصيب بحريق كبير أتى عليه فلم يبق منه الا الجدران، وابتلعت النيران سقوفه وجدرانه المغطاة بالفسيفساء والصور الرائعة المذهبة والملونة، وتبددت جميع الرياش التي كانت تزينه.

وسبب الحريق أن الفاطميين وقد أقاموا خلافة ثانية مناهضة لخلافة العباسيين وذات مذهب مختلف عن المذهب السني، مما أدى الى اختلاف بين السلطة والناس وترامى المقاتلون بالنار فأصيب قصر الخضراء، فاحترق كله وامتد الحريق الى المسجد فأكلته النار وأزالت أوصافه، وصارت ارضه بعد الفسيفساء تلالا من التراب، وجمعت فصوص الفسيفساء فأودعت في المشاهد، الى أن أخرجها ناظر المسجد القاضي الشهرزوري في عهد السلطان نور الدين الشهيد.

واستمر المسجد مجمعا للأنقاض تحده الجدران القديمة أربعة عشر عاما ، الى أن قام نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي الذي جدد عمارة السقف والقبة وسقف المقصورة والطاقات والاركان الأربعة ، وبقي الصحن ساحة من الطين والتراب ، وفي عام ٥٠٣ هـ وفي عهد المستظهر العباسي جددت عمارة الحائط الشمالي القديم بأمر الوالي طغتكين ، وفي عهد الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي عام ٦٠٠ هـ أمر بتبليط الصحن .

وفي عام ٥٥٢ هـ (١١٥٤ م) شب في حي اللبادين (النوفرة) حريق فامتدت النار الى الأموي فأحرقت قسما منه من الناحية الشرقية .

وأصيب بحريق آخر من الناحية الشمالية عام ٥٧٠ هـ (١١٧٢ م) فأتت على مئذنة العروس ، وكان الحريق قد امتد من مدرسة الكلاسة

وفي عام ٥٧٥ (١١٧٧ م) قام السلطان صلاح الدين باصلاح ركنين من القبة ، وكان قد قام عام ٥٧٠ بتجديد مئذنة العروس (الشمالية) .

وأصيب المسجد عام ٥٩٧ بزلزال هو من أشد الزلازل هزة ، وأكثرها اضرارا بالمسجد اذ سقط قسم من المنارة الشرقية وتشققت قبة النسر ثم سقطت القبة .

وفي عام ٦٠٢ (١٢٠٢ م) أصلحت دعائم القبة من جهة الشمال ، وفي عام ٦١١ (١٢١١ م) أسندت قبة النسر بأوتاد خشبية طول الواحد منها ٣٢ ذراعا جيء بها من بساتين الغوطة .

وفي عام ٦٤٦ (١٢٤٦م) احترقت سلالم المنارة الشرقية والبيوت التي تحتها وتفككت أواصر البناء وأعاد اصلاحها الملك الصالح الأيوبي .

وفي عام ٦٦٨ (١٢٦٧ م) كما يقول بدران كان الجامع أشبه بالخان ينام فيه الناس ، « وكان لكل مقيم به موضع قد أقروه واقتطعه وعمل فيه صندوقا وأحاطه بمقصورة ، حتى كان فيه مايقرب من ثلاثمائة خزانة ومقصورة ، فأزال الملك الظاهر ركن الدين جميع ذلك ، ونظف الجامع وفرشه بالحصر والبسط ، وغسل رخامه وحسنه ، وكان بصحن الجامع أيضا حواصل للمنجنيقات ، وحواصل للأمراء وغيرهم من خيم وشبهها فأزالها ايضا ، ورتب أوقافه للمستحقين ، وفتش على كتب الوقف التي

كانت له ، فجمعها ، من المختلسين ، ورتبها وجلدها وأتقنها ، ولولا ذلك لجعله الناس بيوتا وأسواقا كما جعلو غيره من الجوامع والمدارس » .

وفي عام ٦٧٨ جددت القوائم الأربعة الداعمة لقبة النسر من ناحية الغرب . شبت حريق جزئية عام ٦٨١ هـ في سوق اللبادين (النوفرة وسوق جيرون) فامتدت النار إلى جدران الجامع وإلى سقفه .

وتشققت جدران الجامع اثر زلزال عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) .

وقد تفاقم تشقق الجدار القبلي من الجهة الغربية فنزع الرخام عام ٧٢٨ هـ في عهد تنكز وأعلن الخبراء عن خطورة هذ التشقق على الجدار والحرم كله ، فقام الامير تنكز ومعه القضاة وقرروا هدمه واصلاحه بعد أخذ موافقة السلطان ، فأذن بذلك وبوشر بالعمار ، وقد جمع لذلك العمال والمتطوعين مستخدمين الحجارة التي كانت مكدسة في أصل المنارة الشمالية الغربية عند الغزالية ، ففي ذلك الوقت أزيلت المنارتان الشماليتان . واستمرت عملية اعادة البناء والتدعيم ستة شهور ، واستمر الترميم في العام التالي حتى دعم الجدار القبلي من جانبيه الشرقي والغربي .

وفي عام ٧٤٠ هـ (١٣٣٨ م) كان الحريق الكبير الذي أتى على جزء كبير من دمشق فزالت جميع أسواقها وسبّب الحريق خسارة مادية كبيرة وامتدت الحريق الى القسم الشرقي من المسجد فأتت على المئذنة الشرقية وقسما من الجانب الشرقي من المسجد .

وفي عام ٨٨٤ هـ (١٤٨٠ م) يذكر ابن طولون ان الجامع وماحوله من الاسواق قد أتى عليه الحريق .

وفي عام ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ م) حصل زلزال شديد وصفه الكمال الغزي ، وأتى على أبنية كثيرة من دمشق ، كما سبب هدم الجدارين الشمالي والشرقي من الجامع . وبعد شهر تعرضت دمشق إلى زلزال أشد أتى على كثير من المباني والجوامع وتهدمت من الجامع الكبير المئذنة الشرقية وقبة النسر كما سقط الرواق الشمالي من الصحن .

حريق عام ١٨٩٣ وآخر الترميمات

وفي عام ١٨٩٣ شبت حريق هائلة أتت على الجامع الكبير وكانت من أعنف ما أصاب الجامع من نكبات . ولقد نشر صلاح المنجد ثم الطنطاوي قصة هذا الحريق

كانت الرياح في ذلك اليوم غربية شديدة ، فما مرت نصف ساعة حتى صار السقف كله شعلة واحدة ، وانجلى الدخان عن الخراب الشامل ، لم يبق من الأموي إلا المشهدان عند باب البريد ورواق الصحن ، عدا الرواق الممتد بين باب النوفرة إلا مشهد الحسين ، فقد ناله الحريق فتضعضع ، وأصاب الحريق المنارة الغربية . ولم يبق إلا جدار الحرم الشمالي (من جهة الصحن) والواجهة المثلثة العالية ، أما السقف كله والقبة فلم يبق منه أثر ، ذهب المسجد كله في ساعتين ونصف الساعة ، المسجد الذي أنفقت فيه الأموال والأعمار ، وعملت في بنائه الأفكار والأيدي ألفاً وثلاثمئة سنة ذهب كله في مئة وخمسين دقيقة فقط ، ذهب في سبيل نارجيلة .

ذلك ان عاملا من العمال كان يصلح رصاص السقف ، في المعزبة الوسطى من الجهة الغربية ، فأعجبه المنظر ، وهاج في نفسه الشوق الى نفس دخان فجاء بنارجيلة وأوقد نارا ليشعلها ، فأشعل النار في الأموي .

كانت الفاجعة في الأموي الضحى ، وأقيمت الصلاة في الأموي الظهر . أقيمت الصلاة ، أقامها العالم الورع الشيخ عبد الحكيم الافغاني في الصحن وراء البحرة والناس وراءه . فكانت النار لاتزال بقاياها في أرجاء المسجد ، وهم يركعون ويقولون : الله اكبر ، الله أكبر .

صلوا في الصحن ، ثم عمدوا الى المشهد الشرقي الذي بقي سالما ، فنقلوا اليه بعض مفروشات الجامع ، وأقاموا له منبرا صغيرا للخطابة ، ثم انصرف الناس الى تنظيف الجامع ، وكان من الأنقاض المتراكمة كأنه جبل عظيم ، وتناوبوا على تنظيفه ، يشتغل اهل كل محلة يوما ، يجيئون جميعا كهولهم وشبابهم ، أغنياؤهم وفقراؤهم يعملون بأيديهم ايمانا واحتسابا ، ينقلون التراب والحجارة ، ويتسابق الأغنياء الى اطعامهم ، فيتكفل أغنياء الحي باعداد الطعام للعاملين ، فيتغدون في المسجد ، فكان ذلك مظهرا رائعا للأخوة والبذل ، وغدا الناس كأنهم أسرة واحدة ، يعملون جميعا في بيت الله ، وينزلون ضيوفاً عليه ، حتى إذا هبت دمشق إحدى هبّاتها المؤمنة العجيبة ، وتزاحم الناس على البذل ، منهم من خرج عن ماله كله ، ومنهم من أعطى نصف ماله ، وكل ساعد بعقله وبفنه وبصناعته ، والفقير عمل مجانا بيده ، وقطعت الأعمدة من مقالع قريبة ولكن نقلها تم بواسطة عربة ابتكرها عامل بسيط هي عربة مستطيلة واطية تجرها

الثيران ، لها ملاقيط من تحتها فهي تلتقط العمود ، وتحمله من المزة الى المسجد ، وشكوا في ذلك ، فأخبرهم أنه رأى مثلها في مقالع الحجارة في إيطاليا ، فأقروه على صنعها ، فصنعت بارشاده ، وصارت تحمل العمود الهائل من الأعمدة القائمة اليوم في الأموي وتأتي به يحف الناس والشباب بالعراضات والأهازيج .

وشرع في البناء سنة ١٣١٤ هـ ولم يبق في دمشق صاحب فن الا وضع فنه في عمارة المسجد ، ولا عامل الا قصر عمله على المسجد وكان يشتغل فيه كل يوم أكثر من خمسمئة عامل ، فما مرت سنتان حتى انجز بناء النصف الشرقي من المسجد وفرش بالسجاد وعلقت فيه الثريات والمصابيح وأقيم حاجز من الخشب من غربيه ووضع المنبر الى جنب محراب المالكية ، وافتتح في رمضان سنة ١٣١٦ هـ في حفلة حضرها الوالي والعلماء والوجهاء .

وتم بناء القسم الأوسط من المسجد في منتصف شعبان سنة ١٣١٨ . واكتمل البناء كله واحتفل بافتتاحه في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٠ هـ ــ ١٩٠١ م بعد الحريق بتسع سنين فقط .

ويقول الطنطاوي : « وهذا الزخرف وهذا الجمال ، كله من صنع أهل دمشق ، أنفقوا عليه من أموالهم ، وعملوه بأيديهم ، وان الذين هندسوه وعمروه كانوا جماعة من النجارين الشاميين الذين لم يدرسوا في مدرسة ولم ينالوا شهادة في الهندسة ، الحموي ومعاونوه والتوام وملص واخوانهم ، وان الذين نقشوه هذا النقش البارع الذي جاء على مثال النقش القديم وأربى عليه هم أولاد أبي نجيب الدهان الشامي العامي ، وانهم هم الذين صنعوا هذه الشبابيك العجيبة الثلاثة التي هي فوق المحراب ، والثلاثة المقابلة لها» .

٢٣ ـ حريق الجامع الأموي الكبير (مشهد واجهة الحرم) .

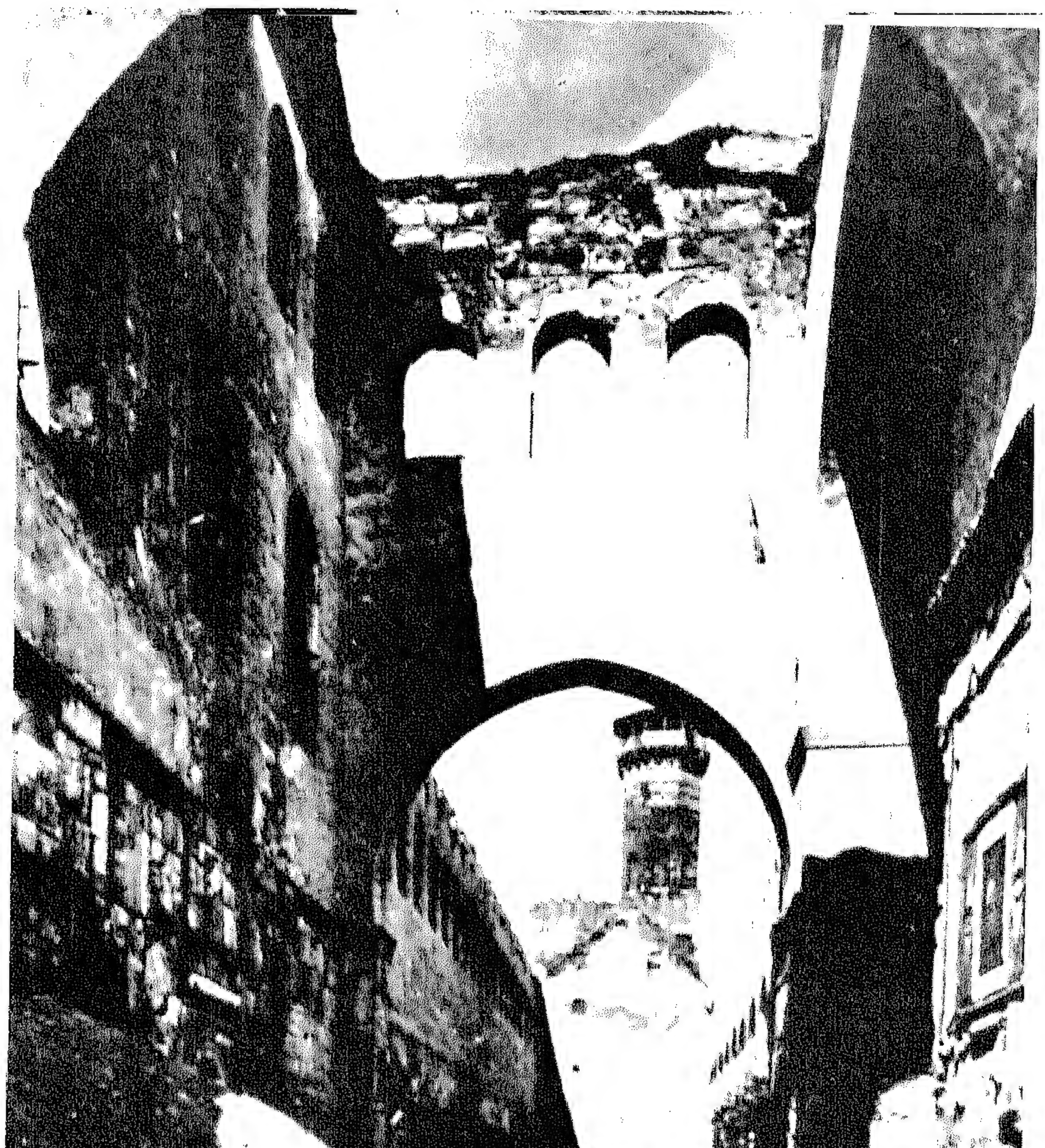

٢٤ ـ حريق الجامع الاموي الكبير .

٨٥.........................فسيفساء واجهة الحرم .
٨٦.........................الفسيفساء على عضادة الجبهة .
٨٧.........................فسيفساء قبة الخزنة .
٨٨ ــ ٨٩.........................الفسيفساء مشهد الجسر والقناطر .
٩٠.........................مشهد فسيفسائي .
٩١.........................مشهد فسيفسائي .
٩٢.........................مشهد مدينة من الفسيفساء .

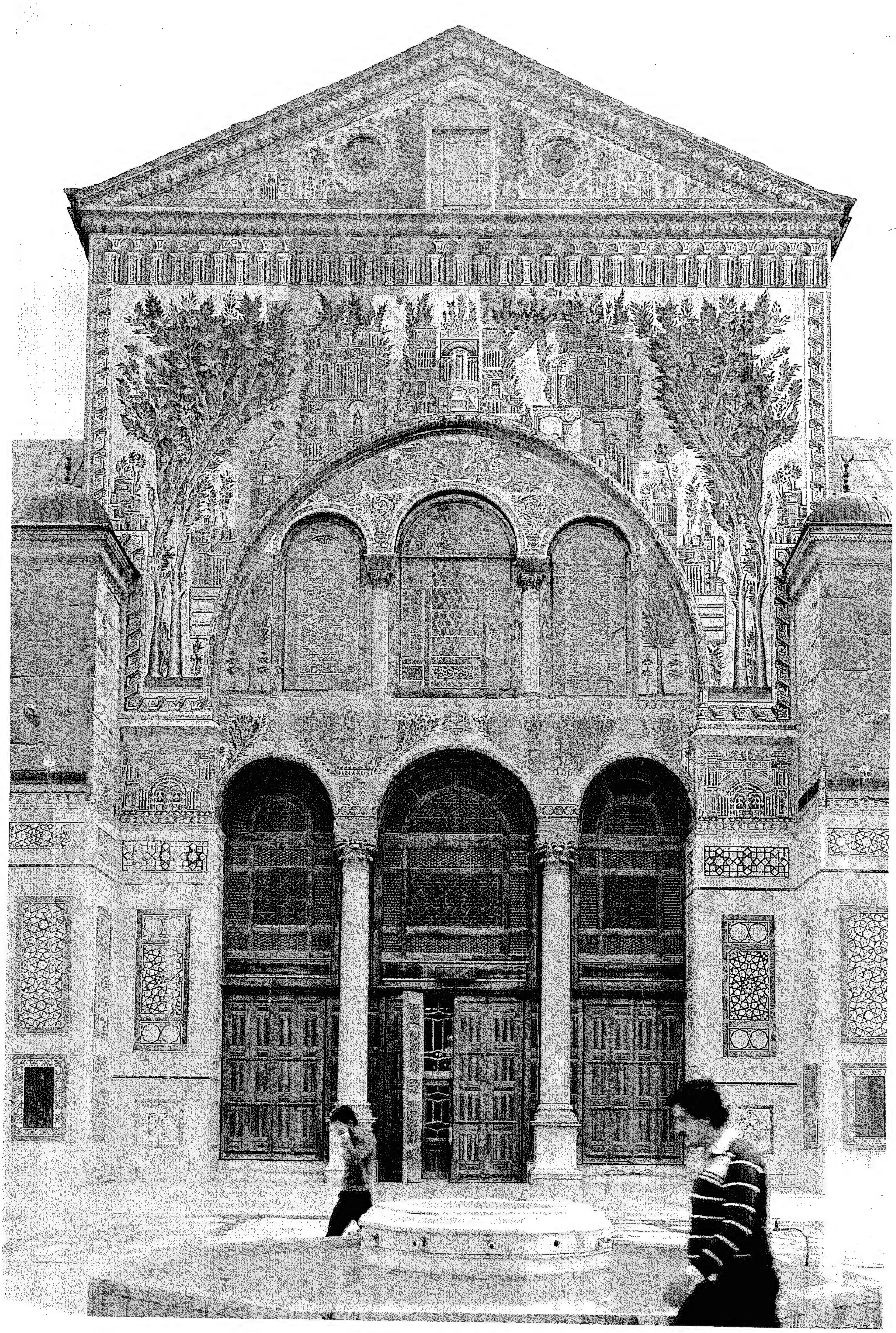

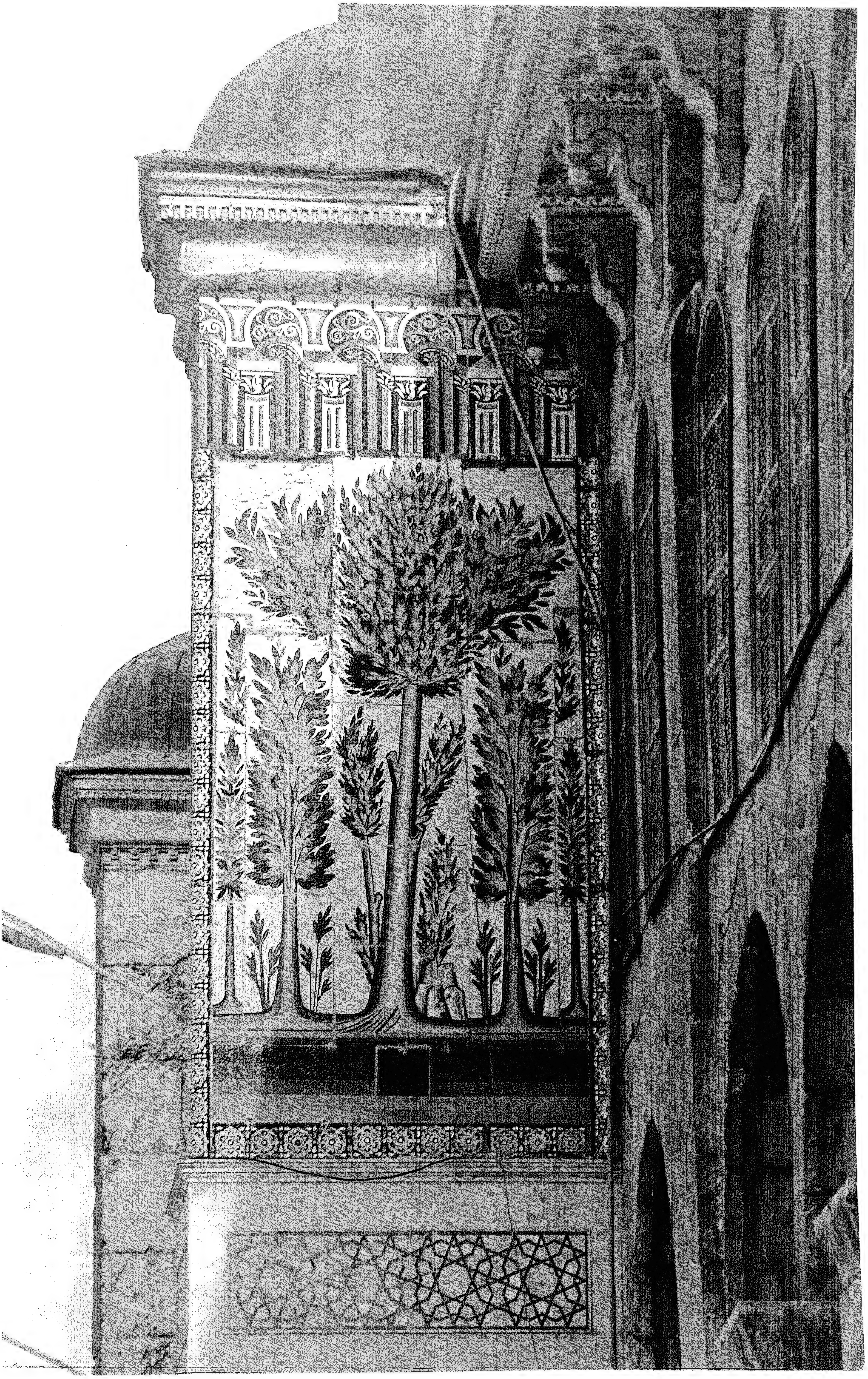

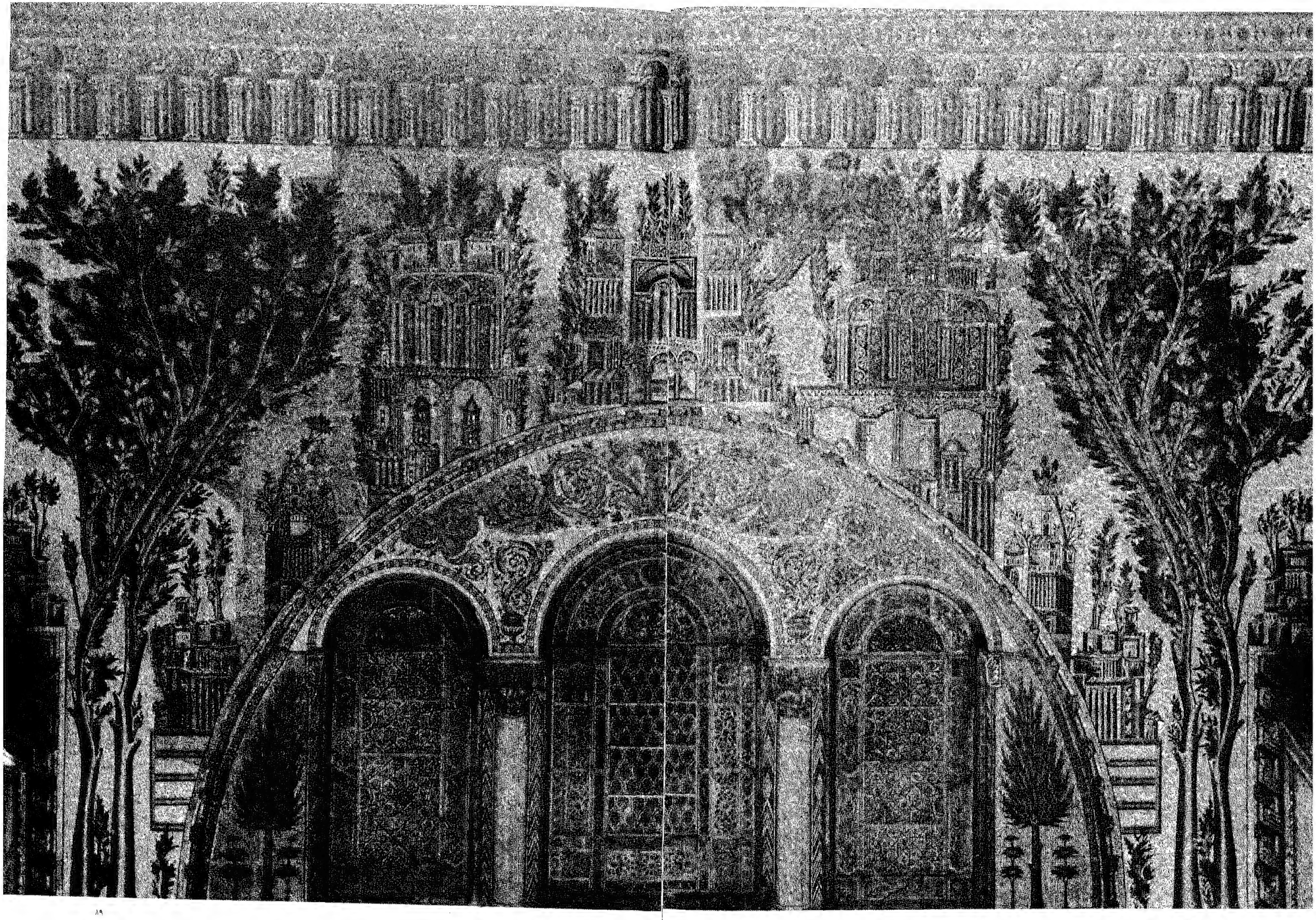

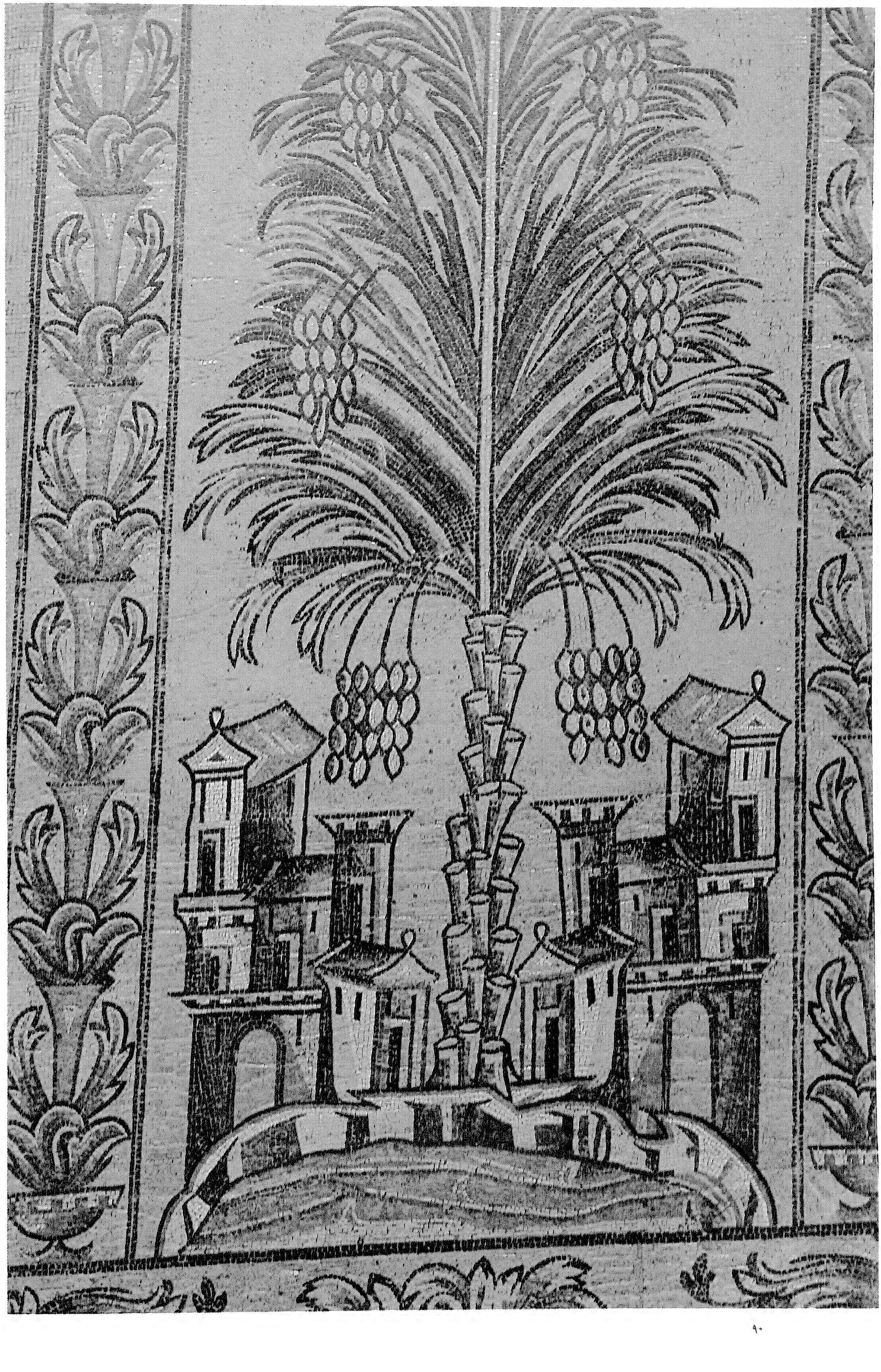

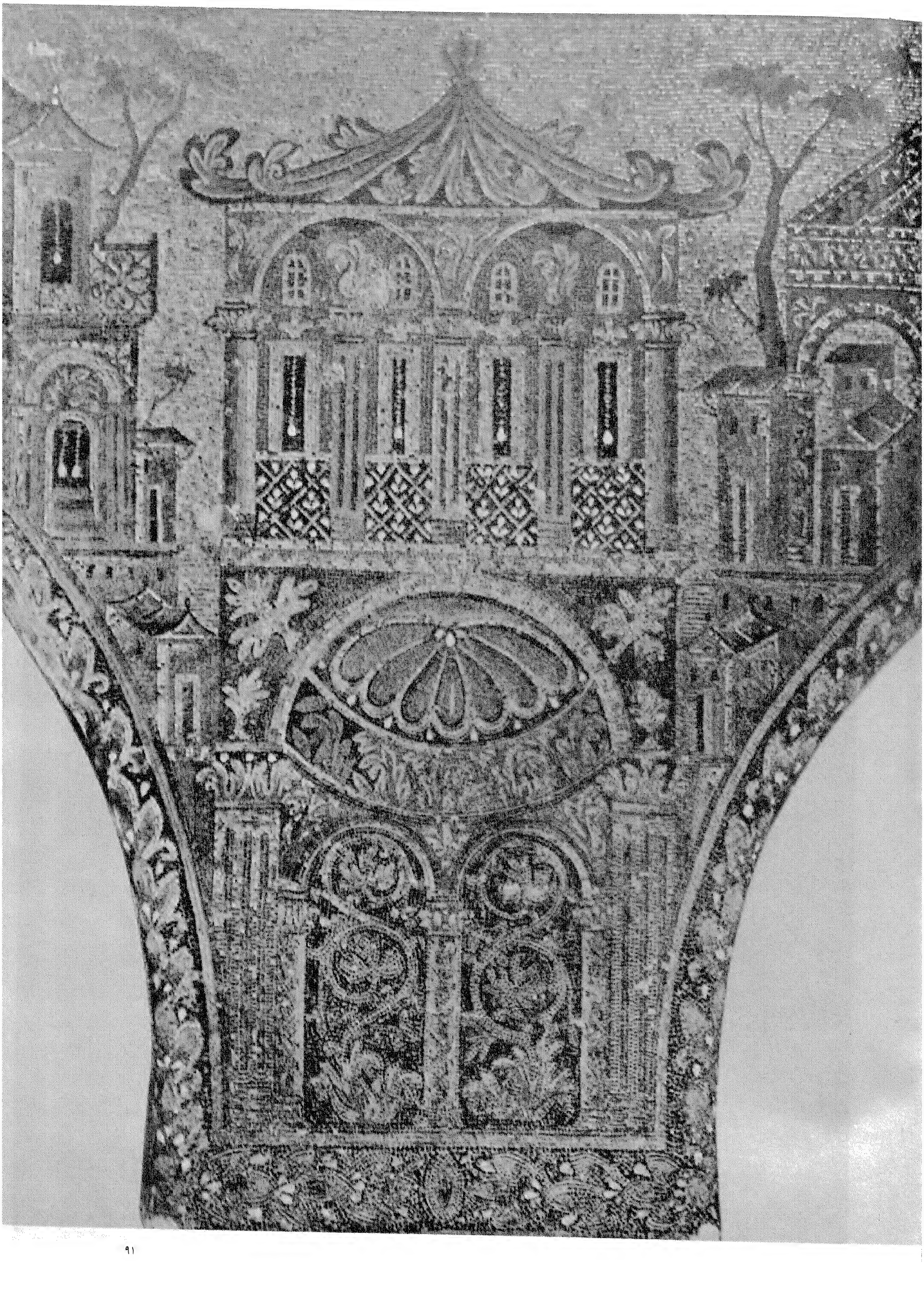

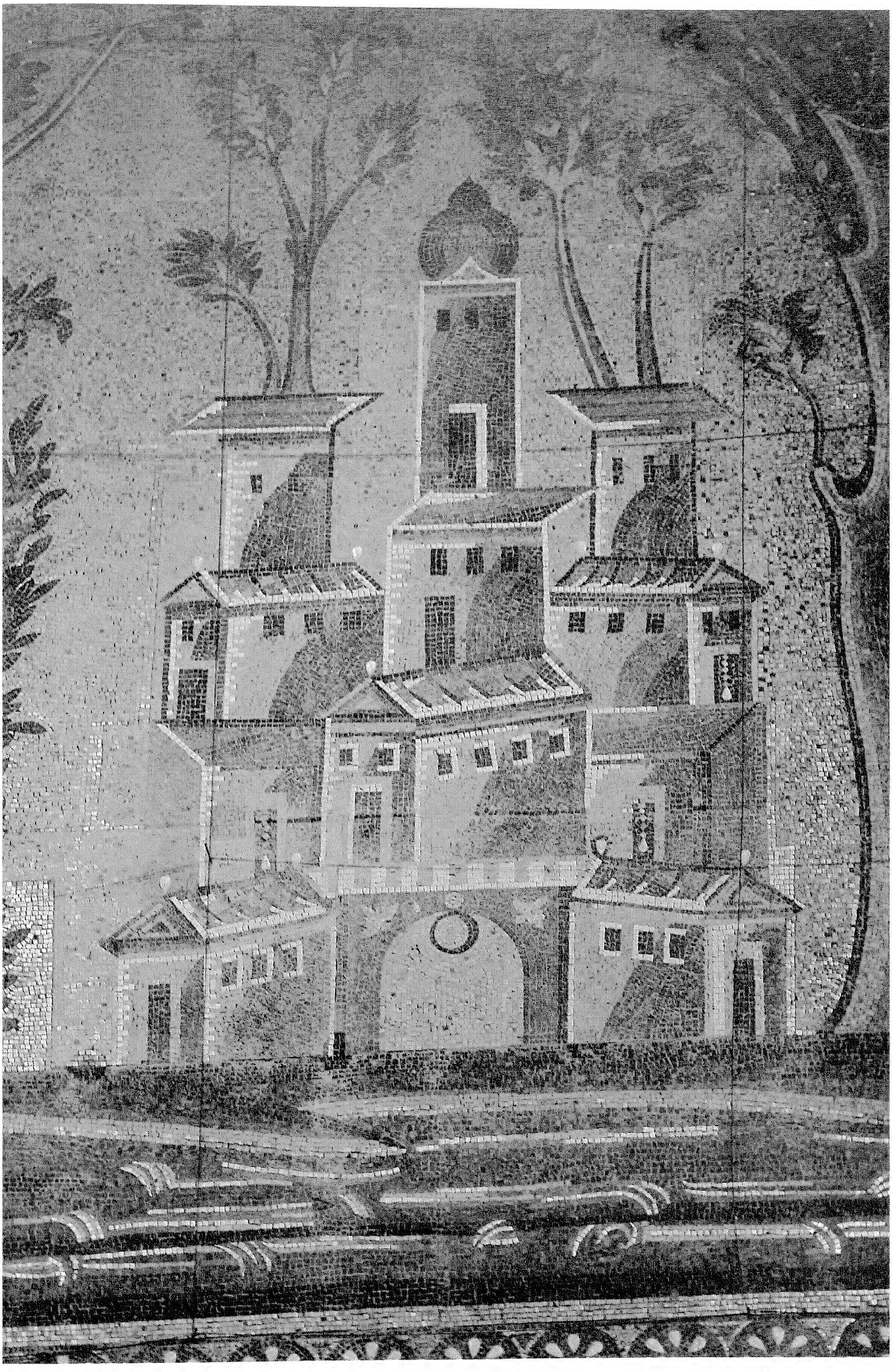

جدول مصائب الجامع الكبير وترميماته

١٣٢ هـ ـ ٧٤٨ م	زلزال	انشق سقف المسجد على طوله
٢٣٣ هـ ـ ٨٤٦ م		سقوط المئذنة . انهارت حجارتها فتخرب المسجد وتراكمت الأحجار كأنها جبل .
٤٦١ هـ ـ ١٠٨١ م	الحريق الكبير	لم يبق إلا الجدران ، وزالت الجدران والفسيفساء ، والسبب نزاع مع الفاطميين . ١٤ عاماً والمسجد أنقاضاً لم يبق منه إلا الجدران .
٤٧٥ هـ ـ ١٠٦٤ م		جدد نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي السقف والمقصورة والقبة والأركان دون الصحن .
٥٠٣ هـ ـ ١١٠٨ م		جدد طغتكين في عهد المستظهر العباسي الحائط الشمالي القديم .
٥٥٢ هـ ـ ١١٥٤ م	زلزال	شققت فصوص مما تبقى من الفسيفساء
٥٦٢ هـ ـ ١١٦٤ م	حريق	اللبادين ـ النوفرة أحرق القسم الشرقي .
٥٧٠ هـ ـ ١١٧١ م	حريق	أتى على مئذنة العروس وجددها صلاح الدين فوراً .
٥٨٧ هـ ـ ١١٩٨ م	زلزال شديد	سقط قسم من المئذنة الشرقية ، تشققت ثم سقطت القبة ٦٠٢ هـ . ٦٠٢ هـ أصلحت دعائم القبة
٦١١ هـ ـ ١٢١١ م		أسندت القبة بأوتاد .
٦٤٦ هـ ـ ١٢٤٦ م	حريق	احترقت سلالم المنارة الشرقية والغرف تحتها وتفككت أواصر البناء . ثم أصلحها الملك الصالح الأيوبي وبنى المئذنة الشرقية فوقها . ٢٤ عاماً والجامع أشبه بالخان فيه ٣٠٠ خزانة ومقصورة .

٧٠٢هـ ـ ١٣٠٢م	زلزال	تشققت جدران الجامع وعام ٧٣٨ هـ تفاقم تشقق الجدار القبلي . رممه الأمير تنكز من حجارة المنارتين الشماليتين .
٧٤٠هـ ـ ١٣٣٨م	الحريق الكبير	أتى على جزء كبير من دمشق وجامع دمشق وبخاصة المئذنة الشرقية والجانب الشرقي .
١١٧٣هـ ـ ١٧٥٩م	زلزال	أتى على كثير من مباني دمشق والجامع ، وهدم المئذنة الشرقية وقبة النسر والجدار الشمالي والشرقي .
١٣١١هـ ـ ١٨٩٣م	الحريق الأخير	أتى على الجامع كله ولم يبق إلا هيكله .
١٣٢٠هـ ـ ١٩٠١م		انتهاء الترميم الأساسي .

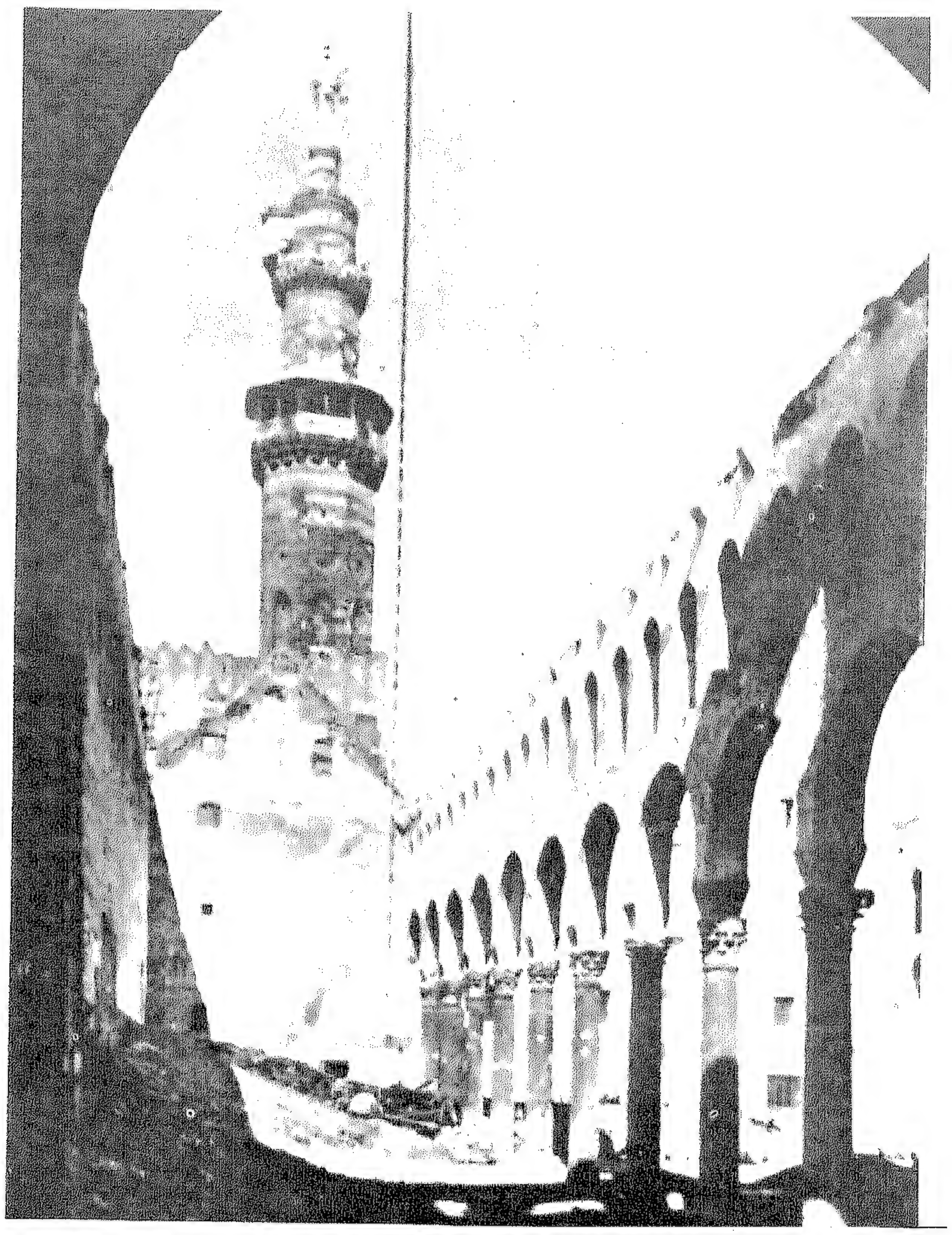

٢٥ ـ حريق الجامع الأموي الكبير .

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الفصل الرابع

عمارة الجامع

- فن عمارة الجامع .
- قبّة النسر وقباب الصّحن .
- أقسام الجامع .
- الصّحن .
- الحرم .
- أبواب الجامع
- السّاعات في الجامع الكبير .
- المآذن .
- انتشار شكل مئذنة الجامع الكبير في المغرب العربي .
- محراب الصحابة أول محراب في العالم الإسلامي .

عمارة الجامع

فن عمارة الجامع

هدم الوليد الكنيسة مقابل أربع كنائس قدمها للمسيحيين وبنى لهم كنيسة ماريوحنا الكبرى . وكتب الوليد على صفائح مذهبة « لا اله الا الله وحده لاشريك له ، لانعبد الا اياه ، ربنا الله وحده وديننا الاسلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . امر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد امير المؤمنين في ذي القعدة من سنة ست وثمانين » . ويتحدث المؤرخون العرب عن عمارة المسجد فيعتقد العلموي ان الوليد هدم الكنيسة ولم يبق الا جدران المعبد الروماني الاربعة وانشأ قبة النسر وحلاه بالذهب والفضة والجواهر والستور . ويروي ياقوت على لسان المؤلفين قبله : «أن الوليد أمر أن يستقصى في حفر أساس حيطان الجامع ، فبينا هم يحفرون إذ وجدوا حائطاً مبنياً على سمت الحفر سواء . فأخبروا الوليد بذلك وعرّفوه احكام الحائط واستأذنوه في البنيان فوقه ، فقال : لا أحب إلا الاحكام واليقين فيه ولست أثق باحكام هذا الحائط حتى تحفروا في وجهه إلى أن تدركوا الماء ، فإن كان محكماً مرضيّاً فابنوا عليه وإلا استأنفوه» . وهذا يعني أن المعمار العربي هو الذي أنشأ عمارة المسجد ، ولكننا نعتقد أن العمارة التي أضيفت لإقامة الجامع ، هي الصوامع والمشاهد والمدخلان الشرقي والغربي ، وأن الوليد أمر ببنائها على أساس جديد حفر له حتى بلغ الماء . مما دفع المأمون

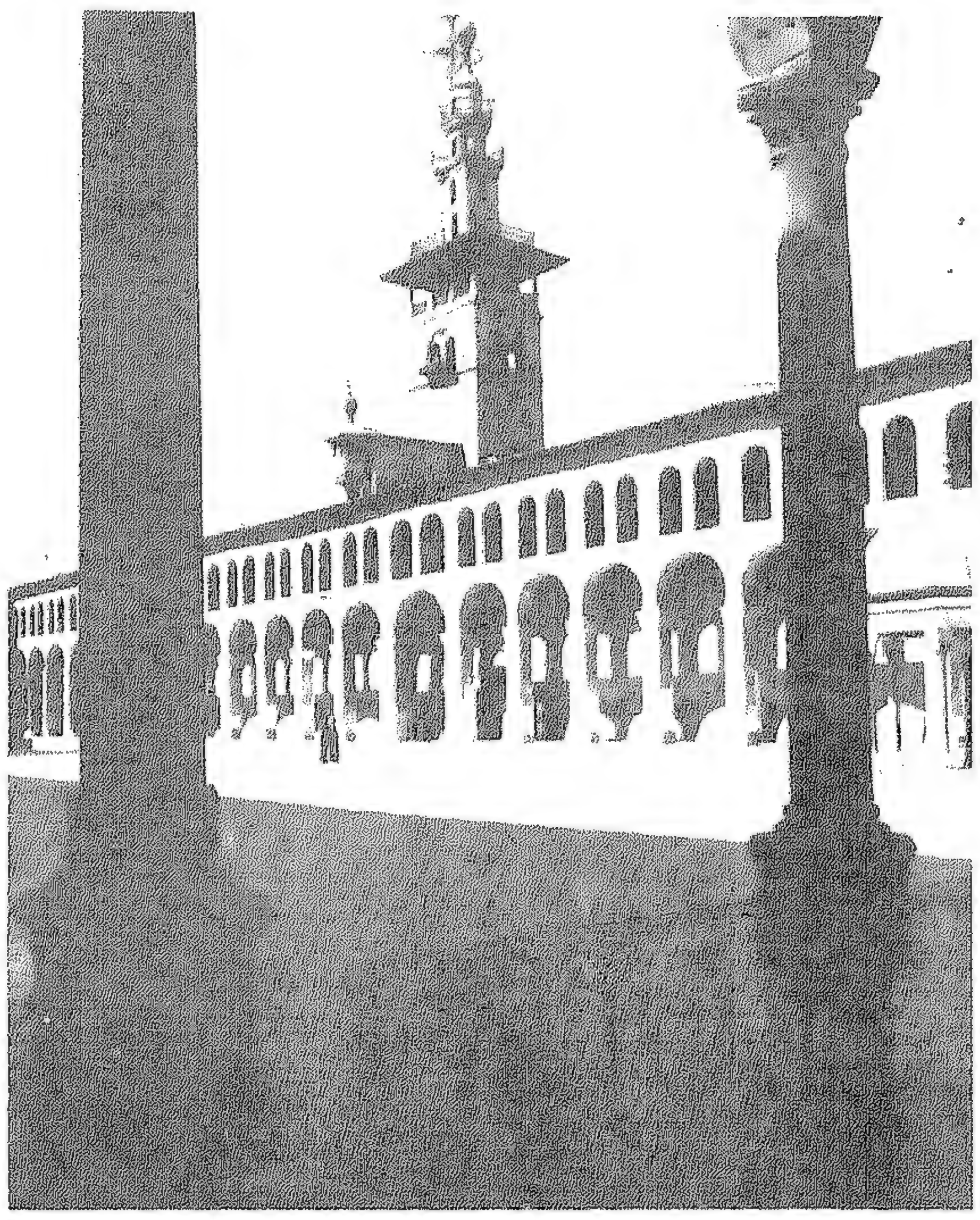

٢٦ ـــ واجهة الحرم من الجهة الشمالية .

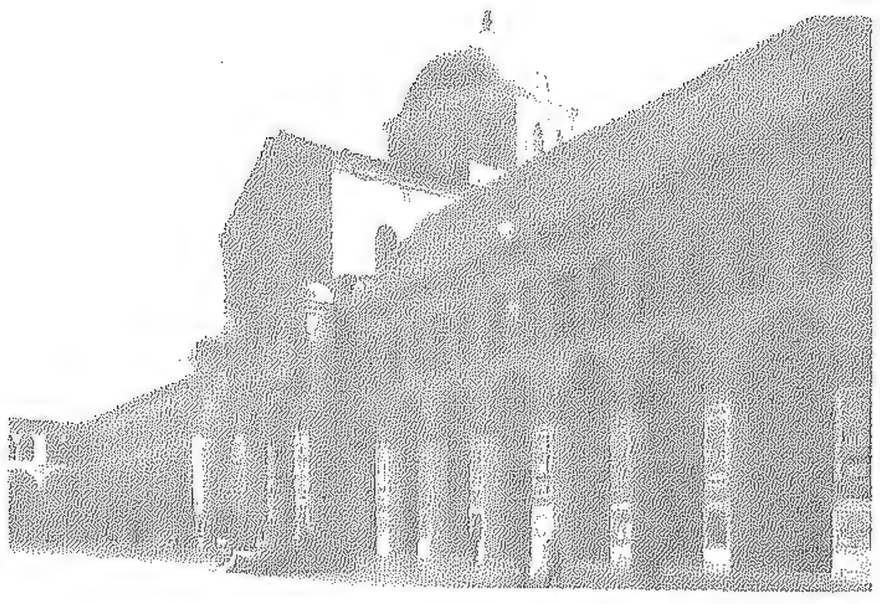

٢٧ ـــ واجهة الحرم من الجهة الجنوبية .

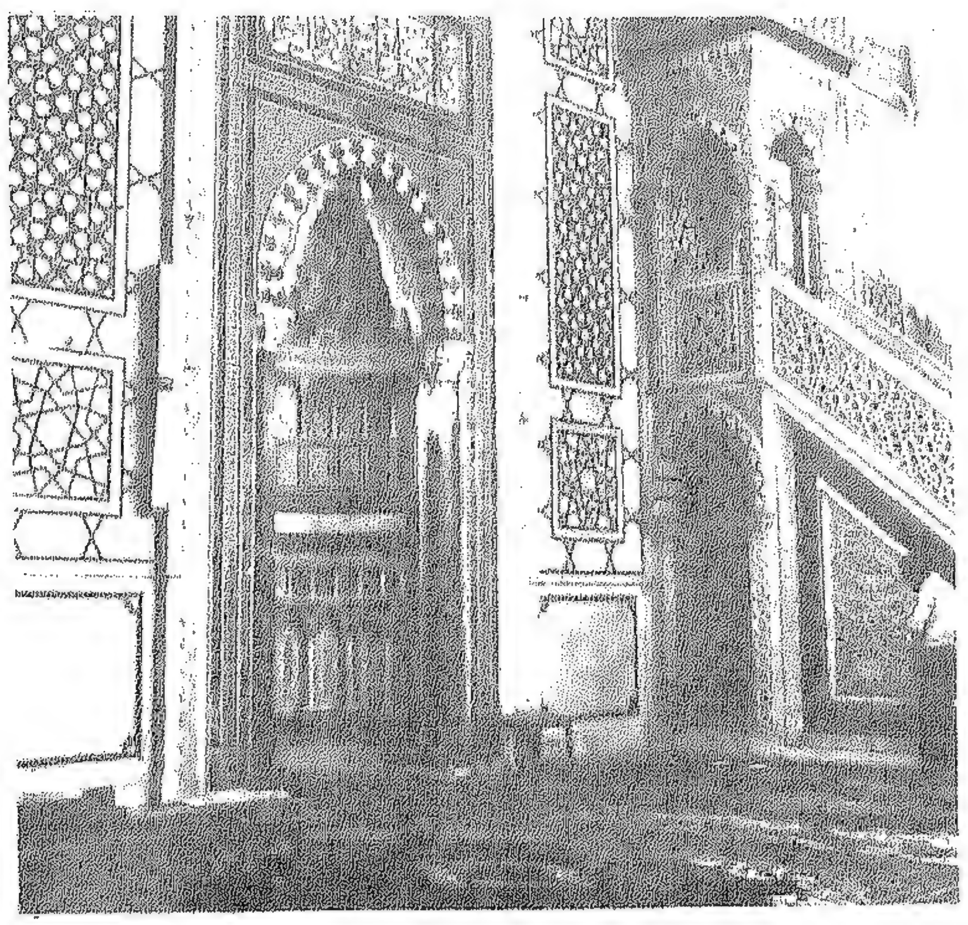

٢٨ ـــ حرم الجامع ونرى المحراب والمنبر .

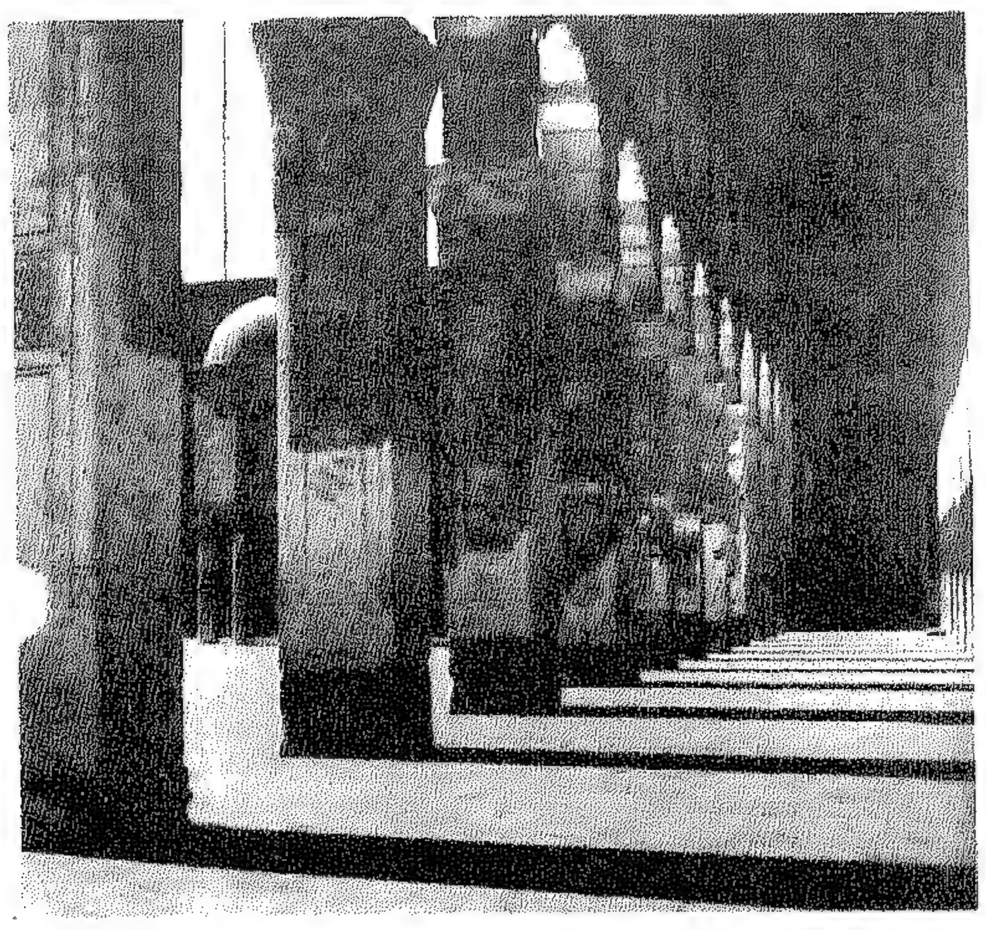

٢٩ ـــ الأروقة في الصحن .

وقد زار المسجد الكبير ، أن يسأل المعتصم ما أعجب ما في هذا المسجد وأجاب المأمون أخيراً على سؤاله قائلاً : بنيانه على غير مثالٍ متقدم .

بناء قبة النسر وقباب الصحن

قبة النسر هي من منجزات الوليد ، فلما أقيم هيكل البناء عمد الوليد الى رفع القبة وأرادها سامقة باسقة ، فلما تمت سقطت ، فشق ذلك على الوليد فجاءه بنّاء شامي ، فقال : أنا أرفعها بشرط . قال : وماهو ؟ قال : أن تعطوني عهد الله ألا يمد أحد غيري يده الى بنائها . فقال : لك ذلك .

فحفر حتى بلغ الماء ، ثم وضع الأساس وغطاه بالحصر ، واختفى وطلبوه سنة كاملة فلم يصلوا اليه ، فلما كان بعد السنة جاء فقال له الوليد : مادعاك الى ماصنعت ؟ فقال : تخرج معي حتى أريك . فخرج والناس معه ، حتى كشف الحصر ، فوجد البنيان قد انحط ونزل قليلاً . قال : من هنا كان سقوطها فابنِ الآن فإنها لا تهوي إن شاء الله . وبنى واستقرت القبة .

وترتفع القبة عن ارض الصحن ٤٥ مترا وقطرها ١٦ مترا ويصف ابن جبير هذه القبة فيقول : «وأعظم ما في هذا الجامع قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه ، سامية في الهواء عظيمة الاستدارة ، قد استقلّ بها هيكل عظيم هو غارب لها ، يتصل من المحراب الى الصحن ، وتحته ثلاث قباب : قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن ، وقبة تتصل بالمحراب ، وقبة الرصاص بينهما ، والقبة الرصاصية قد أغصّت الهواء وسطه ، فإذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً ، ومرأى هائلاً ، يشبهه الناس بنسر طائر كأن القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمينه ونصف الثاني عن شمال ، جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرّفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل كأنها معلّقة من الجو» .

ومن هذا يتضح ان قبة النسر كانت تقوم على جلمون معترض كما هو الأمر اليوم ، ولكن نضيف الى ذلك وجود قباب ثلاثة تحت الجلمون مما لانرى له أثرا اليوم .

ولكي نعرف تفاصيل بناء هذه القبة لابد ان نعود الى وصف ابن جبير وهو

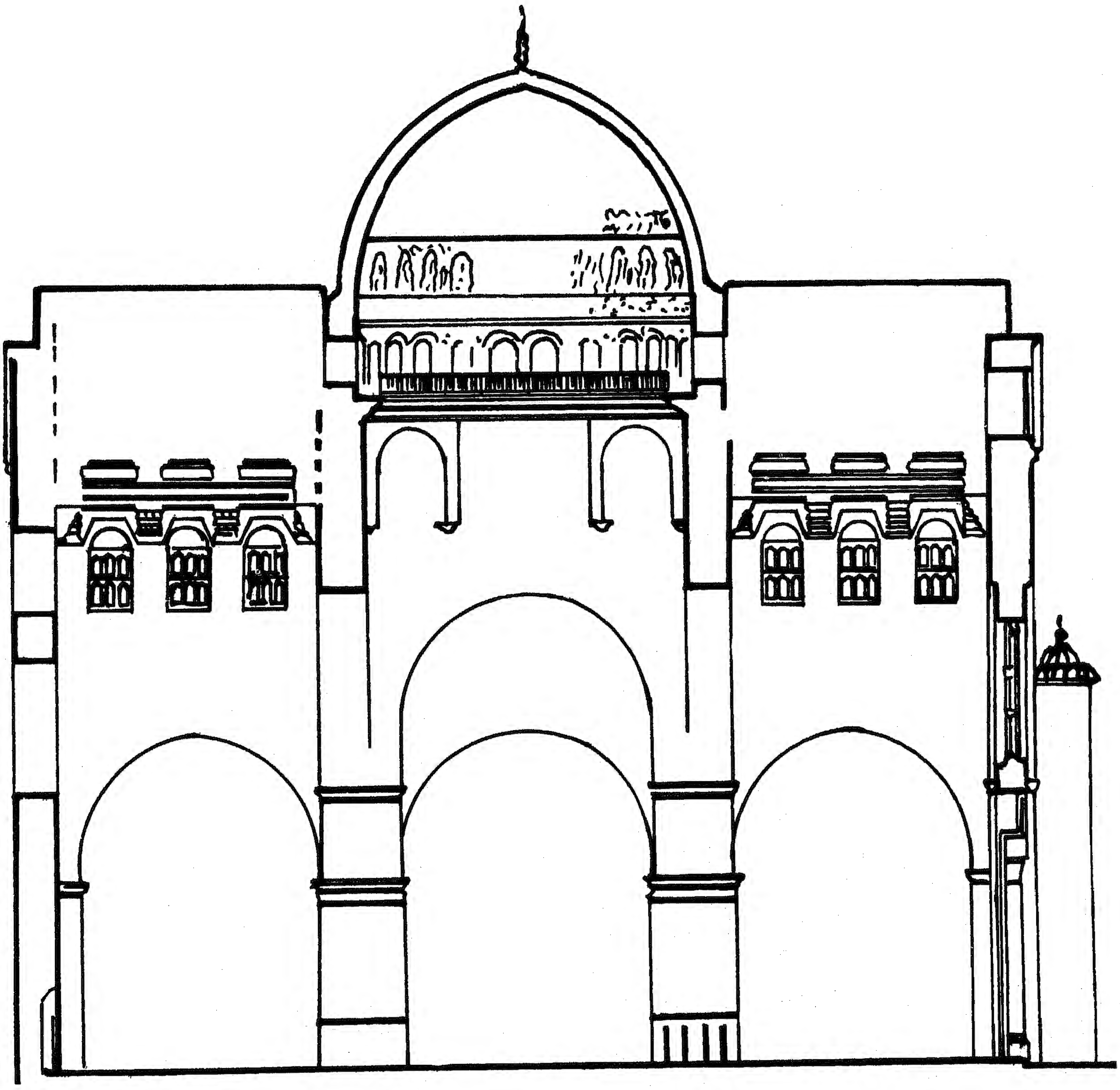

٣٠ ــ مقطع المصلبة من الداخل .

وصف علمي دقيق يغنينا عن الزيادة والتعليق . يقول ابن جبير : وهذه القبة مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شدّ بأضلاع من الخشب الضخام موثقة بنطق من الحديد ، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الأضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاه . وداخل هذه القبة ، وهو مايلي الجامع المكرم ، خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب ، مزخرفة التلوين ، بديعة القرنصة يرتمي الأبصار شعاع ذهبها ، وتتحير الألباب في كيفية عقدها ووضعها لإفراط سموها . أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة . وهي تلوح في انتظامها للعين ، كأن دور كل واحدة منها شبر أو شبران ـــ الغاية لعظم سموها . والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدّت أيضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام ، موثقة الأوساط بنطق الحديد ، وعددها ثمان وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعاطفا عجيبا ، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب أعلاه ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمان وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعاطفا عجيبا، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب أعلاه ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة وهي مئتا شبر وستون شبرا ، والحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها ، وانما هذا الذي ذكرناه ، نبذة يستدل بها على ماوراءها .

وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر، الذي تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم هو سقف للمقصورة ، بينه وبينها سماء جص مزينة ، وقد انتظم فيه من الخشب مالا يحصى عدده وانعقد بعضها ببعض ، وتقوس بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد أدخلت في الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين . وفي ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لاتنقلها الفيلة فضلا عن غيرها . فالُعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ، ومعينهم على التأتي لما ليس موجودا في طبائعهم البشرية ، ومظهر آياته على أيدي من يشاء من خلقه، لا اله سواه .

والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار ، وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان في رأي العين واحدة ، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة في جوف الأخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص . » .

ولقد جددت قبة النسر عام ٤٧٥ (١٠٧٥ م) في عهد نظام الملك وزير ملكشاة السلجوقي ثم جدد صلاح الدين ركنين من القبة عام ٥٧٥ .

وفي عام ٥٩٧ (١٢٠٠ م) تشققت قبة النسر بسبب زلزال عظيم وقيل انها سقطت على الناس ثم أصلحت وأسندت بأوتاد خشبية .

وفي عام ١٨٩٣ م شب حريق كبير من القبة أتى على المسجد كله ، وأعيد بناء القبة على النسق الذي كانت عليه .

وعدا قبة النسر هناك قباب أخرى في الصحن وصفها ابن جبير أيضاً وهي قبة المال أنشأها الفضل بن صالح العباسي عام ٧٨٠ م . «والقبة الشرقية تسمى قبة زين العابدين وتسمى أيضا قبة الساعات . تقع قبة المال في الجانب الغربي منه وهي أكبرها ، وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام ، مستطيلة كالبرج ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة ، كأنها الروضة حسنا ، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة ، يقال : انها كانت مخزنا لمال الجامع ، وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف على ماذكر لنا على الثمانية الاف دينار صورية في السنة ، وهي خمسة عشر ألف دينار مؤمنية أو نحوها . وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع الصاق، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام ، وتحتها شباك حديد مستدير ، وفي وسطه أنبوب من الصفّر يمج الماء الى علو ، فيرتفع وينثني كأنه قضيب لجين ، يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استطرافا واستحسانا ، ويسمونه قفص الماء . والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها» .

ولم يبق اليوم في الصحن الا قبتان قبة المال أو الخزنة وقبة الساعات . الاولى وهي القبة الغربية وتسمى قبة المال أو قبة عائشة ، وهي مؤلفة من ثمانية أعمدة غرانيتية ذات

تيجان كورنثية وفوقها حنت مزخرف ، وفوقه غرفة ذات ثمانية جدران من الحجر والآجر وكسيت بالفسيفساء (وصفه المقدسي) وجعل لها باب حديدي صغير .

ولقد أنشئت هذه القبة في عهد الفضل ابن صالح العباسي (توفي عام ١٧٢ هـ — ٧٨٩م) كما ذكر ابن تغري بردي .

أما القبة الشرقية وتسمى قبة الساعات فلقد أنشئت عام ٤٠٠ هـ زمن الحاكم العبيدي كما يذكر ابن كثير ولعلها انشئت عام ١٦٠ هـ ايام المهدي . ولقد ذكر ابن جبير كما سبق « بأنها قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة ولكن أصغر منها » وذكرها ولم يكن تحتها نافورة كما ذكر بعض المؤرخين ، وفي عهد السلطان محمود العثماني عام ١٢٣٢ هـ أغلقت هذه القبة بجدران وحورت مظلة القبة وشكلها واضحت مستودعا لساعات الجامع . ثم أزيلت هذه الجدران عام ١٩٥٨ وأعيد ترميم القبة وصفحت بالرصاص اشبه مايمكن بشكلها القديم . وتذكرنا هذه القبة بقبة صغيرة مماثلة في الحرم الشريف قرب قبة الصخرة .

أما القبة الثالثة فلقد شيدت في وسط الصحن فوق فوارة الماء ، ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) كما يذكر ابن عساكر ، وهي تقوم على أربعة أعمدة كما وصفها ابن جبير ، ولقد ازيلت معالمها في زلزال عام ١١٧٣ هـ ولم يبق الا الأعمدة الأربعة ، فأقام والي العثمانيين عثمان باشا ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م) تحتها بحرة مثمنة وحولها شاذروانا مربعا يقوم على ثمانية أقواس في كل جهة قوسان مدببان حملت على ثمانية أعمدة . ثم أزيلت معالم هذه القبة نهائيا عام ١٩٧٠ .

ويذكر ابن جبير « وفي الصحن بين القباب عمودان متباعدان يسيراً ، لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجيان ، وقد خرما أحسن تخريم ، يسرجان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان » . ومازال العمودان قائمين حتى الان .

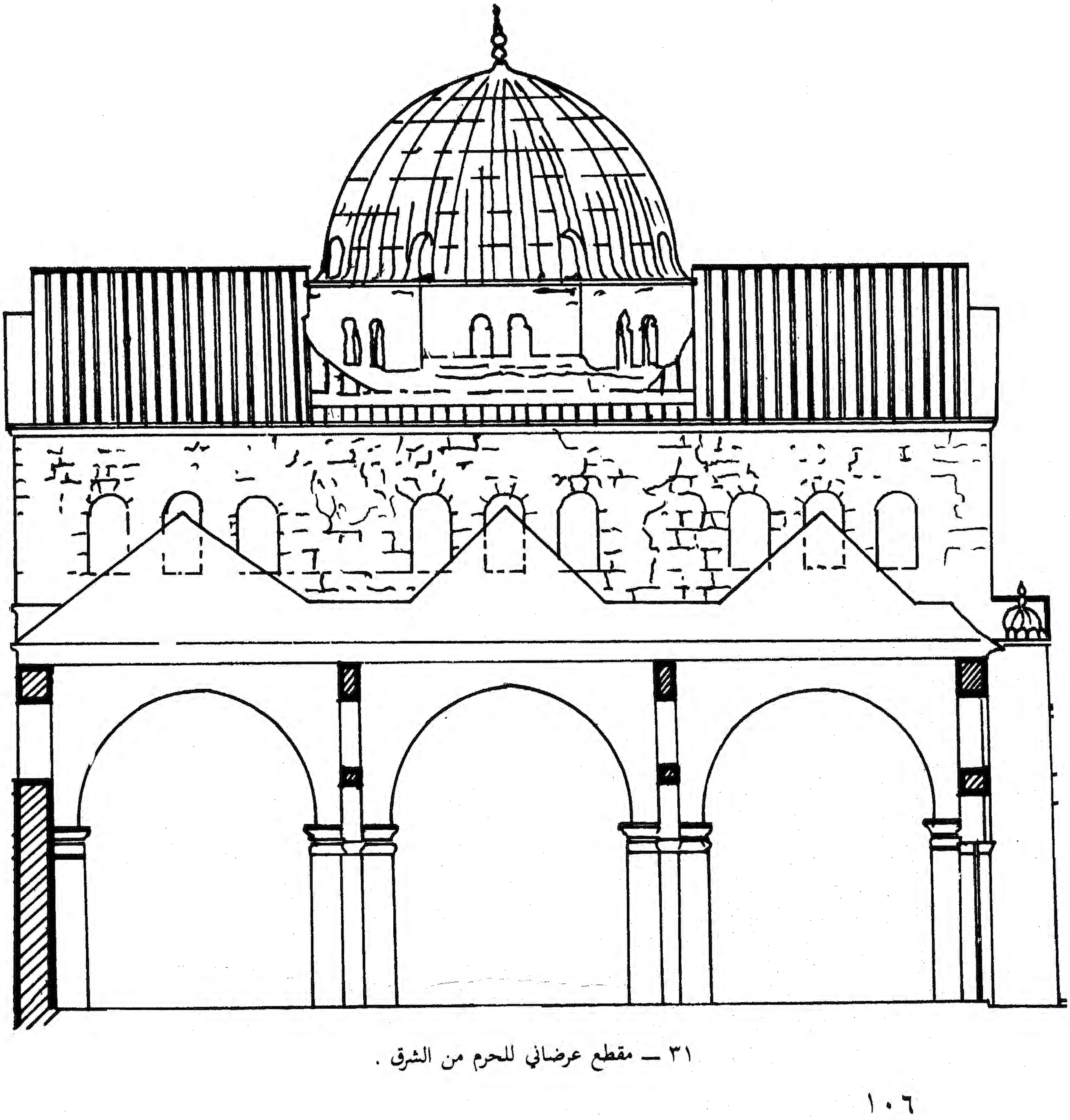

٣١ ـــ مقطع عرضاني للحرم من الشرق .

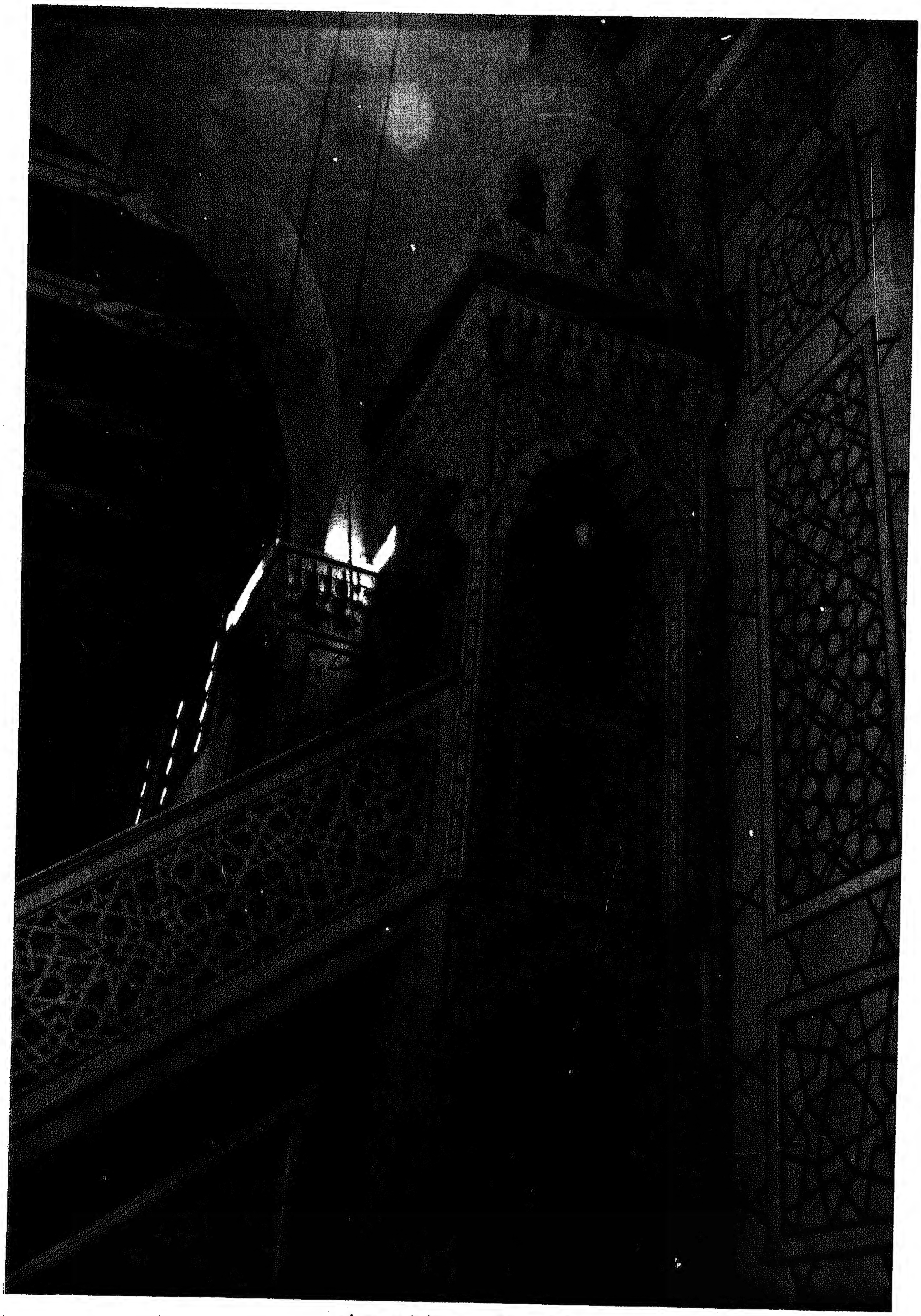

٣٢ــ المنبر بعد اعادة تنفيذه.

وصف لأقسام الجامع

يتألف الجامع الكبير من صحن عرضاني وحرم متجه نحو القبلة تعلوه قبة ومن ثلاثة مآذن وتبلغ مساحته ١٥٧ م طولا × ٩٧ م عرضا = ١٥٢٢٩ م٢ .

الصحن

صحن الجامع الكبير فناء واسع تبلغ مساحته ١٢٢٫٥×٤٨ م ــ٥٠م =٦١٢٥ م٢ ويتجه عرضانيا نحو القبلة حيث الحرم ، ويتوسط الصحن اليوم بحرة للوضوء في منتصف القسم الغربي قبة المال ، وتشرف على الصحن من الشمال مباشرة مئذنة العروس التي تعتبر المئذنة الرئيسية للمسجد ، وهي المئذنة الاولى في الاسلام بناها الوليد ثم أحرقت وأعيد بناؤها في عهد صلاح الدين .

ويحيط بالصحن من جهاته الثلاثة عدا الجنوبية رواق عال محمول على أعمدة مربعة هي في الواقع عضادات حجرية مكسوة بالكلس مع زخرفة بسيطة وأعمدة اسطوانية ، بمعدل عمودين بين كل عضادتين . وعدد هذه العضادات (١٣) وعدد الاعمدة (٣٤) وهي (اضيفت في القرن ١٨) تحمل أقواسا وفوقها قناطر تحمل تغطية الأروقة ، أما الجدران فكانت مكسوة كلها بالفسيفساء . وخلف الأروقة مشاهد وزوايا وغرف .

ما ان ندخل من باب البريد حتى نرى الى يسارنا ومن الجهة الغربية قاعة كبرى هي مشهد عثمان ، وجددت عام ١٢٩٥ م وأصبحت الآن قاعة ضخمة للاستقبال ، وبعدها غرفة كبرى هي مستودع الجامع اليوم ، وكانت تسمى بيت الزيت الذي كان يقدم لموكب الحجيج .

وثمة غرفة في الزاوية الشمالية الغربية تقع فوق قاعدة الصومعة المزالة من بداية المسجد . ويقال ان الغزالي أقام فيها معتكفاً ومدرساً ، وتسمى زاوية الغزالي .

وبعد ان نجتاز باب الفراديس نرى الخانقاه السميساطية وكانت دارا لعمر بن عبد العزيز ، ثم نصل إلى التربة الكاملية الخارجة عن الجدار ، وفيها قبر الملك الكامل الأيوبي . وثمة نقش مكتوب يشير الى ذلك فوق النوافذ . ثم نجتاز الزاوية الشمالية الشرقية لكي نصل الى مشهد الحسين وكان اسمه مشهد علي زين العابدين وقد جدده الملك الظاهر (١٢٦٥م) ثم جدده الوالي سليمان باشا ، ثم نصل الى باب جيرون .

واذا عدنا الى صحن الجامع فاننا نراه مبلطا بالحجارة، ولقد تبين من سبر في أرض الصحن أنه كان مفروشا بالفسيفساء ، ويبدو ان ذلك استمر حتى حريق عام (٤٦١ هـ / ١٠٧٨م) أو حتى عام ٦٠٢ هـ حيث بلط بالحجر واستمر ذلك حتى عام ٦٠٤م في عهد الوزير صفي الدين وزير الملك العادل الذي أمر بتجديده معتمدا على حجارة القنطرة الشرقية وحجارة من المزة ، ثم جدد بلاط الصحن عام ٦٢٣ هـ . وهذا البلاط رفع من مستوى أرض الصحن أيام الوليد . وأجري ترميم آخر في العهد المملوكي فاستعمل الآجر في بلاط الصحن والاروقة . وأهم تجديد لبلاط الصحن تم في عام ١٣٠١ هـ (١٨٨٣) اي قبل عشر سنوات من الحريق الاخير ، على ان التبليط الحالي تم منذ عهد قريب ، وهو من الحجر المزي المصقول .

الحـــرم

اذا دخلنا الى الحرم فاننا نرى جدار القبلة بعرضه الواسع (١٣٦ مترا) وعمق الحرم (٣٧ مترا) وهو مؤلف من ثلاثة أجنحة عرضانية وجناح متوسط معترض يصل بين المحراب والصحن . وهذه الأجنحة تشكل بلاطات متجهة نحو القبلة عددها اثنان وعشرون بلاطة نصفها الى يمين الجناح المعترض والنصف الآخر الى يساره . وينفتح الحرم على الصحن بسلسلة من الأقواس عددها بعدد البلاطات ولقد زينت الأقواس في أعلاها بنوافذ زجاجية ، وفي أسفلها باب لم يكن في البداية ، بل كانت ستور احترقت ، أما الجناح المعترض فينفتح على الصحن بباب ضخم واجهته السنمية مغطاة بالفسيفساء والحجر .

وفي الحرم ثمان وستون دعامة أحصاها ابن جبير وابن بطوطة ، فهي ٥٢ عموداً وثمان دعائم من الحجر والجص وست من الرخام ، ولكن نظراً لأن الواجهة المطلة على الصحن أغلقت بأبواب وأصبحت أعمدة الأقواس مرافق للأبواب ، فإن عدد الدعامات الموجودة في الحرم اليوم هو اثنان وأربعون عموداً وست عضادات ، وفي الواجهة اثني عشر عموداً وثماني عضادات أي أن المجموع هو ثمان وستون دعامة كما ذكره المؤرخون الأوائل .

وفي الحرم مقام يوحنا المعمدان او النبي يحيى ، وليس هذا بمؤكد، والى طرفي الحرم من الشرق والغرب ، تقوم مشاهد ، هي من الغرب مشهد عروة وبعده قاعة الحنابلة والى الشرق مشهد المالكية أو مشهد السفرجلاني وفي الزاوية مدخل المنارة الشرقية أو مئذنة عيسى . وعلى امتداد الجدار القبلي يقوم محراب المالكية ، وهو محراب الصحابة الذي أنشىء في بداية الفتح ، وهو أول محراب في الاسلام . والمحراب الكبير أو محراب الخطيب وهو المحراب الاساسي الذي أقيم في الجهة الغربية من الباب القديم المسدود ، ثم المنبر وبعده مقصورة الخطابة ، ثم بيت الخطابة ، ثم محراب الشافعي وبعده باب الزيادة ثم محراب الحنابلة وبعدها المئذنة الغربية وفي قاعدتها سكن الغزالي وفي الجهة الغربية مشهد عروة ، الذي اصبح قاعة للضوء و كان يسمى مشهد علي ويدعى اليوم مشهد اليافي .

ويغطي الحرم ثلاث جملونات عرضانية وجملون معترض تغطي أجنحة الحرم ، وهي جميعها مصفحة مع القبة بالرصاص .

ابواب الجامع

للجامع الكبير أربعة أبواب . البابان الرئيسيان للمسجد هما باب جيرون من الشرق وباب البريد من الغرب ، والباب الشمالي هو باب العمارة ، وهذه الأبواب تنفتح على الصحن . أما الباب الكبير القبلي وهو باب الزيادة فإنه ينفتح على الحرم .

والباب الشرقي أي باب جيرون عرف في القرن الحادي عشر بباب الساعات لوجود ساعات على واجهته ، ثم اطلق عليه اسم باب اللبادين نسبة الى اسم المنطقة هناك ، ويسمى اليوم باب النوفرة ويتألف هذا الباب من فتحات ثلاث .

وتبدو في شرقي دهليز هذا الباب أعمدة ضخمة هي من بقايا السور الخارجي للمعبد وله قوس . وكان الباب بأقسامه الثلاثة مؤلفا من خشب الصنوبر المتين جدا مكسوا بألواح النحاس مزخرفا بمسامير بارزة . ولكن حريق عام ١٢٥٠ م شوهته ولقد فقد بعد نقله ، وبعد حملة تيمورلنك أتلف الباب مع الجامع ، وسد البابان الصغيران في باب جيرون ثم جددا عام ١٤١٩ م .

أما الباب الغربي وهو المسمى باب البريد فهو مؤلف أيضا من فتحات كبيرة ثلاث ، فتحة كبرى وفتحتان جانبيتان عليها أبواب ضخمة من الخشب المصفح

بالنحاس المزخرف ، وكان قد جدد عام ١٢٠٦ م كما جدد أيضاً في عهد الملك الظاهر عام ١٢٧٢ م ، وانشىء الباب الحالي في عهد قايتباي ١٤٩٥ م . وثمة كتابات تشير إلى أن إنشاء الدرفتين الجانبيتين تم في عهد السلطان المؤيد شيخ . أما الباب الكبير القبلي فلقد سد منذ عهد الوليد ما عدا الباب الأصغر على يسار المحراب ، وكان قبلاً ممراً للخليفة باتجاه قصر معاوية ، الخضراء . وهو مؤلف من فتحات ثلاثة ، الكبيرة في الوسط ، وهو الباب الأوسط مؤطر بطنف حجري مزخرف يعتبر من أروع الأجزاء المزخرفة من المعبد القديم .

والباب القبلي الثاني هو باب الزيادة وأطلق عليه احيانا باب الساعات ، وانتقل الاسم الى باب جيرون لانتقال الساعات اليه ، ويطلق عليه اليوم باب القوافين او باب سوق الصاغة .

والباب الشمالي يعرف بباب الناطفيين او باب الفراديس ويسمى اليوم باب العمارة ، وكان في ظاهره بين عمر بن عبد العزيز .

الساعات في الجامع الكبير

كان الى يمين الخارج من باب جيرون او باب الساعات ، ساعة وصفها ابن جبير قائلا : « وعن يمين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر ، تحت كل واحد منهما . أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدّان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما الى الغرفة ، بسرعة ، بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دويّ ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لايزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ...

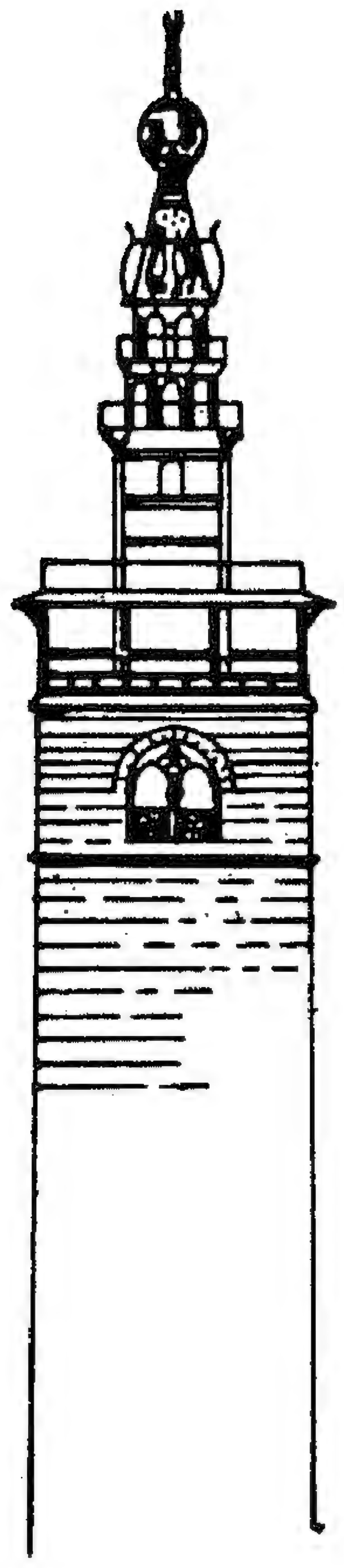

٣٣ ـ مئذنة العروس الشمالية .

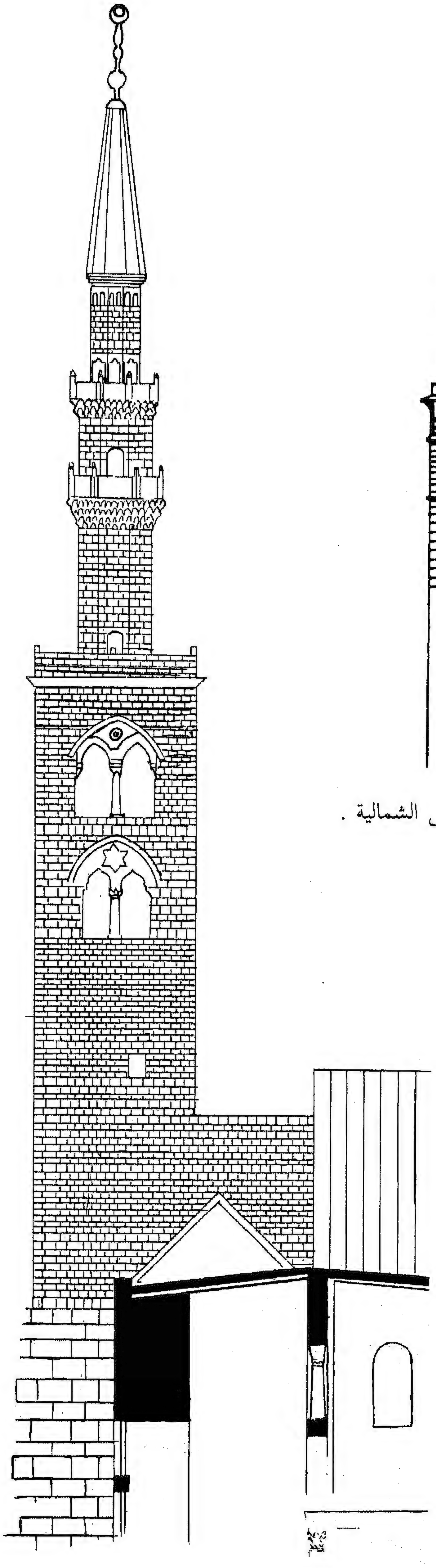

٣٤ ـ المئذنة الشرقية

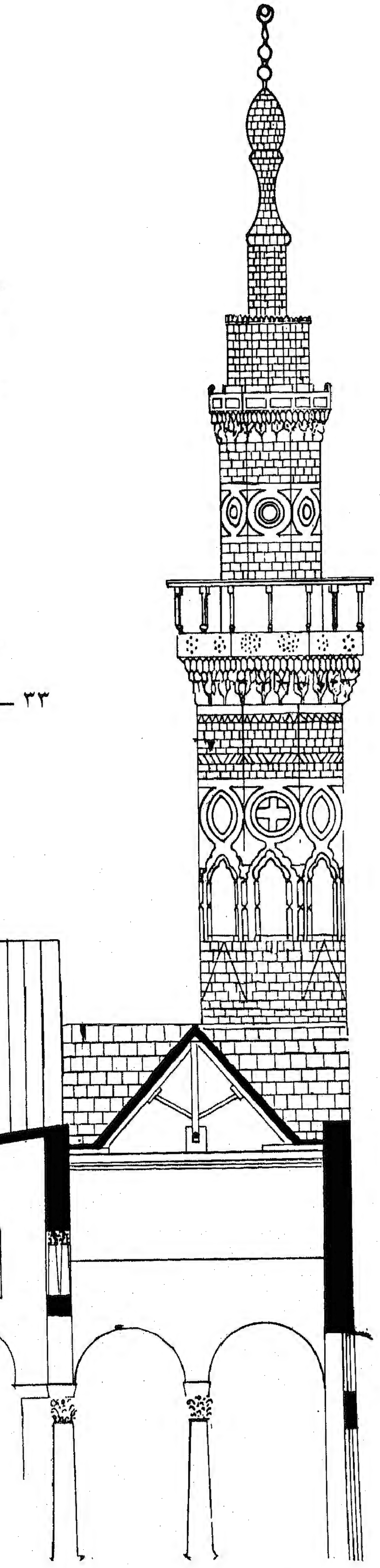

٣٥ـ المئذنة الغربية .

صُورة السَّاعةِ التي وَصَفها ابن جُبير في رِحلَتهِ وكانت خارج باب المسجدِ الأمويّ الشرقي

الاستاذ محمد احمد دهمان

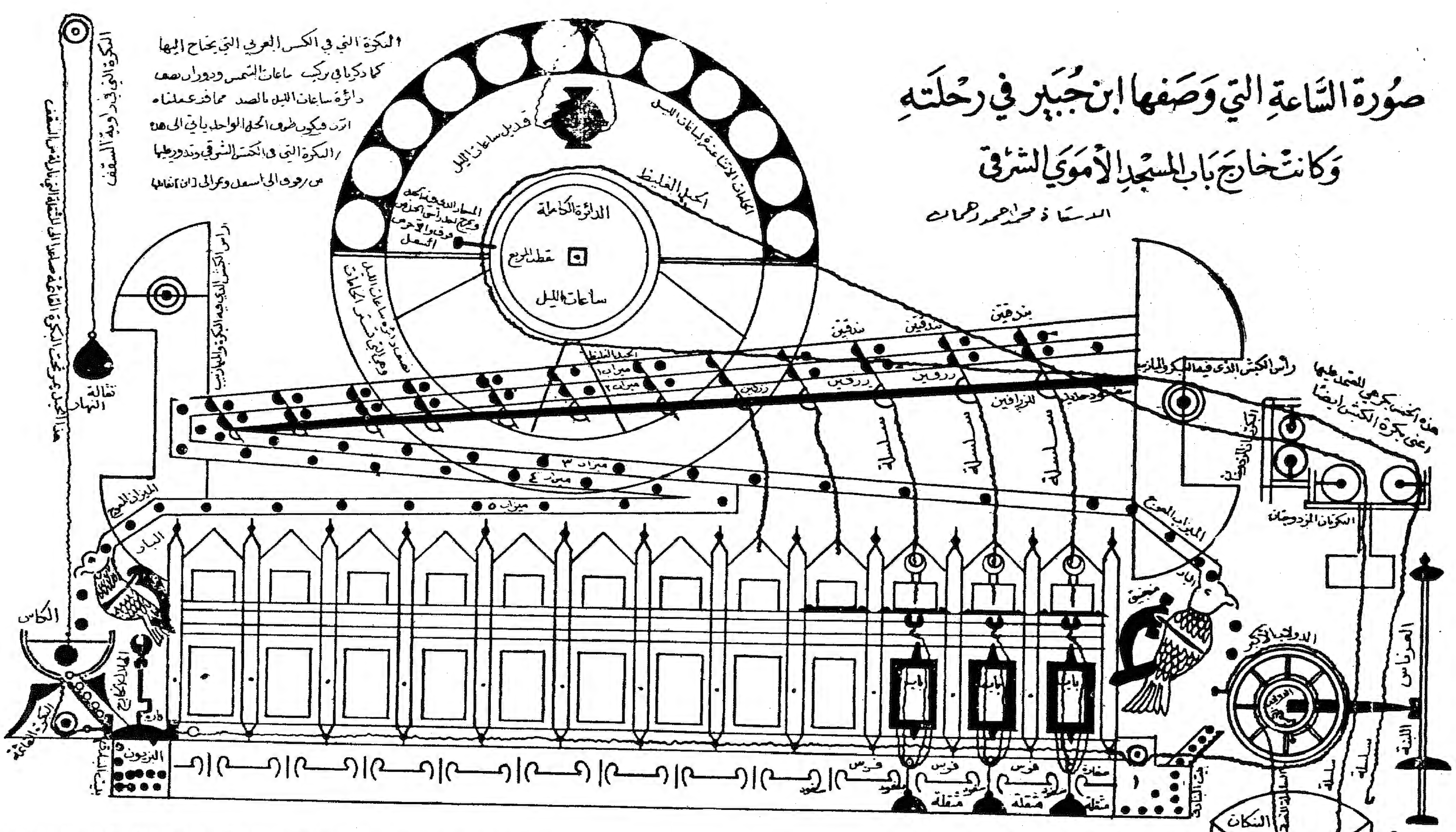

(١) هذه صورة المثقلات الرصاص والسفافيد التي في أجسامها اطرافها مثقوبة ، وفي كل ثقب حلقة فيها طرف السفود الآخر الذي له طرفان : طرفه الاسفل في الحلقة والاعلى مثقوب أيضا وفيه ثلاث حلقات : واحدة منهن لسلسلة الزرفين ، والثانية (٢) لسلسلة الهلال ، والثالثة تشد فيها الشرابتان الابزيسم التي في كل باب ، وأطراف السلاسل مركبة في هذه الحلق بكلاليب موثقة والصفافير المذكورة في الاثقاب التي في سقف بيت المثقلات قد صورناها ، والذي فوق الرؤوس المذكورة للمثقلات هي العتبة السفلى (٣) وفيها الأثقاب في قبالة نصف كل باب يدور فيها عقبه وتكشف الابواب العتبة العليا والاعمدة ورؤوسها من الجانبين منزلة في العتبة السفلى والعليا ، ثم الابواب وفوق الابواب العتبة العليا واعقابها تدور فيها وفوق العتبة العليا السفود (٤) الذي فيه البرابخ ، وقد صورناها على ما توجبة الضرورة فوق الابواب ، وينبغي أن تكون قبالة رؤوس الابواب أعلى من العتبة العليا بيسير ، وقد صورنا أكثر ما امكننا ، وقد بقي ما لم نقدر نصوره : الراقونة وحامل قطب ساعات الليل (٥) وساعات الشمس والطاق التي تركب عنها وجميع آلات ساعات الشمس واقسام كل ساعة التي ذكرنا انها تعمل فيها المسامير المذهبة ، وأولها من نصف المسافة التي قبل الساعة الاولى الى نصف كل باب والعتبة البرانية التي تستر الهلال وهي دون ارتفاع (٦) العتبة السفلى والدولاب راكب عليها وبعض آلات لم تأت صورتها على الوضع في الوضع الذي يجب لأن الورق لا يمكن صور سائر الآلات فيها ، فما لم نصوره هاهنا فليعلم من موضعه في الآلات مفردة وتحقق صورته ، وأما ما لم تأت صورته على الوضع فالفكر يدل عليه .

(١) بكرة القرنة الشرقية من الحائط .

وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرّة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكّل بها في الغرفة متفقّد لحالها ، درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها . وهي التي يسميّها الناس المنجانة . » . ولقد وضع دهمان لهذه الساعة مخططاً . وكان ابن الشاطر (٧٧ هـ ـــ ٧١٥ م) الفلكي ومخترع الساعة ورئيس المؤذنين في الجامع الكبير ، قد اخترع وأشرف على الساعة الكبرى . ويقول الصفدي « وصورة الاسطرلاب المذكور : قنطرة مقدار نصف أو ثلث ذراع تقريبا يدور أبدا على الدوام في اليوم والليلة من غير ماء على حركات الفلك ، لكنه قد رتبها على أوضاع مخصوصة تعلم منها الساعات المستوية والساعات الزمانية » .

ويرى بدران « ان الذي دعاه الصفدي بالاسطرلاب ليس هو الاسطرلاب المشهور ، لأن هذا ميزان الشمس ، واختراعه كان قبل زمنه من السنين ، ولكنه الآلة المسماة في زمننا بالساعة ، ويكون ابن الشاطر هو المخترع لهذا النوع العظيم الفائدة ، ثم ان أهل بلادنا أهملوه هو واختراعه حينا من الدهر ، حتى ظفر بنخب أفكاره الافرنج ، فهذبوه وأتقنوه فنسب اليهم ، على أن اختراعه يزيد على ماتفننوا به بمعرفة الزمانية التي تقسم كلا من النهار والليل الى اثني عشر قسما في جميع الفصول »

المـآذن

في المسجد الأموي حالياً ثلاثة مآذن ؛ المئذنة الشرقية وتسمى عيسى أو المئذنة البيضاء ، والمئذنة الغربية ، وكلاهما أنشىء على قاعدة البرج أو الصومعة القديمة ، أما الصومعتان الواقعتان على طرفي الجدار الشمالي فلقد أزيلتا . وكنا تحدثنا عن هوية هذه الصوامع . والمئذنة الثالثة هي مئذنة العروس .

ومئذنة عيسى أنشئت مجددا عام ١٢٤٧ م ورممت في القرن الخامس عشر ، وهي ذات بدن مضلع وفي أعلاها مخروط أنشىء في العهد العثماني (القرن ١٥ ـــ ١٦ م) ، وانما سميت كذلك للاعتقاد بعودة ظهور المسيح عليها ، ولقد تعرضت الى كثير من التهديم .

أما المئذنة الغربية فلقد تعرضت الى حريق عام ١٤٧٩ م وأعيد بناؤها عام ١٤٨٨ م من قبل السلطان قايتباي وفق أسلوب مصري .

والمئذنة الثالثة هي مئذنة العروس ولقد أنشأها الوليد بن عبد الملك في وسط الجدار الشمالي . وتعتبر أقدم وأجمل مئذنة اسلامية . ويقول الخياري في رحلته (توفي ١٦٧٢) « وسبب تسميتها بذلك كما أخبرني به بعضهم أنه لما تمّت عمارته طلبوا رصاصا لتغطية سقفه ، فلم يجدوه الا عند امرأة من بنات التجار . فطلب منها ذلك فامتنعت من بيعه بعد المبالغة في الثمن ، الا ان تعطي زنته فضة . فوافقها الملك على ذلك فوزن لها ماطلبت وأعطته ، فلما رأت ذلك قالت : هذا ملك عادل . فخطبته الى نفسها فتزوجها . ثم أعطت ذلك المال لبناء هذه المنارة ، فعمرت به ، فلذلك لقّبت بمنارة العروس . هكذا أخبرني بعض الثقات » . وهناك كتابة كوفية منشورة تبين ان ملكشاة ابو الفتح جلال الدولة المتوفي عام ٤١٥ هـ ـــ١٣٠٤ م رمم بناء مئذنة العروس ، ثم هو الذي أمر بإنشاء القسم العلوي من المئذنة بدءاً من سويّة الحاجز . ولقد استخدمت هذه المئذنة في العهد المملوكي لارسال الاشارات الضوئية باتجاه القاهرة ، اشعاراً بظهور المغول في الشمال .

وكانت المئذنة مذهبة كلها من أعلاها إلى أسفلها واحترقت عام ٥٧٠ هـ ـــ ١١٦٨ م إثر حريق مدرسة الكلاسة . فجددها السلطان صلاح الدين ، ثم جدد النصف الأعلى من مئذنة العروس عام ١٩١٥ .

انتشار شكل مئذنة الجامع الكبير في المغرب العربي

ارتبط أهل المغرب والأندلس ببلاد الشام برباط متميز ، فلقد كانت دمشق عاصمة الأمويين الذين أسسوا الدولة الجديدة في الأندلس بعهد عبد الرحمن الداخل . واستمر ارتباط الدولة بدمشق عاطفيا ، على الرغم من سقوط الأمويين في المشرق . ويتحدث المؤرخون عن حنين عبد الرحمن لأرض الشام ، حتى انه أنشأ في قرطبة منية الرصافة تيمنا برصافة جده هشام، وفيها جلب مزروعات الشام .

والواقع ان نزوح أهل الشام الى الأندلس انما تكاثر بعد عام ٧٤٢ م وقد حملوا معهم تقاليدهم وثقافتهم التي لم تلبث ان طبعت الحياة بطابعها .

وهكذا فان تأثر المغرب والاندلس بالعمارة الدينية الشامية كان أقوى من تأثر المشرق في ايران وتركيا . وكانت المنشآت في المنطقة تحمل طابع دمشق كما يقول مارسيه .

وتضم مصر عمارة دينية ضخمة هي مسجد عمرو في الفسطاط ، الذي يعود إلى القرن الأول الهجري والذي أعيد توسيعه خمس مرات منذ عام ٦٤٣ م ، ووصل إلى أبعاده الحالية عام ٨٢٧ م ، أي قبل واحد وعشرين عاماً من إنشاء مدينة سامراء . وعلى هذا فانه من الطبيعي ان لايكون متأثرا آبدا في بدايته بفن سامراء .

وكان للمسجد أربع مآذن منتصبة في الزوايا الأربع ، وهي مؤلفة من أبراج مربعة ، تذكر بأوضاعها ومخططها ، بمآذن المسجد الكبير في دمشق كما يقول مارسيه . ولعل المسجد الأكثر انطباقا على مبادىء عمارة المساجد التي وضع أسسها مسجد دمشق هو جامع القيروان .

ولابد من الاشارة الى أن نظام المساجد كله في المغرب بقي مدينا لنظام المسجد في دمشق ، بل كان التقليد أحيانا حرفيا ، حتى أن جامع القرويين ، وجامع قرطبة وغيرهما من مساجد المغرب والأندلس ، كانت في تصميمها تتجه نحو الجنوب ، وكذلك محراب القبلة كما هو الشأن في مساجد الشام ولقد انتبه المسلمون إلى ذلك ، فكانوا يتجهون في صلاتهم إلى غير المحراب ، باتجاه الجنوب الشرقي .

لقد كان مسجدا القيروان وقرطبة ومئذنتا هذين المسجدين منطلقا لمفهوم المآذن

وشكلها في المغرب والأندلس . وتابع المرابطون والموحدون انشاء المساجد تحليها المآذن الرائعة على غرار النموذج الشامي

وتدين الجزائر للمرابطين ببناء ثلاثة مساجد ، مسجد مدينة الجزائر (١٠٩٦ م) ومسجد ندروما ومسجد تلسمان . ولكل من هذه المساجد مئذنة شامية مربعة . اما جامع القرويين في فاس فلعله كان أكثر قربا في عمارته لنظام المسجد الأول .

ولئن كانت منشآت يعقوب المنصور لاتقدم لنا الا معلومات غير إكيدة عن نظام عمارة المساجد ، فانها تعرفنا على الأقل على عمارة المآذن وزخرفتها . فمئذنة الكتبية التي تمت عام ١١٩٦ م ومئذنة حسان التي بقيت دون اكتمال كالمسجد ذاته ، والجيرالدا في اشبيلية التي أضيفت اليها في القرن السادس عشر عناصر تتويج مسيحية في الأعلى ، هي منشآت معاصرة ، وشكل هذه المآذن مشتق من المآذن السورية التي كانت قد وجدت استعمالها في قرطبة في مئذنة المسجد الكبير التي نملك عنها صورا قديمة ، كما يقول مارسيه .

محراب الصحابة ، أول محراب في العالم الإسلامي

اختلفت الآراء في تحديد أول محراب في المسجد الاسلامي ، كما اختلفت الآراء في تحديد مصدره ، فهل استعمل المحراب نقلا عن شكل معماري روماني او تقليدا لحنية بيزنطية أو قبطية ، أم أنه بدعة اسلامية صرفة اقتضتها ضرورات الصلاة الجماعية في المسجد ؟

المساجد الأولى التي أنشئت في بداية الاسلام بعضها لا أثر للمحراب فيه ولم يذكر المؤرخون عن انشاء محراب في هذه المساجد .

ويروي ابن شاكر ان خالد بن الوليد عندما فتح دمشق صلى في المكان الذي أصبح المسجد الكبير ، وأن صحابة الرسول أقاموا في الجزء الذي دعي (محراب صحابة الرسول) على الرغم من أن الجدار لم يجوف بعد لانشاء محراب فيه .

واذا دققنا في هذا التجويف لوجدنا أنه أقيم على القسم الشرقي من الجدار الروماني ولم يعدل هذا القسم في العهود اللاحقة ولم يهدم لأسباب قاهرة كما تم في القسم الغربي .

وان هذا التجويف لم يكن نافذة او حنية لها وظيفة معمارية او دينية ما والتدقيق في طريقة الانشاء تبين لنا أن التجويف تم بعد انشاء الجدار في العهد الروماني وليس قبله . فهل تم ذلك في العهود المسيحية ام في العهود الاسلامية .

رواية ابن عساكر السابقة تبين أن هذا المحراب لم يكن موجوداً عندما صلى فيه خالد ابن الوليد .

ويعتقد فريد الشافعي ان محراب قبة الصخرة أنشىء قبل المحراب الكبير في الجامع الأموي بدمشق ، ولا نؤيد هذا الرأي .

وهكذا فان محاريب جميع المساجد الصغيرة والمساجد الجامع في الشام ومصر وغرب العالم الاسلامي كله قد تبعت ذلك النموذج الذي رأيناه في المسجد الأموي بدمشق ، ونرى أمثلة عليه في جامع قصر الحلابات ومسجد خان الزبيب ومسجد ام الوليد وتؤرخ فيما بين ٧٢٥ ـ ٨٣٠ م ومحراب المسجد الصغير في كل من قصر المشتى وقصر الطوبة ، وفي مسجد قصر الحير الشرقي ، ومحراب مسجد حران وتنسب كلها الى العصر الأموي .

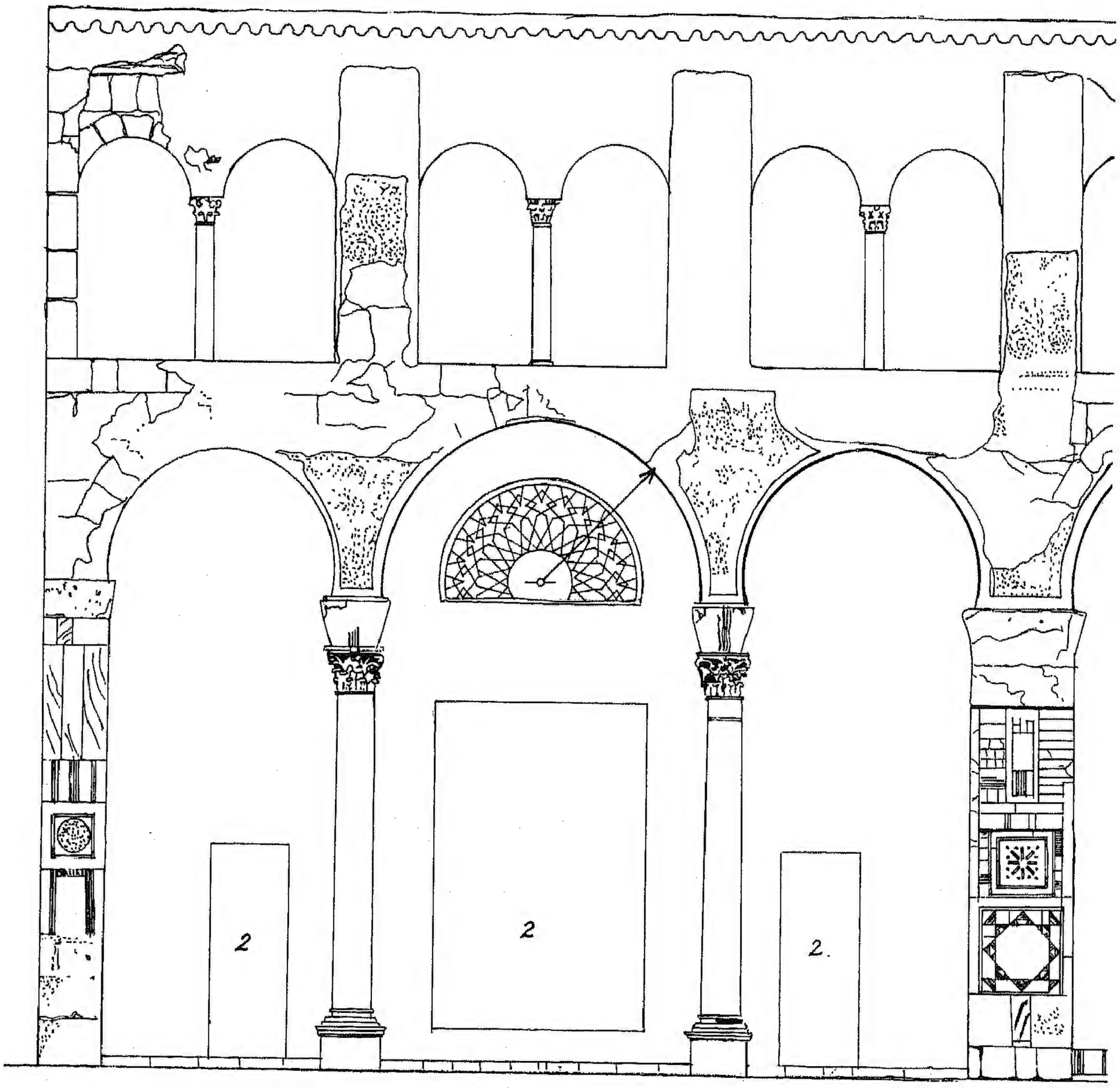

٣٦ ـ الرواق الغربي وباب البريد .

اقسام الجامع

١ — باب جيرون والدهليز

٢ — مشهد الحسين او زين العابدين

٣ — قاعة المئذنة الشمالية الشرقية

٤ — قبر الملك الكامل

٥ — مقر بيت عمر بن عبد العزيز ــ الشميصاتية

٦ — باب الكلاسة او العمارة

٧ — مئذنة العروس

٨ — قاعدة المئذنة الشمالية الغربية (زاوية الغزّالي)

٩ — مشهد عثمان ــ قاعة الاستقبال اليوم

١٠ — باب البريد

١١ — مشهد عمر ، أو مشهد عروة وبيت الوضوء اليوم

١٢ — قاعدة المئذنة الجنوبية الغربية ، وفوقها المئذنة الشرقية (قايتباي)

١٣ — محراب الحنابلة

١٤ — محراب الحنفية

١٥ — محراب الخطيب او محراب المالكية

١٧ — قاعدة المئذنة الجنوبية الشرقية ، وفوقها المئذنة البيضاء

١٨ — مشهد أبي بكر

١٩ — مقام النبي يحيى

٢٠ — قبة الساعات

٢١ — قبة البركة ولقد أزيلت

٢٢ — قبة المال أو الخزنة

٢٣ — باب الزيادة

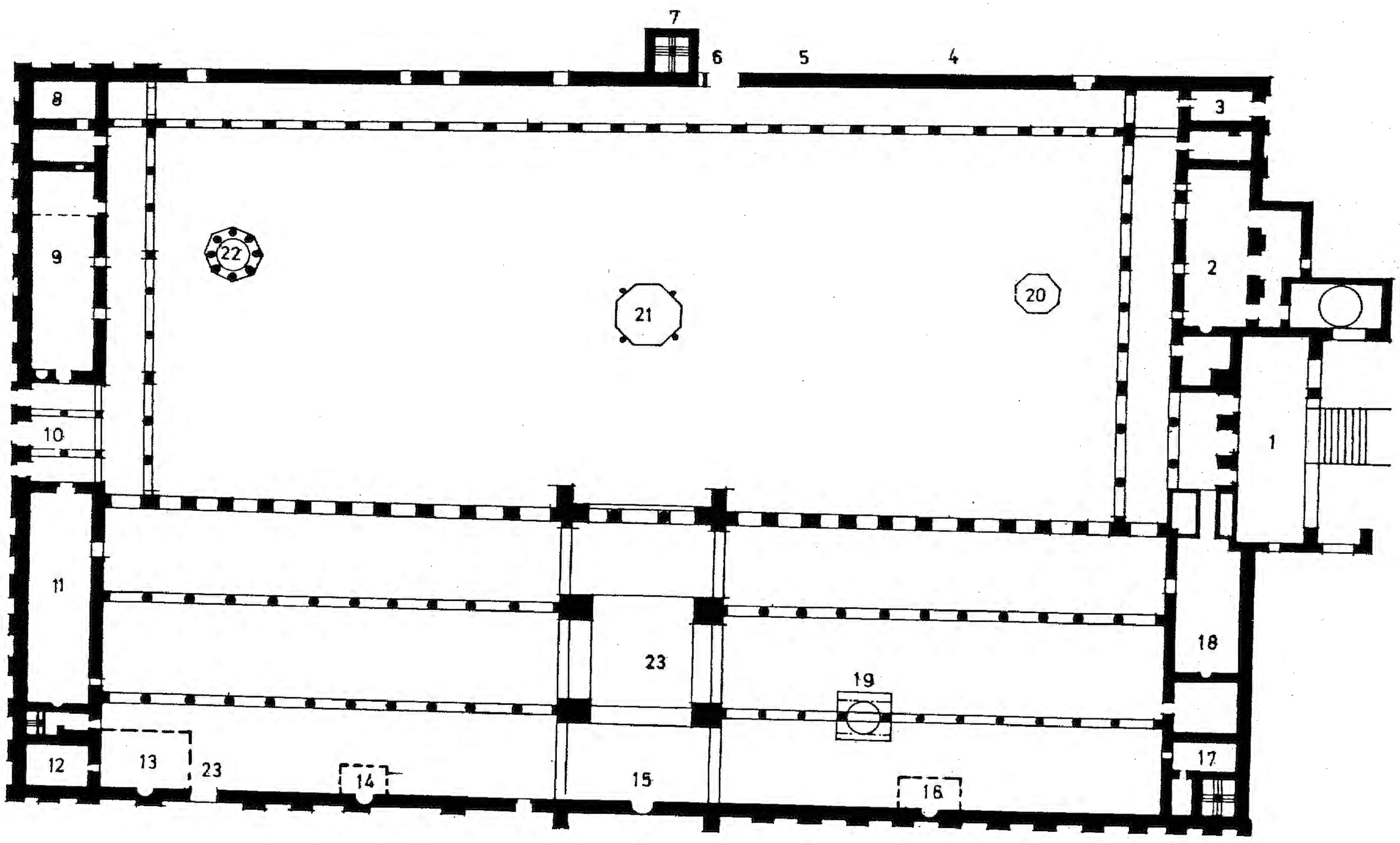

٣٧ — اقسام الجامع الكبير وتوابعه .

١٢٥ ....لوحة فسيفسائية في أروقة الصحن .
١٢٦ـــ١٢٧ ....زخارف فسيفسائية .
١٢٨ ....زخرفة زجاجية في المدخل الغربي .
١٢٩ ....عمود عليه كتابة بخط جميل.
١٣٠ـــ١٣١ ....الفسيفساء في قمة واجهة الحرم .
١٣٢ ....زخرفة سقف المدخل الغربي .

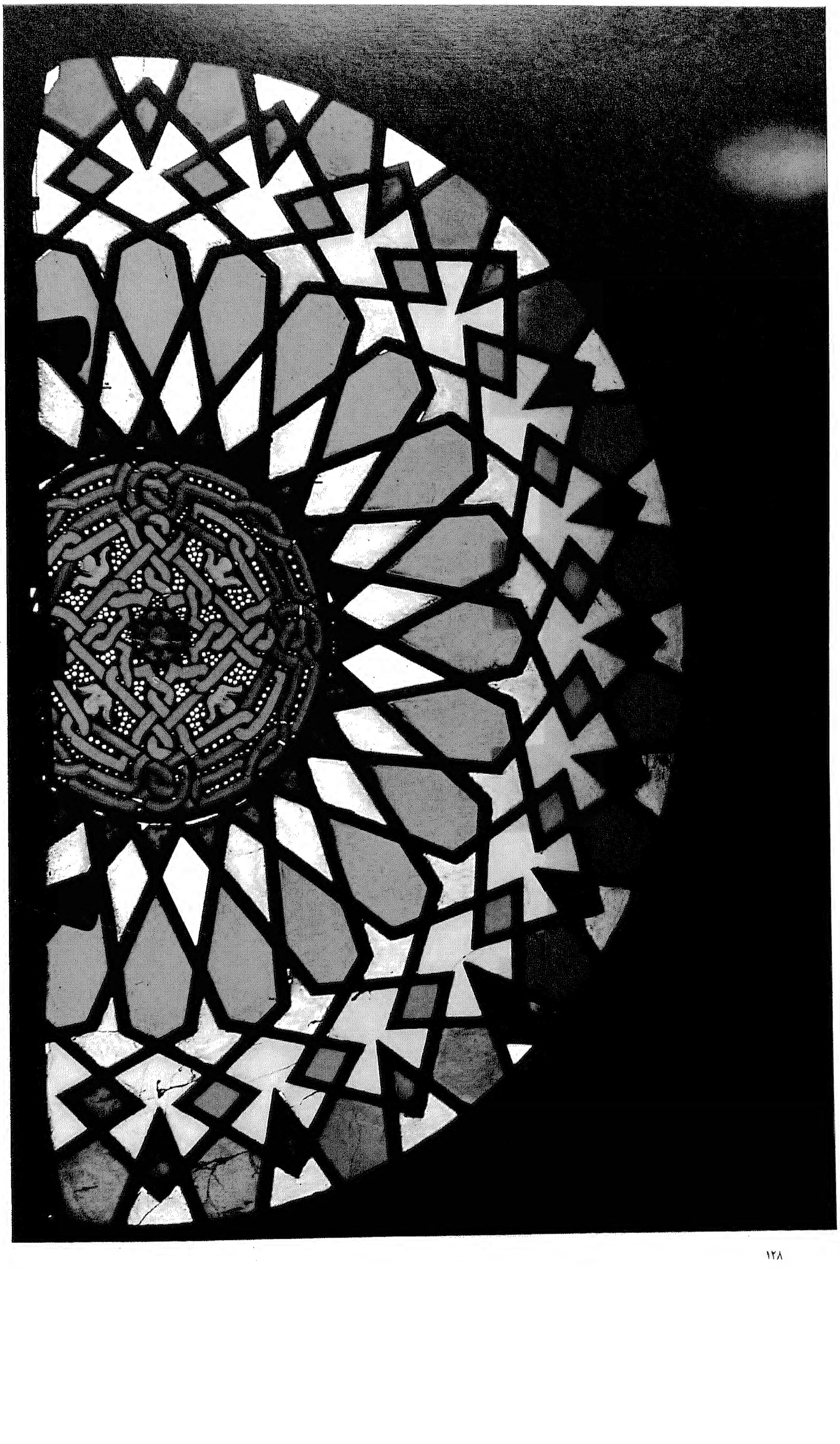

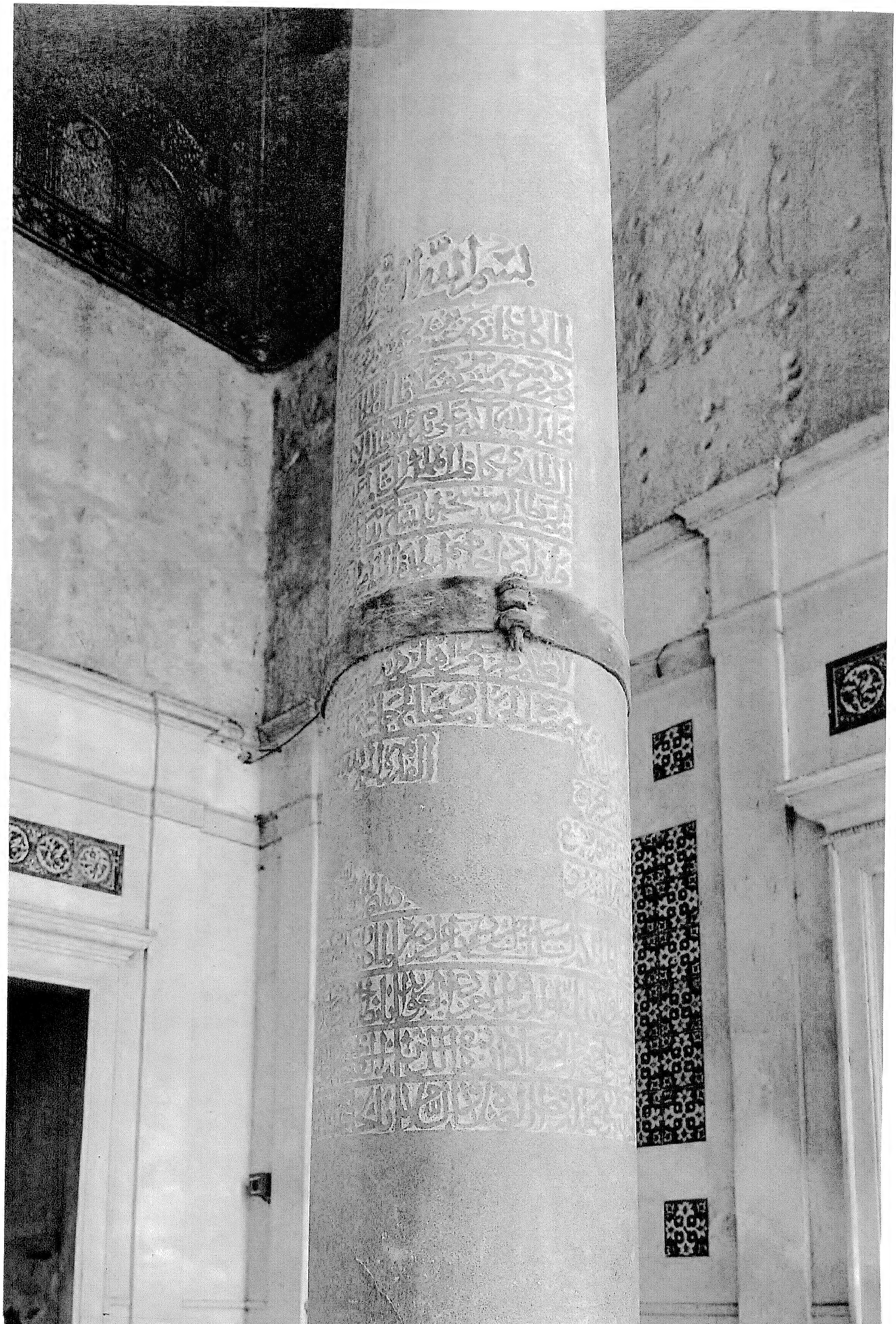

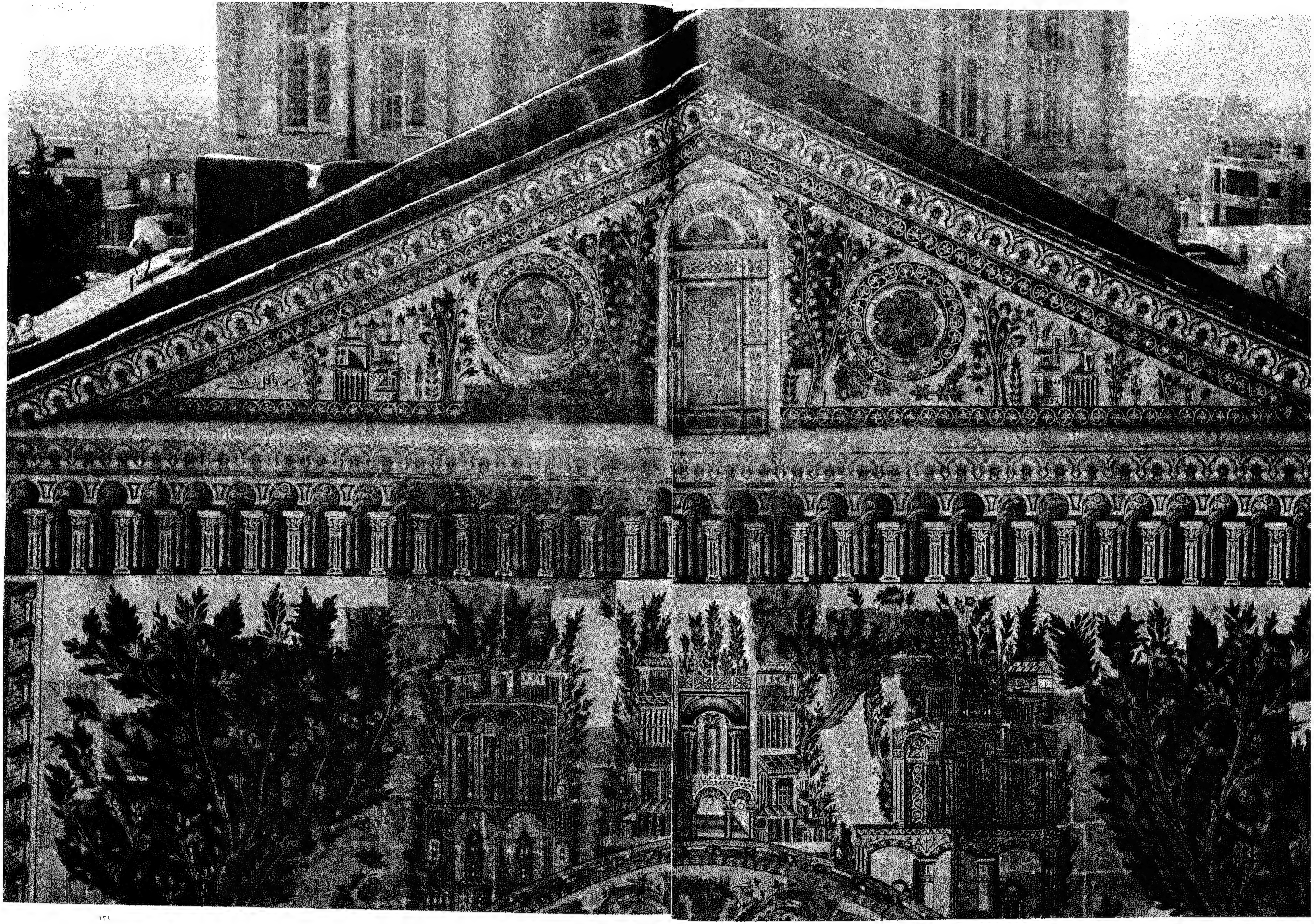

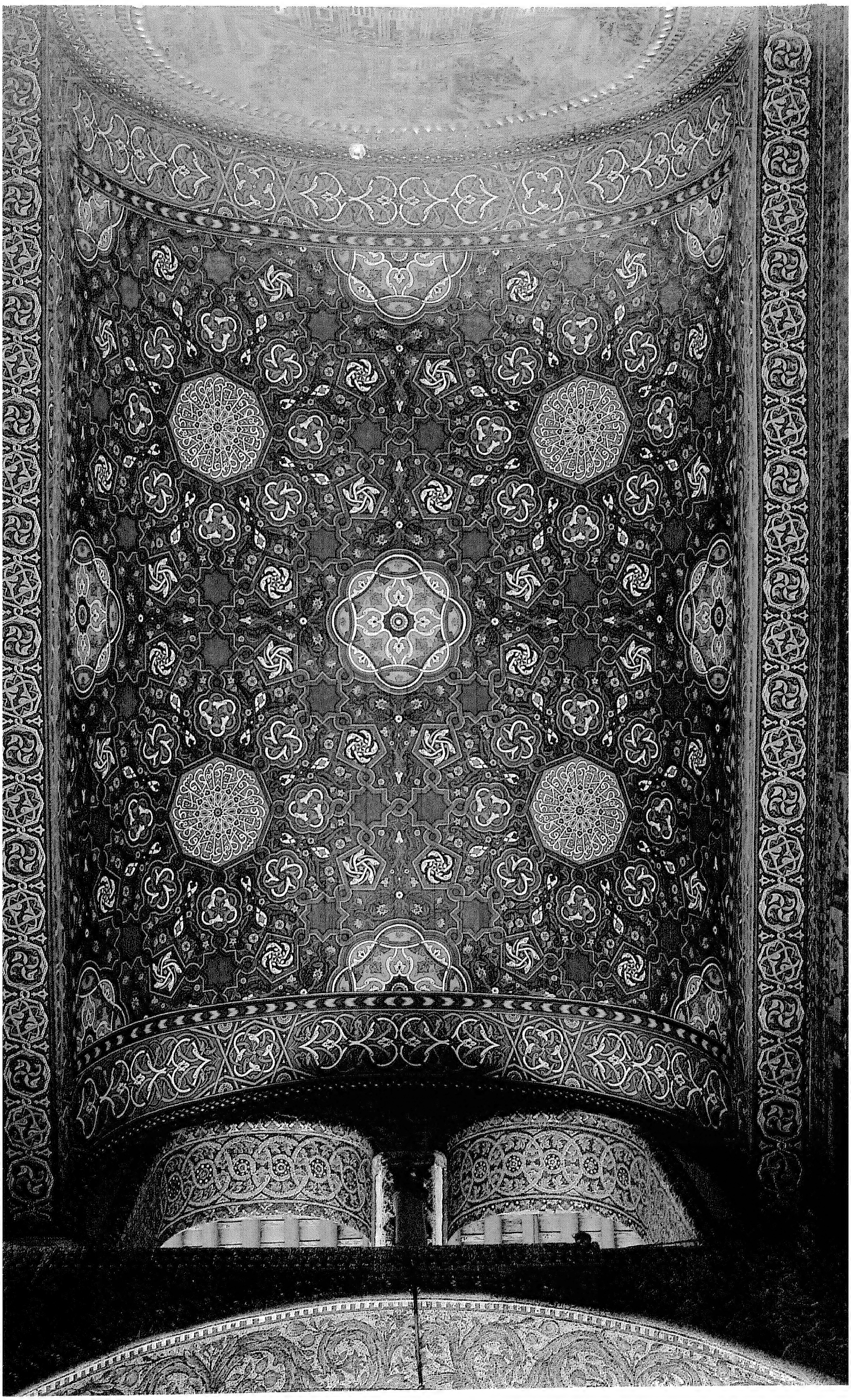

الفصل الخامس

الفسيفساء

- فن الفسيفساء في الجامع .
- صناعة الفسيفساء .
- ترميم الفسيفساء .
- مواضيع الفسيفساء .
- خصائص الفسيفساء الأموي .

الفسيفساء

فن الفسيفساء في الجامع الكبير

إن اروع مايمتاز به الجامع الكبير ، هو الكسوة التي جعلته آية في الفن والجمال ، لقد اهتم الأمويون وبخاصة الخليفة عبد الملك وولداه الوليد وهشام بتزيين الأوابد التي أنشأوها بآيات الفن من الفسيفساء وغيره . وروائع الفسيفساء في قبة الصخرة التي بناها عبد الملك ، وقصر خربة المفجر الذي بناه هشام وقصر المنية ، مازالت قائمة حتى يومنا هذا ،والوليد بن عبد الملك هو الذي أمر بتزيين جامع حلب الكبير بالفسيفساء لكي يكون على مثال مسجده في دمشق ، ولكن جامع حلب الأموي لم يعد له من أثر واضح . ولقد قام سكان دمشق بتقليد روعة فسيفساء الأموي في تزيين جدران قبة الخزنة فيما بعد ، ثم بتزيين مدفن الملك الظاهر في المدرسة الظاهرية ، بفسيفساء جميل يعتبر من أرقى ما صنعه الفنانون الدمشقيون من عمل فني يرقى إلى مستوى صناعة الفسيفساء في الجامع الكبير ، وثمة فسيفساء قليل في جامع تنكز من القرن الثامن الهجري وقبة محراب المدرسة الجقمقية من القرن التاسع .

وكان الخليفة المهدي أرسل صناعا من مصر والشام الى مكة لتزيين مسجدها في بداية القرن التاسع الميلادي ، وان عمال الشام هم الذين أصلحوا فسيفساء الجامعين في دمشق وفي القدس بعد كل كارثة تصيبهما .

ولقد تحدث المؤرخون عن الفن في الجامع الأموي معلنين عن روعة ماأنجز في هذا الجامع الكبير ، والواقع ان هذا الجامع كان رائعة القرون الوسطى ، ولم يقدم تاريخ الفن شاهدا فنيا أكثر روعة وجمالا من فنون الجامع الكبير ، ومن المؤسف ان هذا الجامع قد عانى من مصائب الدهر مالم يطقه بناء آخر فكان آبدة فعلا ، وآبدة خالدة . واستطاع الفنان الشامي أن يعيد لهذا الجامع الفن الذي يستحقه اثر كل زلزلة او حريق ، ولكن الأعمال اللاحقة لم تكن أكثر من ترميم ، ولم يكن هذا الترميم على مستوى العمل في بدايته .

واذا أردنا ان نتعرف على فسيفساء الجامع الكبير كان لابد أن نعرف أولا أن هذا العمل كان من الضخامة ، أنه غطى جميع سقوف وجدران الاروقة وجميع بطون الأقواس والدهاليز والأقسام العليا من الحرم بعد ارتفاع سبعة أمتار ، بل ان بعض أرض الحرم كانت مغطاة بالفسيفساء أيضا .

وذكر المقدسي « ان حيطانه الى قامتين بالرخام المجزع ، ثم الى السقف بالفسيفساء الملونة والمذهبة في صور أشجار وأمصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة» .

صناعة الفسيفساء

واذا كانت هذه المساحات الضخمة من الفسيفساء تبلغ مايقرب من ثلاثين الف متر مربع ، ويصل وزن أحجار الفسيفساء فيها الى ثلاثمائة طن ، فاننا نستطيع بهذا الحساب الاحتمالي أن نقدر الصعوبة في الحصول على هذه الكميات الضخمة والجهد الذي انصب لانجاز هذه المساحات الضخمة من الفسيفساء . ومما لاشك فيه أن كمية بهذه الضخامة لايمكن أن تستورد من خارج البلاد ، لصعوبة النقل من مساحات بعيدة كبيزنطة ، ولان العلاقات السياسية لم تكن على المستوى الذي يسمح بتبادل الخدمات . بل ان صناعة الفسيفساء الزجاجي كانت معروفة في بلاد الشام ، ولكن من المحتمل أن صناع الفسيفساء كانوا بحاجة الى بعض الألوان التي يصعب صنعها ، وبخاصة الذهبي او غيرها ، وكانوا يحصلون عليها اما عن طريق الاستيراد أو بدفع المحاربين أن يحصلوا من الأراضي المحتلة على مايعثرون عليه من أحجار الفسيفساء ، وهذا ماورد فعلا على لسان ابن عساكر والمقدسي .

وفي عام ١٩٥٩ لم يكن صعبا عند ترميم فسيفساء الجامع الكير من صنع أحجاره محليا بكميات ضخمة . لقد قام بتنفيذ هذ المساحات الواسعة فنانون مواطنون اذ ليس من المعقول ان يستورد العمال في ذلك التاريخ وفي ظروف الانتقال الصعب وظروف الحرب المستمرة مع الدول المجاورة ، أن يستورد العمال من بلاد فارس أو من بيزنطة ، لكي يعيشوا غرباء في دمشق مدة تسع سنوات ، أو أكثر فيما بعد في حلب ثم لتزيين الجامع في القدس ، ثم بعدها بعشر سنوات أو أكثر لإنجاز قصر هشام في أريحا والذي زُين بأروع الفسيفساء عام ٧٣٠ م . ان جميع الدلائل تبين إن المواطنين مسلمين او غير مسلمين هم صناع هذا الفسيفساء الواسع ، ولقد تأكد لاتنغهاوزن أن الفنانين الذين أنجزوا رسوم قصير عمره ، كانوا من المواطنين الشاميين ، يؤيد هذا الكتابات التي تركوها على الجدران

ولقد أثير سؤال يتعلق بهوية مصممي مواضيع الرسوم الجدارية في الجامع ، مما لاشك فيه أن هذا النوع من المواضيع وهذا الاسلوب من الفن التصويري كان شائعا في بلاد الشام قبل الاسلام ، ومن المقبول جداً ان يكون نفس المصممين والفنانين ، قاموا باعداد أصول هذه الرسوم تبعا لتقليد متبع ، ولكن الشيء الجديد في هذه الرسوم هو ابتعادها عن الرسوم الآدمية ، تبعا لكراهية التصوير في الاسلام على الرغم ان بعض قصور الامويين كانت حافلة بالصور الآدمية .

ان ضخامة العمل تؤكد ان التكاليف التي تحدث عنها المؤرخون كانت صحيحة ، فلقد ذكر المقدسي أن العمل استغرق تسع سنوات ، وأنه أقصى ماانفق عليه أربعمائة صندوق في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار أي خمسة ملايين وستمائة دينار ذهبي . وذلك ما يعادل خراج الشام سبع سنوات فضلا عما أهدي للجامع من فصوص ورخام وآلات . ويقول ابن جبير كما ذكرنا ، انها بلغت احد عشر مليونا ومائتي الف دينار وان حساباتها نقلت على ثمانية عشر جملا .

ولقد استطاع الأثريون مثل دولوره وفان برشيم أن يتعرفوا على طريقة صنع الفسيفساء بعد أن كشفوا عن فسيفساء الرواق الغربي بازالة الكلسة التي وضعت لتثبيت الفسيفساء المفكك . ولقد كتب دولوره بحثا عن المواضيع ذات الشكل

المعماري (في مجلة سيريا) ، كما تحدثت فان برشيم في كتاب كريزويل عن المواضيع الزخرفية فوصفتها بدقة وتحدثت عن الفن والصنعة فيها .

ومن المؤسف ان مساحات ضخمة من الفسيفساء قد انهارت بعد حريق عام ٤٦١ هـ وذكر ابن كثير « وكان جميع ماسقط منه من الرخام والفصوص والأخشاب وغيرها مودعا في المشاهد الأربعة حتى فرغها من ذلك كمال الدين الشهرزوري في زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي » .

ترميم الفسيفساء

في كل مرة كان المسجد يصاب بحريق أو زلزال ، كان الفسيفساء أول ما تعرض للتلف والسقوط ، ولكن زلزال عام ٥٥٢ هـ كان أشدها خطراً على الفسيفساء . يقول ابن القلانسي أنه سقط من فص الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادة مثله . ثم جاء حريق عام ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) الذي أتى على أقسام كبيرة من الفسيفساء فأسقطها ، ثم جمعت في صناديق أعيد استعمالها في عمليات الترميم بدءاً من عام ١٩٥٩ .

وقد تم ترميم الفسيفساء تباعا ، وقام نور الدين فعلا بعمليات الترميم ، يؤكد ذلك الكتابة الفسيفسائية الموجودة في واجهة الرواق الشرقي .

كما تمت عمليات ترميم أخرى في عهد السلطان صلاح الدين ٥٨٥ هـ ثم في عهد الملك الظاهر حيث رممت فسيفساء الحائط القبلي كما يروي ابن شداد . بالاضافة الى ترميم فسيفساء الحرم ويؤكد ذلك الكتابة الفسيفسائية التي مازالت قائمة ، وتبين ان ذلك تم على يد جمال آقوش النجيبي بين عام (٦٦٠ ــ ٦٧٠ هـ) .

ولم يستطع الحكام فيما بعد اعادة المنهار فجمعت الأحجار في صناديق استعلمت فيما بعد عام ١٩٥٩ .

ولقد كشف المرممون الاخيرون انه من الممكن للمرء ان يميز بين اقسام الفسيفساء التي تم اعادة تركيبها في هذه المحاولة ، وبين الأقسام الأموية الأصلية ، فلم تكن مثلها من حيث الجمال ودقة الصنع وفن الرصف وترتيب الألوان وانتقائها ، ويبدو ان فصوص الذهب لم تكن متوفرة فاستبدلت بفصوص من الحجر الحلبي ذي اللون الاصفر الفاتح ، ويلاحظ ذلك بوضوح وسهولة في الجدار القبلي من مدخل باب

البريد . كما أنهم لم يحرصوا على اعادة نفس الرسومات التي أتلفها الحريق والزلزال ، فأدخلوا في بعض الأقسام رسومات وزخارف جديدة ليست كالأصل . ولم يستعمل الصناع في هذه المرة نفس الطريقة التي استعملها الأمويون في تركيب الفصوص ، فقد تبين أن الصناع في عهد نور الدين ، قاموا بتركيب الفصوص على لوحات مصنوعة من الجبصين ومسلحة بأعواد القصب لتقويتها ، ثم عمدوا الى تركيب هذه اللوحات في مكانها المعد لها على الجدران .

ولقد تبين أثناء الترميم الأخير كما يقول المهندس قزيها « ان الصناع في زمن الوليد كانوا يغطون الجدران الحجرية بطبقة من الكلس الممزوج بالتبن وقشر القنب ، ثم تحزز سطوحها حتى لاتكون ملساء ناعمة ، وترسم الخطوط الرئيسية للأشكال والزخارف على هذه الطبقة بعد جفافها بسرعة ، ثم ترسم تفاصيل الرسوم عليها بآلة حادة قاطعة ، في الأقسام التي تحتاج الى دقة في الرسم ، وتغرس فيها الفصوص والمعجونة مازالت طرية ، ثم تغرس الفصوص التي تشكل أرضية اللوحة في المعجونة مباشرة بعد ان تمد شيئا فشيئا على الجدران بين الخطوط الرئيسية المرسومة سابقا على الطبعة الأولى . وهكذا تصبح الفصوص مغروسة بشكل متين ضمن مادة الجبصين القوية المتلاصقة مع الجدران وفي أعالي الجدران ، كان الصناع يغرسون فصوص الذهب والفضة بمستوى مائل عليها ، بشكل يواجه الناظر اليها من الأرض ، فتشاهد أشد لمعانا وتوهجاً . وقد شاهد العمال أثناء الترميم، قطعة فوق أحد الأقواس في مدخل باب البريد ، رسمت الرسوم فوق الطبقة الثانية من المعجونة بآلة حادة ولم يتم غرس الفصوص فيها ، وتركت هكذا منذ زمن الوليد الى أن تم فكها منذ سنوات مع الأقسام التي جرى ترميمها» .

ولقد قامت ورشات مديرية الأوقاف بترميم الفسيفساء وفق طريقة جديدة بعد أن استصنعوا فصوص الفسيفساء المماثلة للقديم . فيقوم العمال الفنانون برسم المواضيع على لوحات مشدودة من القماش ثم ترصف عليها الفصوص ، ويصب فوقها اسمنت مسلح بالشريط والحديد ، وبعد تصلب الاسمنت يقلع القماش عن الفصوص وكان قد التصق بواسطة الطحين والسكر والغراء ، ثم تحمل هذه الألواح لتعلق بكلاليب على جدران المسجد. ولاتختلف هذه الطريقة كثيرا عن الطريقة الأولى ، ولكنها أتت أكثر صلابة باستعمال الاسمنت المسلح .

مواضيع الفسيفساء

لقد وصف الرحالة والمؤرخون الفسيفساء الرائع فقال المهلبي عن فسيفساء الجامع « والحنايا والحيطان كلها الى حد سقفه منقوشة أبدع نقش بالفسيفساء الملون المدهون او المذهب بالفسيفساء . كتب في حائطه القبلي سور من القرآن بالفسيفساء المذهب في تضاعيف النقش » . ويذكرنا فاتزتغر ، ان فسيفساء هذا الحائط كان محلّى بكرمة تمتد على طول الحائط ويذكر ان صورة هذه الكرمة او مايشبهها نشرها سالادان في كتابه .

على أنه ليس من مصدر يساعدنا على استكمال وصف الفسيفساء الذي كان في أنحاء الجامع، ومع ذلك نستطيع من خلال ماتبقى من ألواح قائمة ، أن نتعرف على المواضيع التي صورت وعلى أسلوب الفن المتبع فيها .

تناولت المواضيع الفسيفسائية صور الطبيعة من بساتين وأشجار وأنهار جارية ومن بيوت بل مدن رسمت كما لو أنها قصور محصنّة عالية . ويرى المقدسي أنه « لا توجد شجرة ولا مدينة مشهورة لم تمثل على جدران المسجد الأموي » وهذا يعني أن المصور أراد ان يعبر عن مدى هيمنة الخليفة المسلم على عالم واسع الأرجاء . ويقول ابن شاكر ان الفسيفساء تمثل جميع البلدان المعروفة ومنها الكعبة . وثمة رأي أن هذه المشاهد انما تمثل دمشق بأنهارها وغوطتها وبساتينها وبيوتها . وهناك رأي آخر يرى أن هذه الصور تمثل الفردوس الموعود على غرار ماكان يجري في بلاد الشام ، ومما يتلاءم مع وصف القرآن الكريم للجنة .

« تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا » (١٠ الفرقان) — « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » (٧٢ التوبة) — « مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ، وعقبى الكافرين النار» (٣٧ الرعد) — « ألم تر كيف ضرب الله مثلا ، كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها

ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون» (٢٤ ـــ ٢٥ ابراهيم) .

وحسب هذا الرأي فان البيوت التي تظهر كالأبراج السامقة بين الأشجار وعلى ضفاف الأنهار ليست بيوتا واقعية ، بل انها رموز للقصور التي وردت في القرآن الكريم عند وصف جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومنها نرى ذكراً للماء والأشجار والصور .

وماصور الجامع الكبير الا مثال للمؤمنين لكي يذكروا عاقبة الصلاح والتقوى ، ونحن نميل الى الرأي الأول القائل بأن هذه المشاهد انما تعبر عن اتساع الدولة العربية التي كانت دمشق عاصمتها ، يقول ابتنغهاوزن «كان الأمويون أنفسهم يشعرون بأنهم قادة دولة قبل أن يكونوا دعاة دين ـــ وهذه الدولة تمثل آنذاك القوة المهيمنة على العالم . وهكذا يظهر ان الفسيفساء في جامع دمشق كانت تؤكد بأن العالم قد أصبح تحت درع الخلفاء ، وأنه قد دخل في (دار الاسلام) » . « فالامبراطورية العربية قد افتتحت العالم كله ، والآن وبتعاليم الاسلام حل العصر الذهبي او الفردوس ، في الأرض . ومن العسير على المرء أن يتصور دليلا أقوى أثرا لسلطة عالمية تمارسها دولة جديدة ، أكثر مما وجدناه معروضا في هذه الزخارف الفسيفسائية التي يضمها الجامع الرئيسي في العاصمة دمشق » .

على ان دراسة مواضيع الجامع الكبير ليست أمرا سهلا ، نظرا لأن ماتلف منها أكثر بكثير مما تبقى على الرغم من عمليات الترميم الواسعة التي تمت مؤخرا في الجامع باشراف من مديرية أوقاف دمشق . ولكن ماتبقى منها يؤكد الى حد بعيد الفكرة التي اسفرت حول الغرض من هذه الصور ، وهو التعبير عن ملكوت الخليفة كما ان الجامع يعبر عن ملكوت الرحمن .

ولابد من تصحيح الآراء التي تتجه إلى اعتبار صور المنشآت مجرد بنايات ، بل هي رمز لمدن مجمعة أو هي دول ، وأن بعض القصور انما يعبر عن العواصم التي أصبحت تحت سيطرة الخليفة . ولابد أن نذكر هنا صور الملوك الستة التي بدت على جدران قصير عمره الذي أكمل في عهد الوليد نفسه ، والتي تمثل ملوك الروم والقوط والحبشة وكسرى وامبراطور الصين وحاكم هندي . وهي تعبير عن سيطرة الخليفة على هؤلاء كما يقول ابتنغهاوزن .

خصائص الفسيفساء الأموي

الفسيفساء العربي الاسلامي متشابه في الجامع الكبير في دمشق ومسجد المدينة الذي بناه الوليد ومسجد حلب وقصور هشام في الشام وفي المفجر وفي قصر المنية الذي ثبت ان الوليد نفسه هو الذي أنشأه ، (اذ عثر مايدر فيه على لوح من المرمر يؤكد ذلك) .

ولقد تبين من تنقيبات مايدر وشنايدر ثم رينارد ١٩٣٦ — ١٩٣٨ في المنية ، أن في هذا القصر أقساما من القبة مغطاة بفسيفساء أخضر وأحمر وذهبي وفضي . وتبين أن جدران بهو القصر كانت مزينة الى ارتفاع مترين بالمرمر كالأرض ، وفي أعلى الجدران كانت الفسيفساء الزجاجية الهندسية والنباتية المحورة ، ويجاور البهو مجموعة من الحجرات فرشت بالفسيفساء الحجري .

وهكذا يبدو لنا ، أن الوليد بن عبد الملك الذي كان قد تابع بناء المسجد الأقصى بعد أبيه ولعله هو وحده الذي تابع زخرفة المسجد بالفسيفساء ، وهو الذي أمر بتزيين الجامع الكبير دون شك ، قام بنفس العمل أيضاً في مسجد حلب ومسجد الرسول في المدينة الذي زين بفسيفساء زجاجي ، وبمواضيع مشابهة لمواضيع جامع دمشق حيث الأشجار والبيوت والأنهار كما يروي ابن حجر . فكان ازدهار فن الفسيفساء وفن تصميم هذه الفصوص في عهده ، فلقد استطاع أن يستفيد من عمال مهرة ومن مصانع تنتج هذه الفصوص ، ومن فنانين يصممون موضوعات هذه الفسيفساء التي تتجاوز مساحتها عشرات ألوف الأمتار المربعة .

ولقد اكتشف شلومبرجية أن قصر الحير الغربي الذي بناه هشام في بادية الشام كان مزينا بالفسيفساء ، لم يبق منه الا آثاره . اما قصر هشام في أريحا الذي اكتشفه هاملتون وبرامكي ، فانه حافل بالفسيفساء ذي الصيغ الهندسية او التشبيهية التي لاتختلف عن فسيفساء الجامع الكبير لا في مادتها ولا في أسلوبها وان أضيفت عليها صور حيوانات ونقصت عنها في عدم وجود الابنية .

نقول أن دراسة فسيفساء الجامع الكبير لايمكن أن تتم بمعزل عن دراسة الفسيفساء في المنشآت الوليدية الأخرى وفي منشآت هشام .

وأول مايلفت نظرنا عند مقارنة هذه الفسيفساء المختلفة ، هو أنها جميعها ، ذات أحجار زجاجية ، وهذا يعني أن هذه الأحجار انما صنعت في وقت واحد ولم تؤخذ من بقايا الفسيفساء القديمة التي كانت حجرية وذات ألوان محدودة ونادراً ماكانت زجاجية .

ثم ان التقنية التي اتبعت في رسم هذه الفصوص كانت واحدة ، مما يؤكد ان العمال كانوا أتباع مدرسة تقنية واحدة ، تدربوا في مشاغل واحدة ، وقد يكون أكثرهم أو المهرة منهم قد انتقلوا بأمر الخليفة ، من مكان الى آخر لتنفيذ اوامره .

والملاحظة الثانية ، هي أن جميع الموضوعات المنفذة في المساجد أو في القصور ، كانت قد تأثرت بالفكر الاسلامي الذي ينهي عن تصوير الكائنات الحية تبعا للحديث الشريف « يعذب المصورون الذين يضاهون بخلق الله » . ونحن نرى أن هذا المنع واضح جدا في المساجد ولكن التشبيه يبدو أحيانا خارجا على المنع في القصور سواء أكان التصوير فسيفسائيا او تلوينا أو كان نحتا حجريا ، وذلك لأن قصور الأمويين كانت على الغالب ، قصورا للراحة والمتعة وكانت بعيدة عن الناس وبعيدة عن رقابة المؤمنين . والملاحظة الأكثر أهمية ، أن أسلوب التصوير ، سواء أكان تجريديا او كان تشبيهيا يمثل الطبيعة أو يمثل الأبنية والمدن أو يمثل بعض الحيوانات ، بل والانسان ، فانه اسلوب واحد ينتمي الى مفهوم تصويري واحد ، وهذا المفوم يقوم على مبدأ التحوير في الشكل وعدم التقيد بالمنظور الرياضي والنسب البصرية ، وان المواضيع تعتمد على التخيل والذاكرة ، ونستطيع ان نتبين في هذا الاسلوب بداية ظهور مبادىء وفلسفة الفن العربي ، هذه المبادىء التي كانت موجودة في البلاد العربية منذ القدم ، واستمرت قائمة حتى عهود متأخرة ، نراها واضحة في فن الترقين كما يبدو عند الواسطي وفي المخطوطات الأخرى ، كما نجده في بعض المنمنمات .

ولقد كان التصوير المجرد الذي يعتمد على تأويل النباتات كالزهرة والورقة ، أو الذي يعتمد على الأشكال الرياضية الجوهرية ، بداية لما سمي فيما بعد بالرقش العربي « أرابيسك » .

ولابد أخيرا أن نميز في الفسيفساء العربي المبكر ، أغراضه المختلفة التي فرضتها طبيعة البناء .

ففي الجامع الكبير نرى صور الفسيفساء تحقق الغرض الذي أراده الوليد ، وهو التعبير عن عظمة الاسلام كدين ، ويمثل ذلك في ضخامة الجامع مما يفوق الكنائس التي مازالت قائمة في القدس ، ثم هو التعبير عن اتساع رقعة الاسلام كدولة امتدت حتى عهد الوليد فوصلت الى أقسام واسعة في الشرق حتى ايران والهند ، وفي الغرب حتى أوربا .

وكان على الوليد أن يعبر عن اتساع رقعة هذه الامبراطورية الواسعة في الجامع الكبير الذي كان يعتبر مركز سلطان الخليفة في العاصمة ، بل كان الجامع هو قصر الحكم والقضاء والسياسة ، وفيه كانت تتم جميع المراسم الكبرى . والأمر يختلف عن قبة الصخرة التي كانت مكانا مقدسا تبعا لقدسية الصخرة التي أقيمت القبة فوقها . ولهذا فان الصور الفسيفسائية كانت زخرفة تعبر عن الجمال المجرد ، الذي ينسجم مع قدسية بناء لايرتبط بأي شيء مادي .

أما القصور الأموية ، فلقد كان موضوع الصور فيها تزيينا زخرفيا ، فالأراضي هي زرابي مفروشة من فصوص الفسيفساء ، والجدران صيغ رائعة من أشكال النباتات ، وأرض الحمام صورة مستقلة لشجرة تفاح وتحتها أسد وغزلان .. وهكذا فان المواضيع المختلفة خدمت الى حد بعيد وظائف البناء المختلفة ، القصر والحمام ، ولم تكن مجرد كسوة ملونة ثمينة .

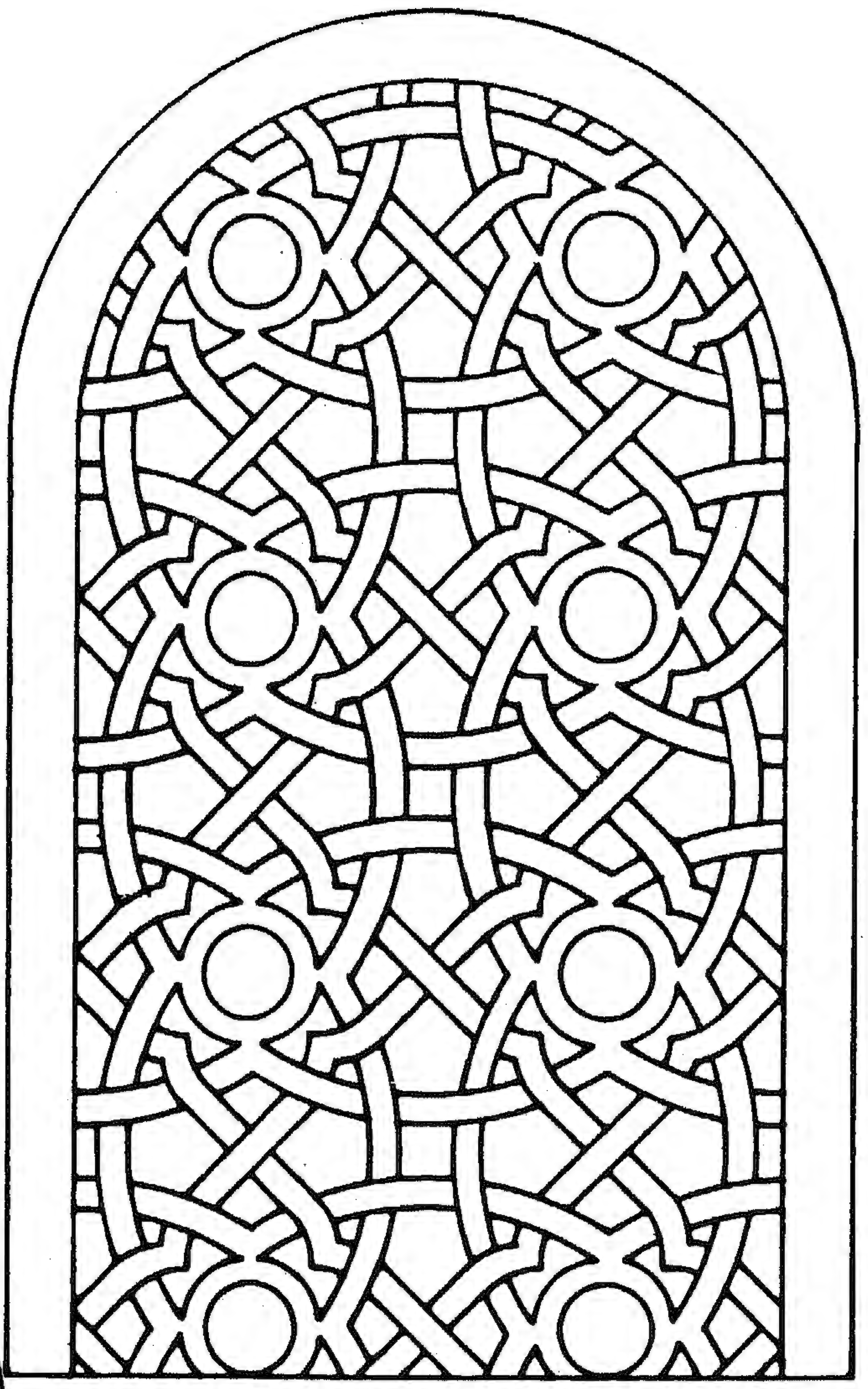

٣٨ ــ نافذة رخامية في اعلى جدران مشهد عثمان .

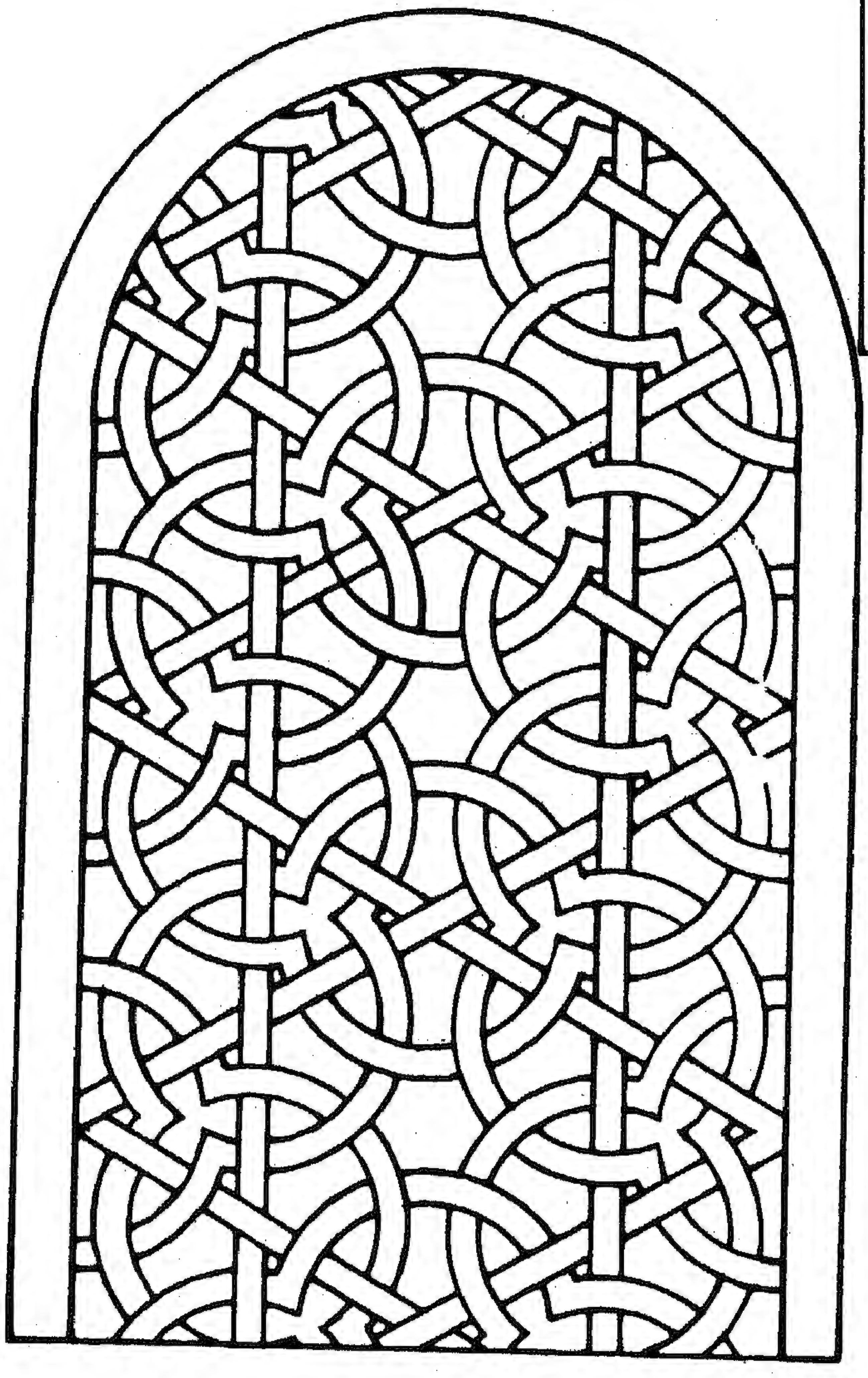

٣٩ ــ نافذة رخامية في اعلى جدران مشهد عثمان .

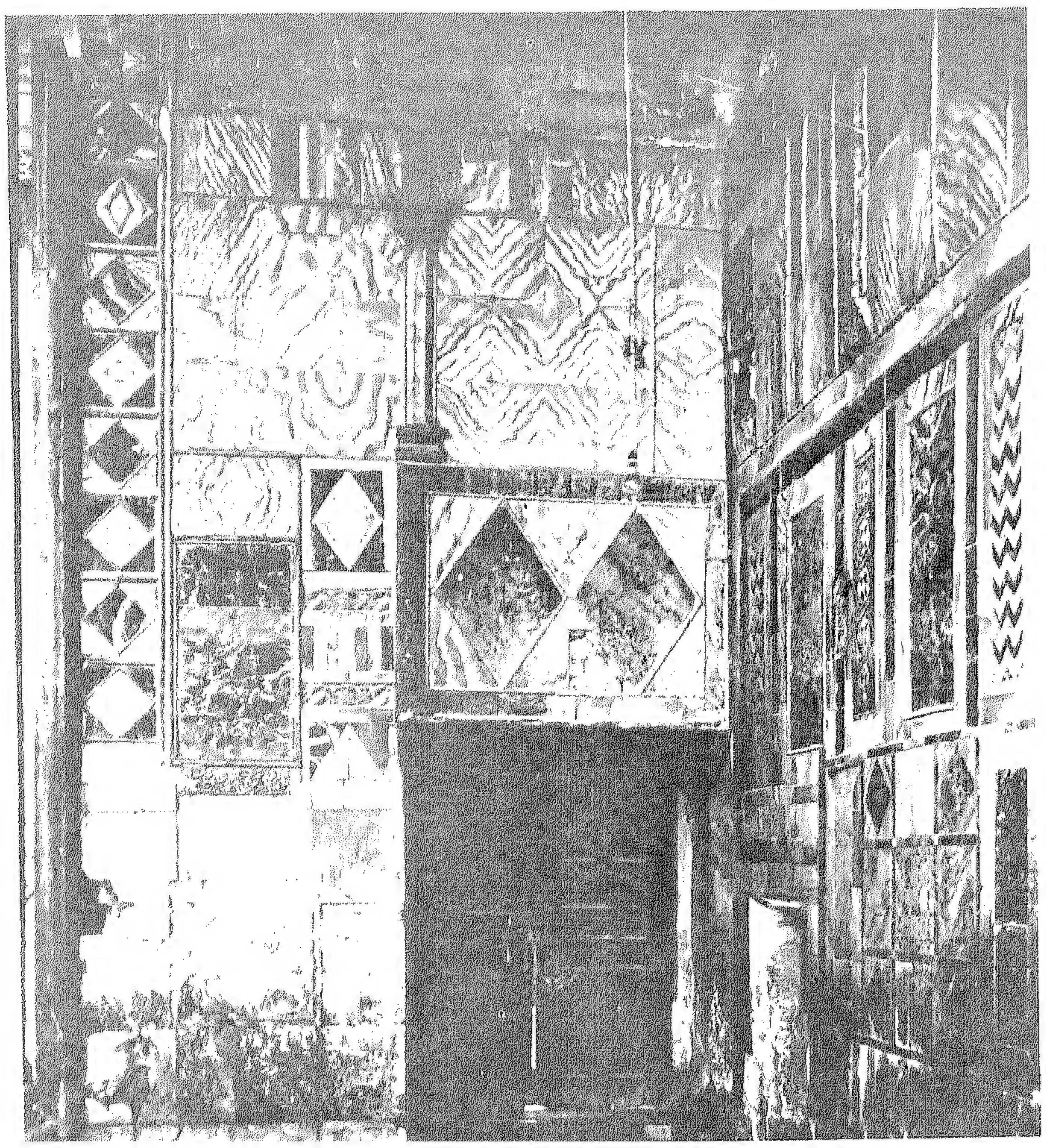

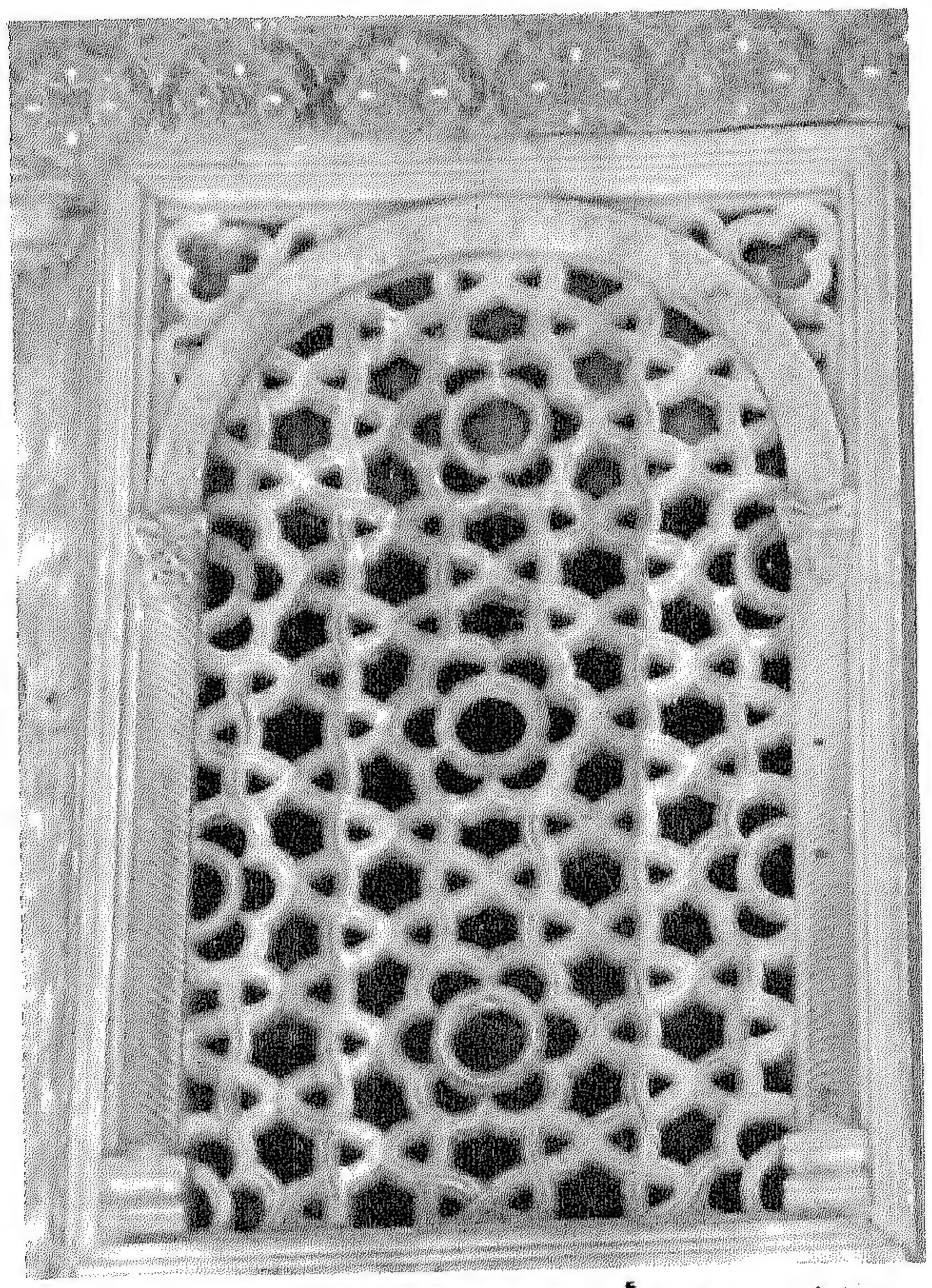

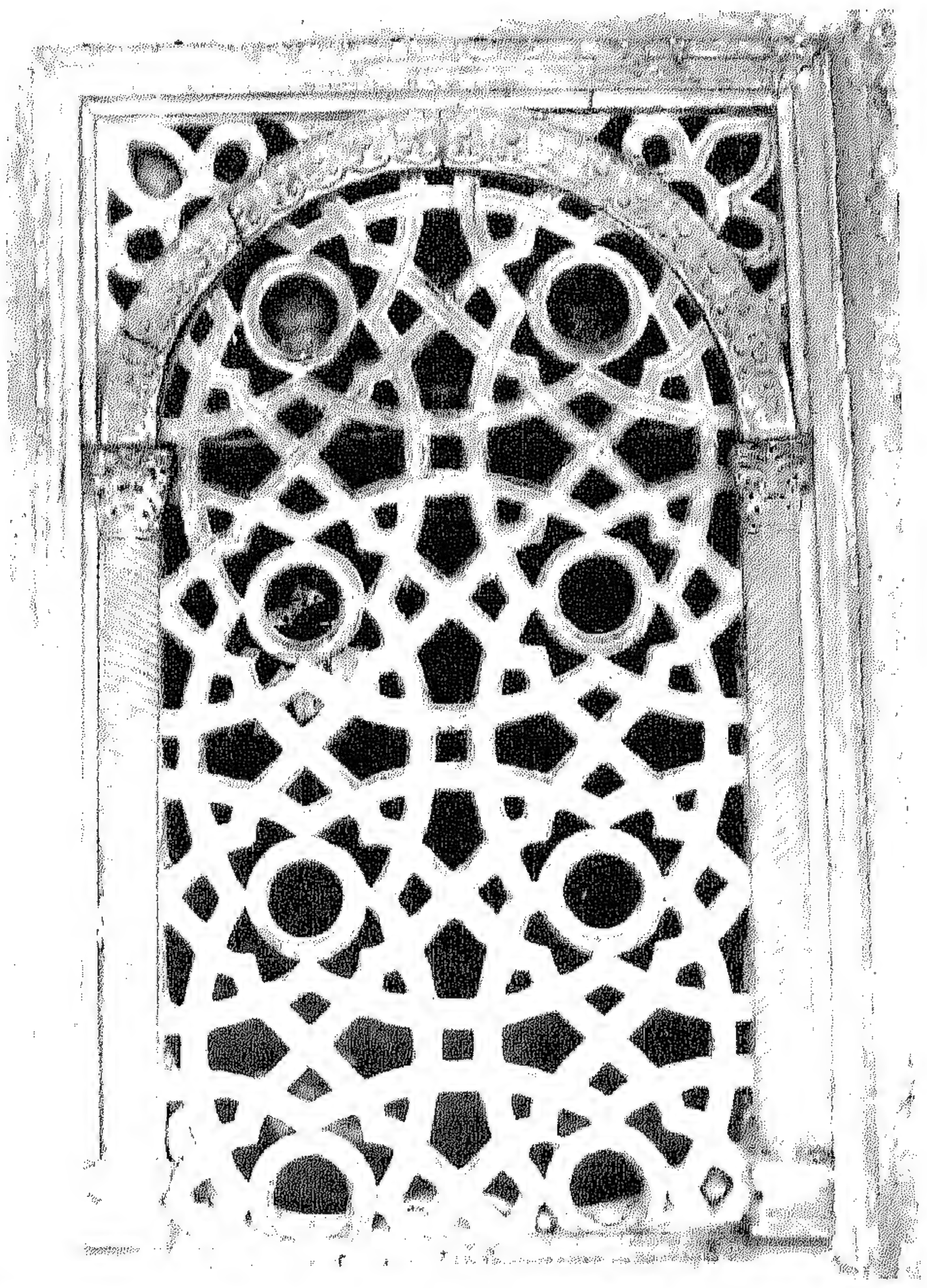

٤١ ــ زخارف رخامية أصلية في النوافذ المطلة على الباب . ٤٢ ــ زخارف جدارية أصلية في النوافذ المطلة على الباب الغربي .

١٤٩..........باب المنبر من الخشب المحفور والمنزل بالعاج .
١٥٠..........المنبر من الرخام المجزع والنافر .
١٥١..........باب خزانة الكتب في الجدار القبلي للحرم .
١٥٢ــ١٥٣..........الفسيفساء ــ مشهد الجسر والنهر .
١٥٤..........مقام النبي يحيى في الحرم .
١٥٥..........زخارف قيشانية على عضادة .
١٥٦..........المحراب وزخرفته الرخامية .
١٥٧..........النوافذ في الجدار القبلي فوق المحراب .
١٥٨..........فسيفساء أسفل الجبهة .
١٥٩..........المحراب والمنبر وزخارفهما الرخامية .
١٦٠ــ١٦١..........مشهد المدينة حول الجامع .
١٦٢..........النوافذ الملونة في الجدار الشمالي ــ الحرم .
١٦٣..........زخرفة طرفي المنبر .
١٦٤..........زخارف المدخل الغربي .

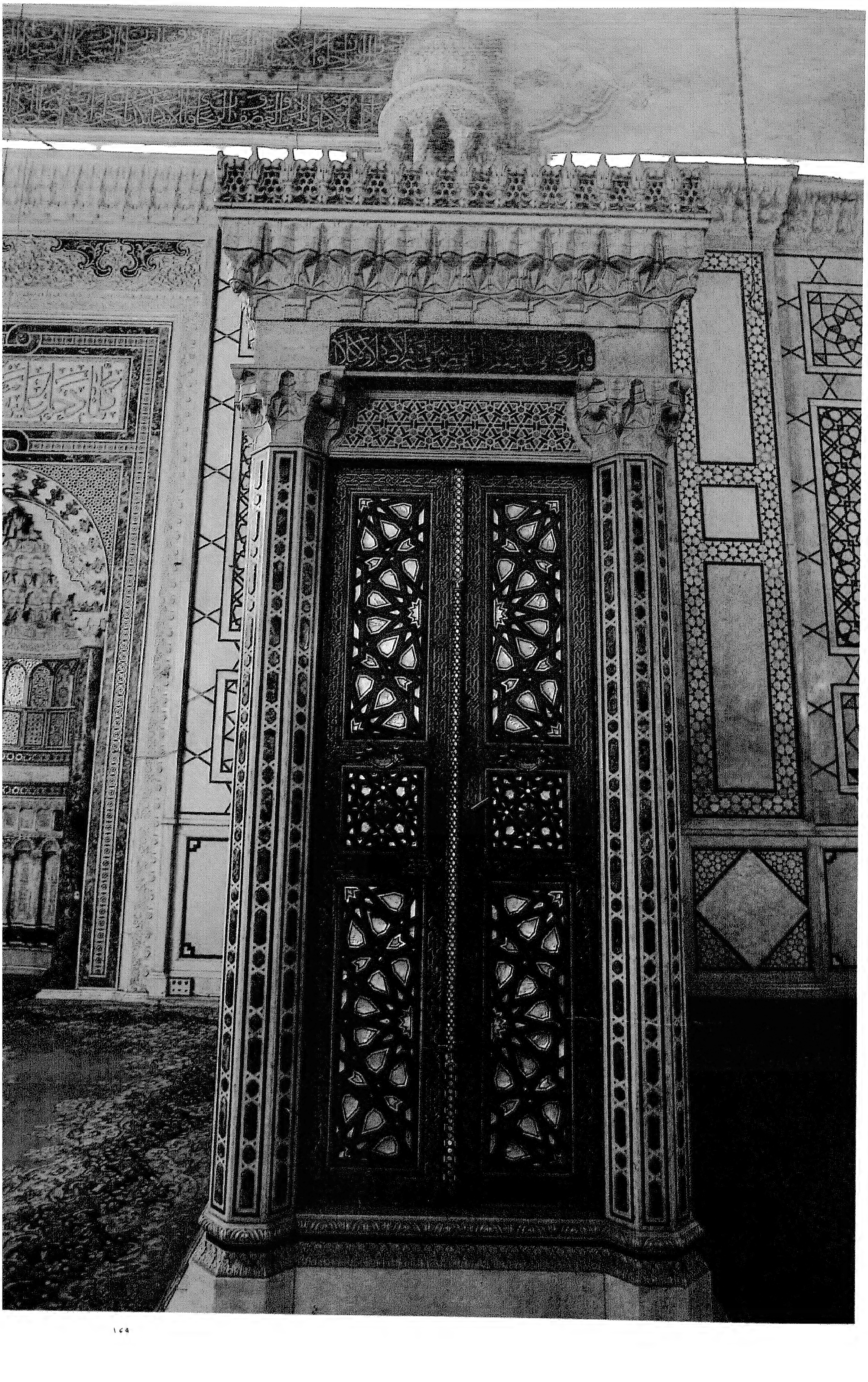

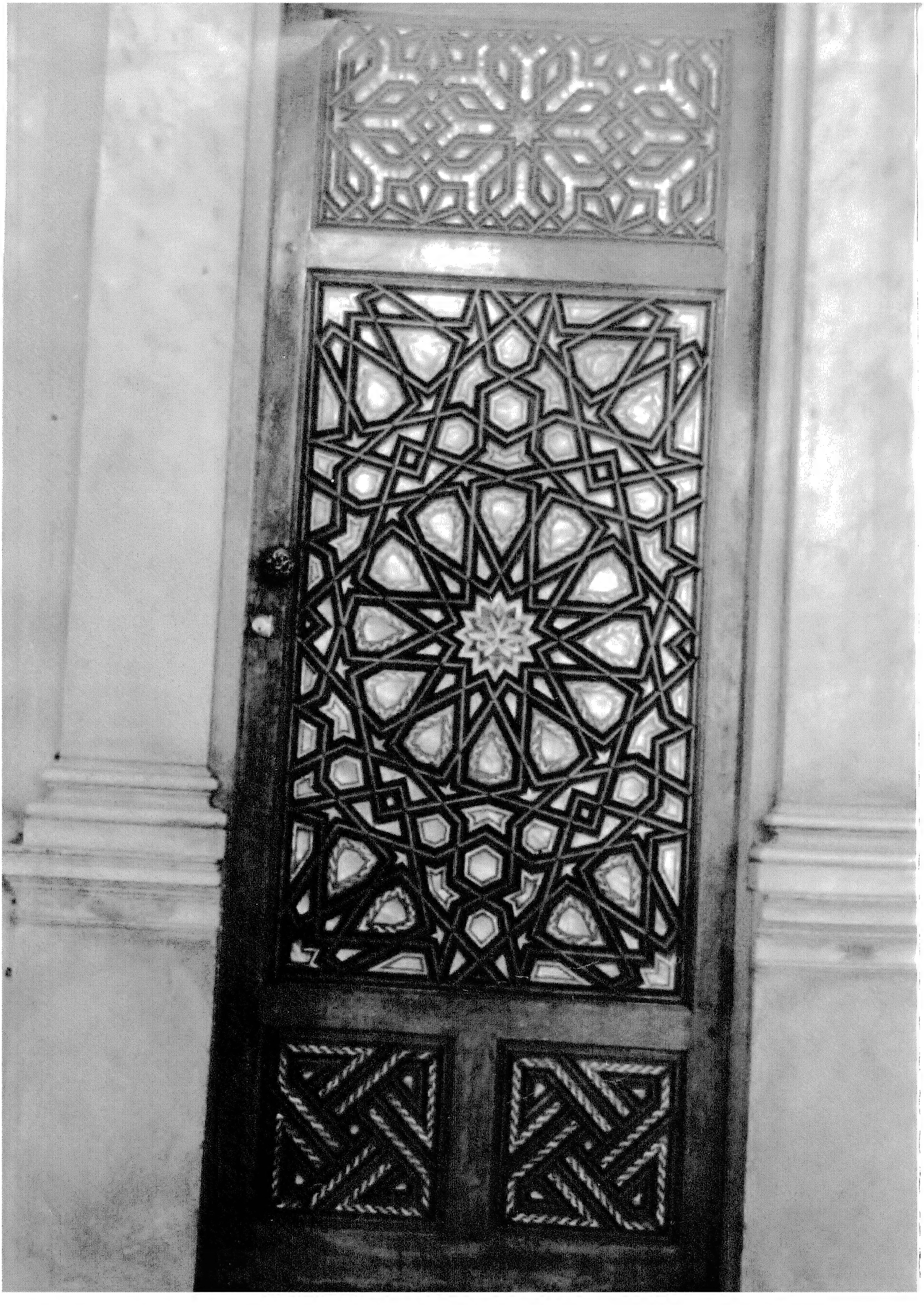

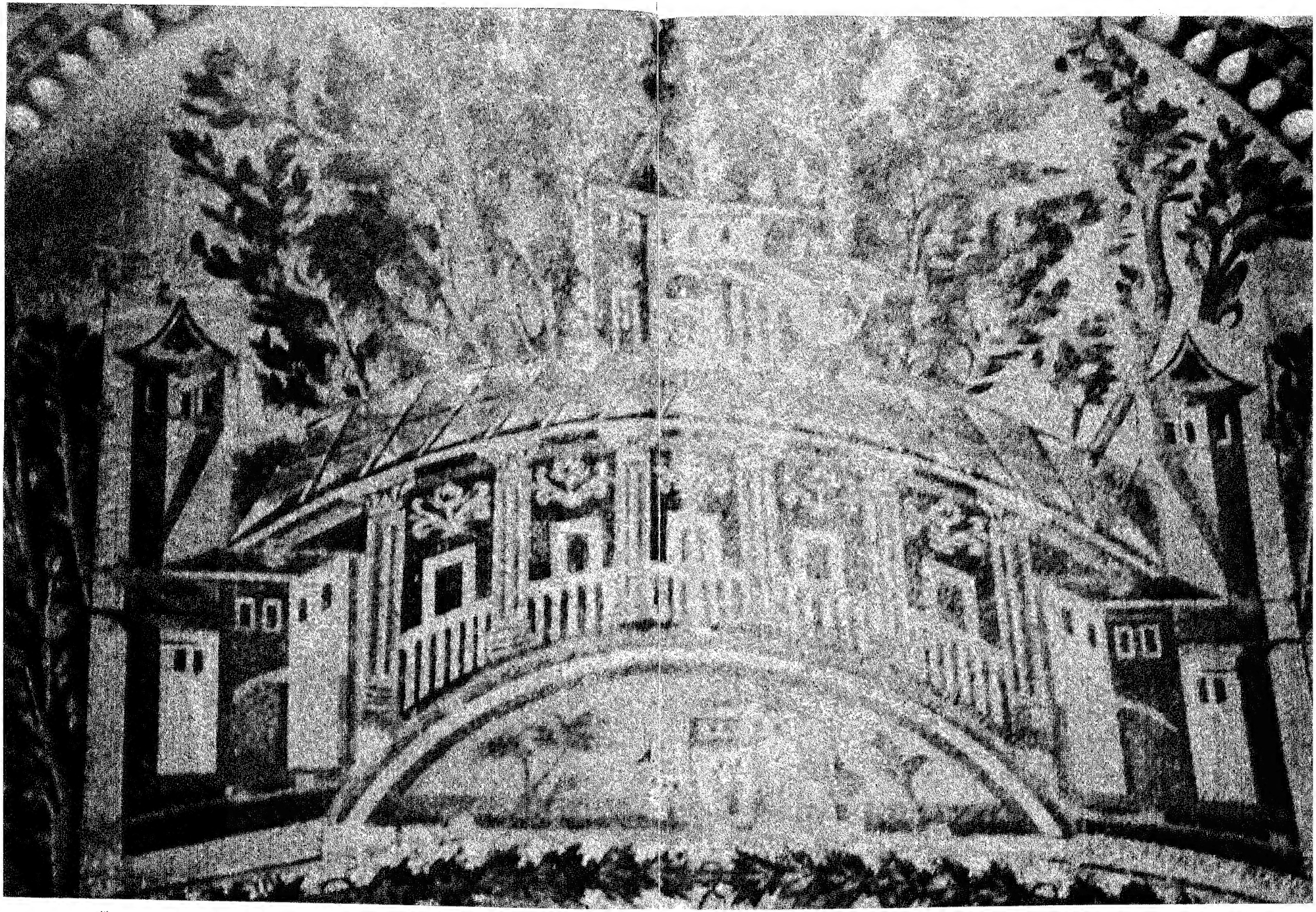

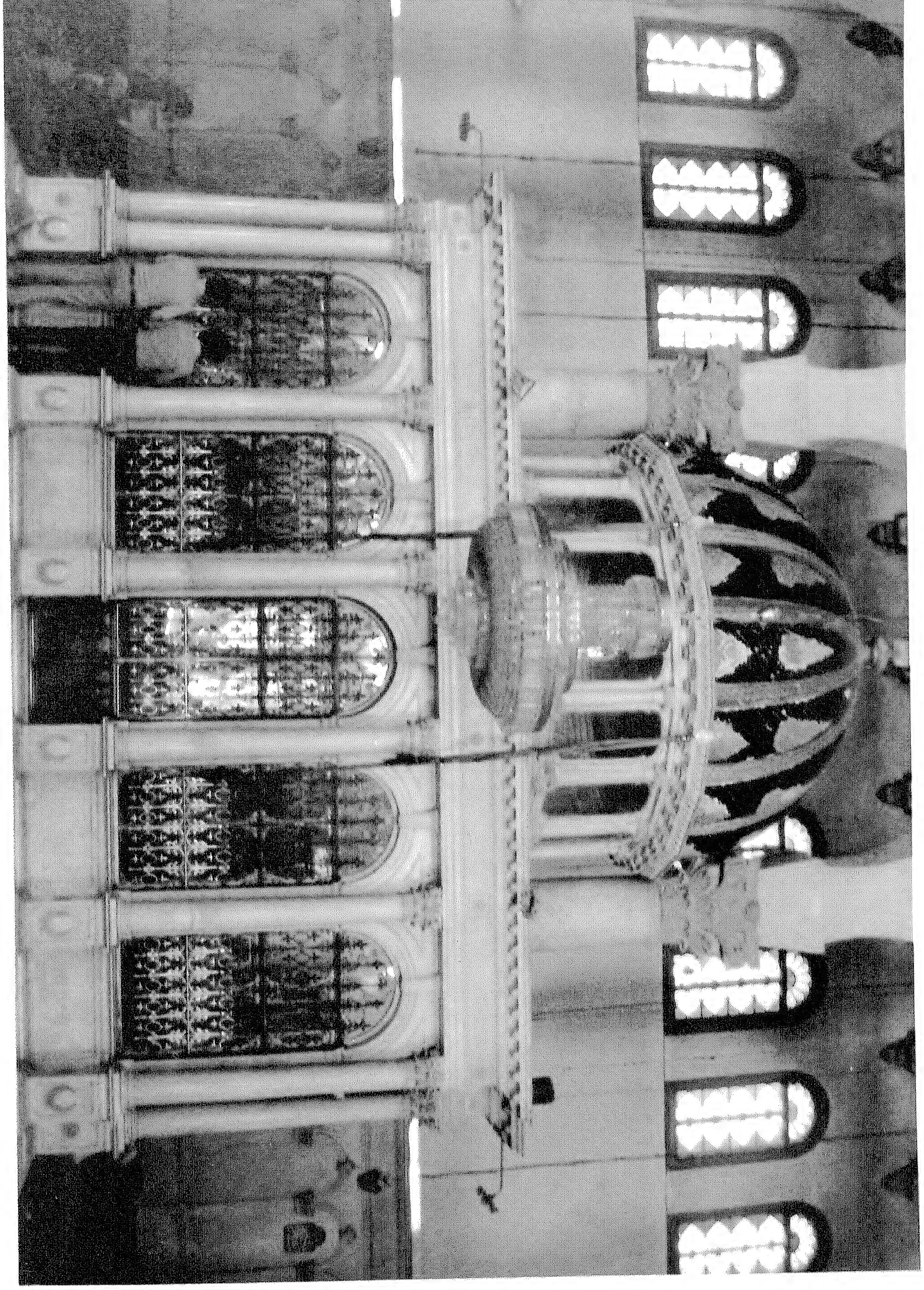

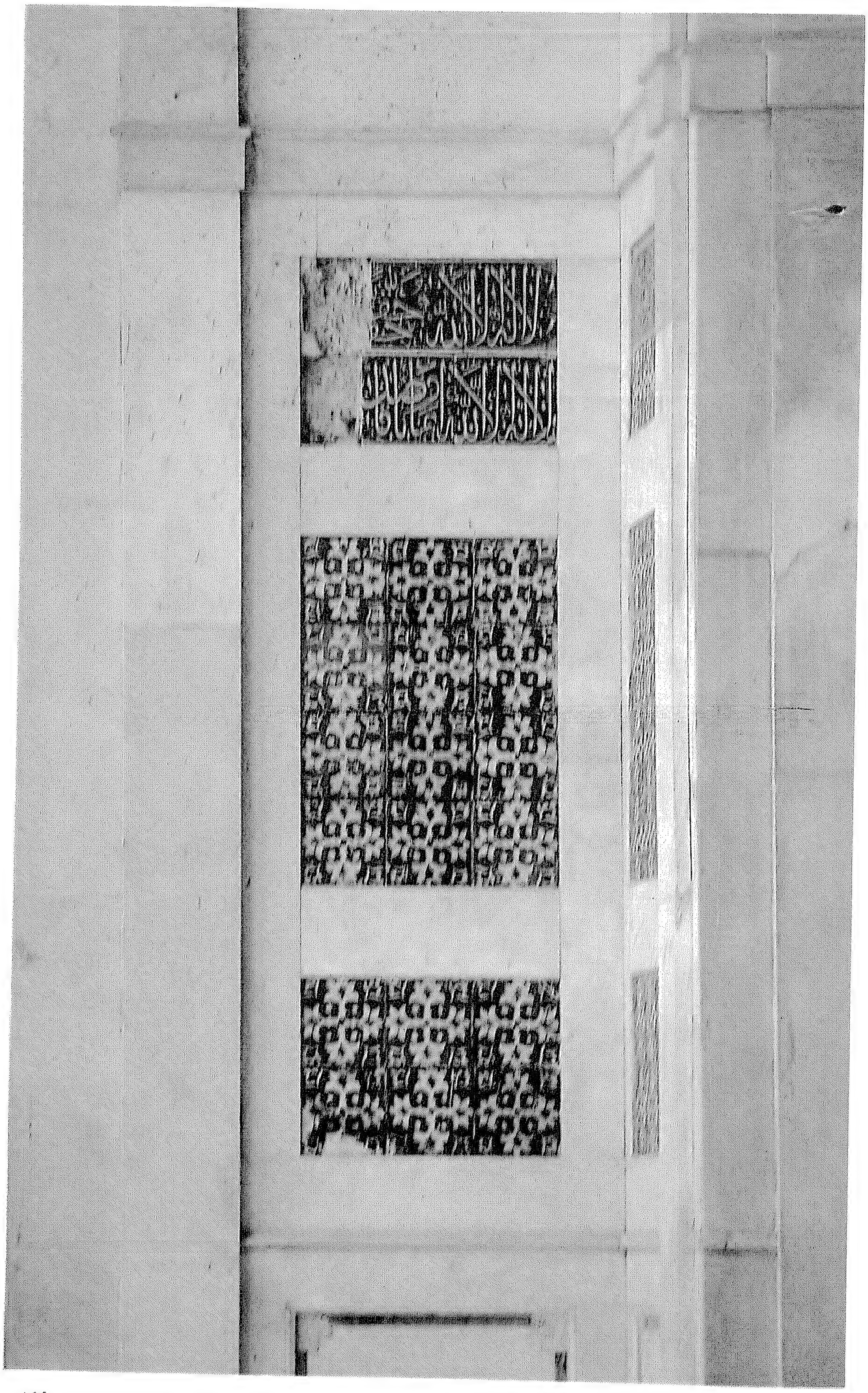

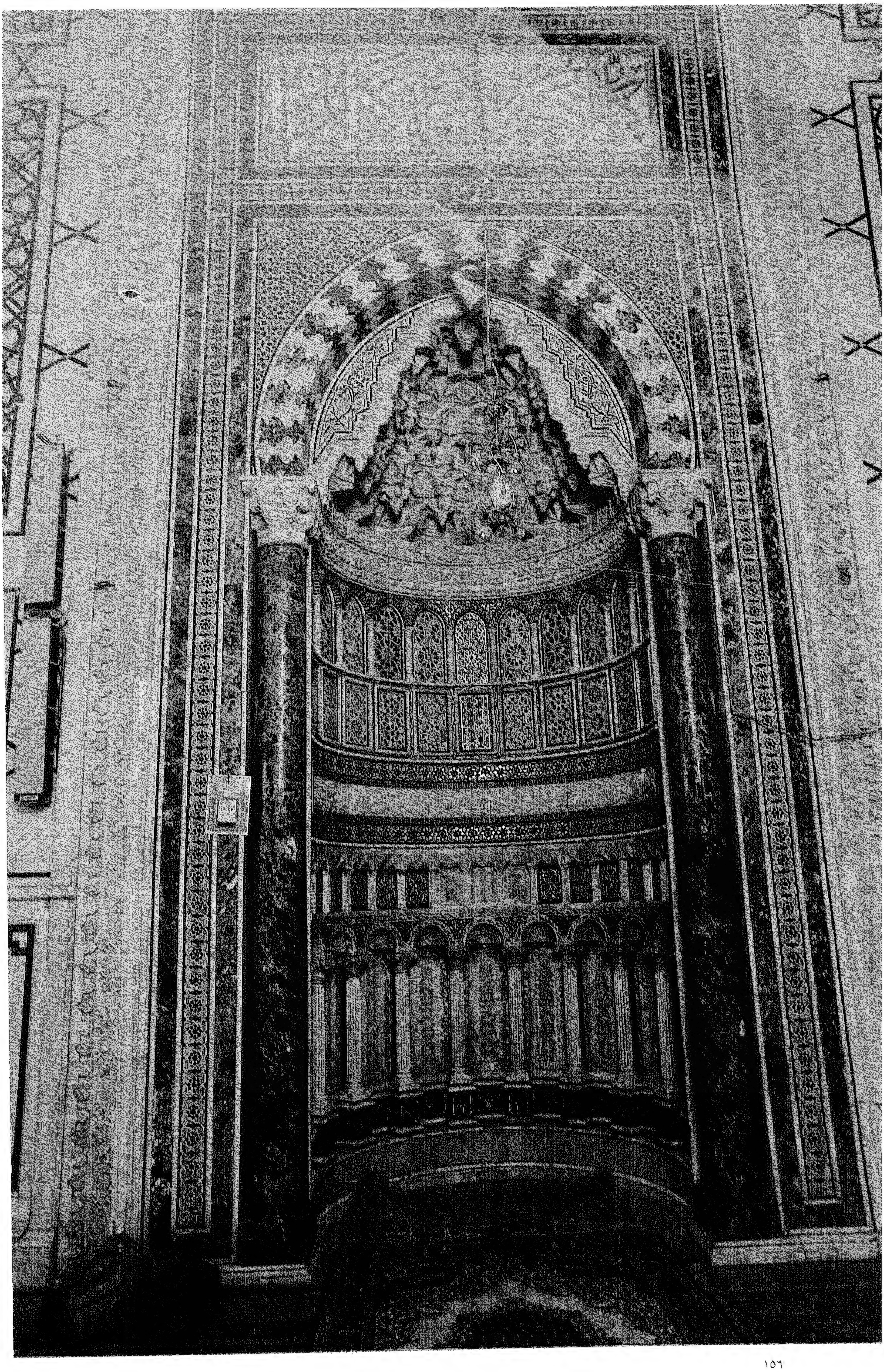

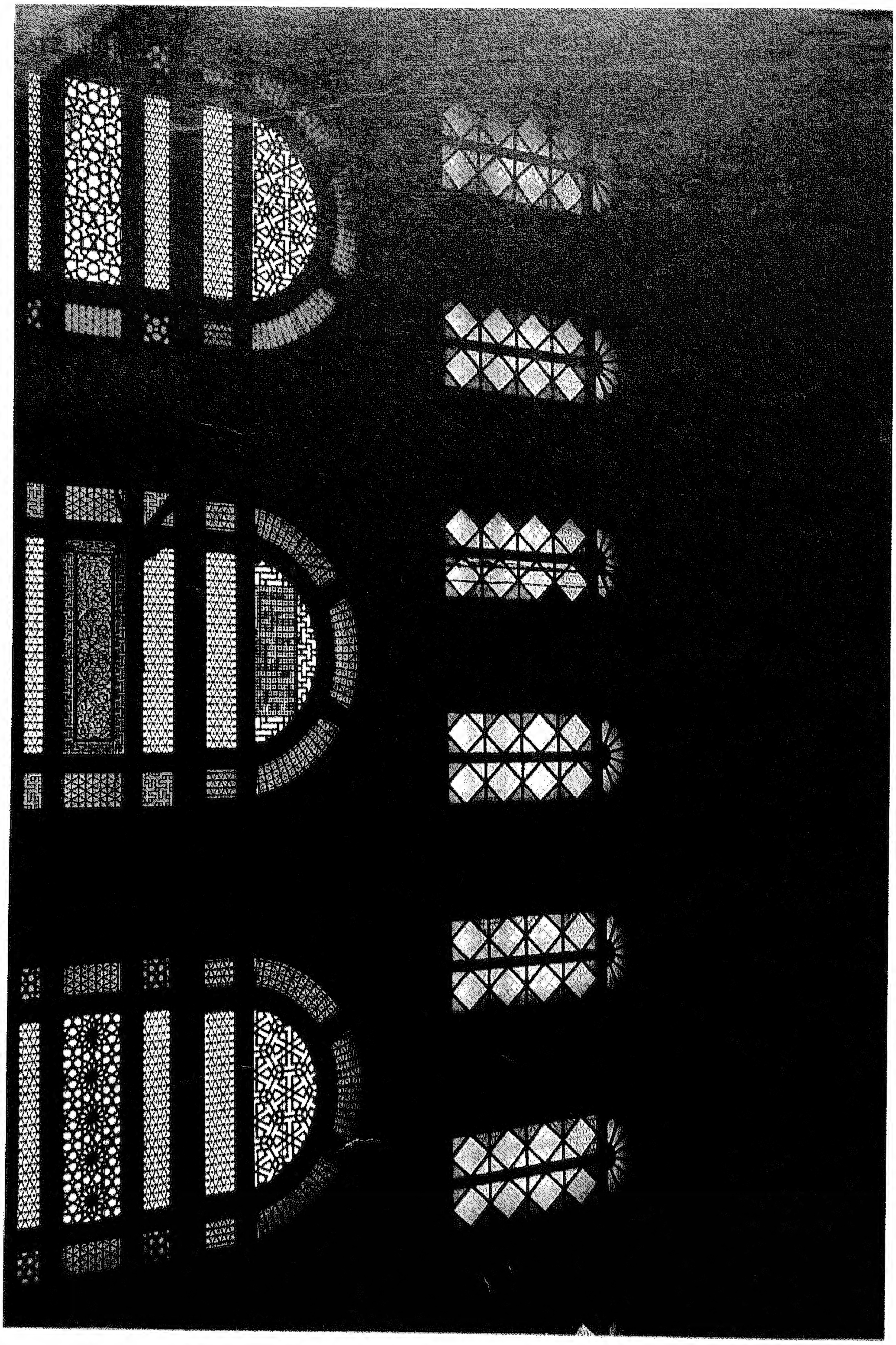

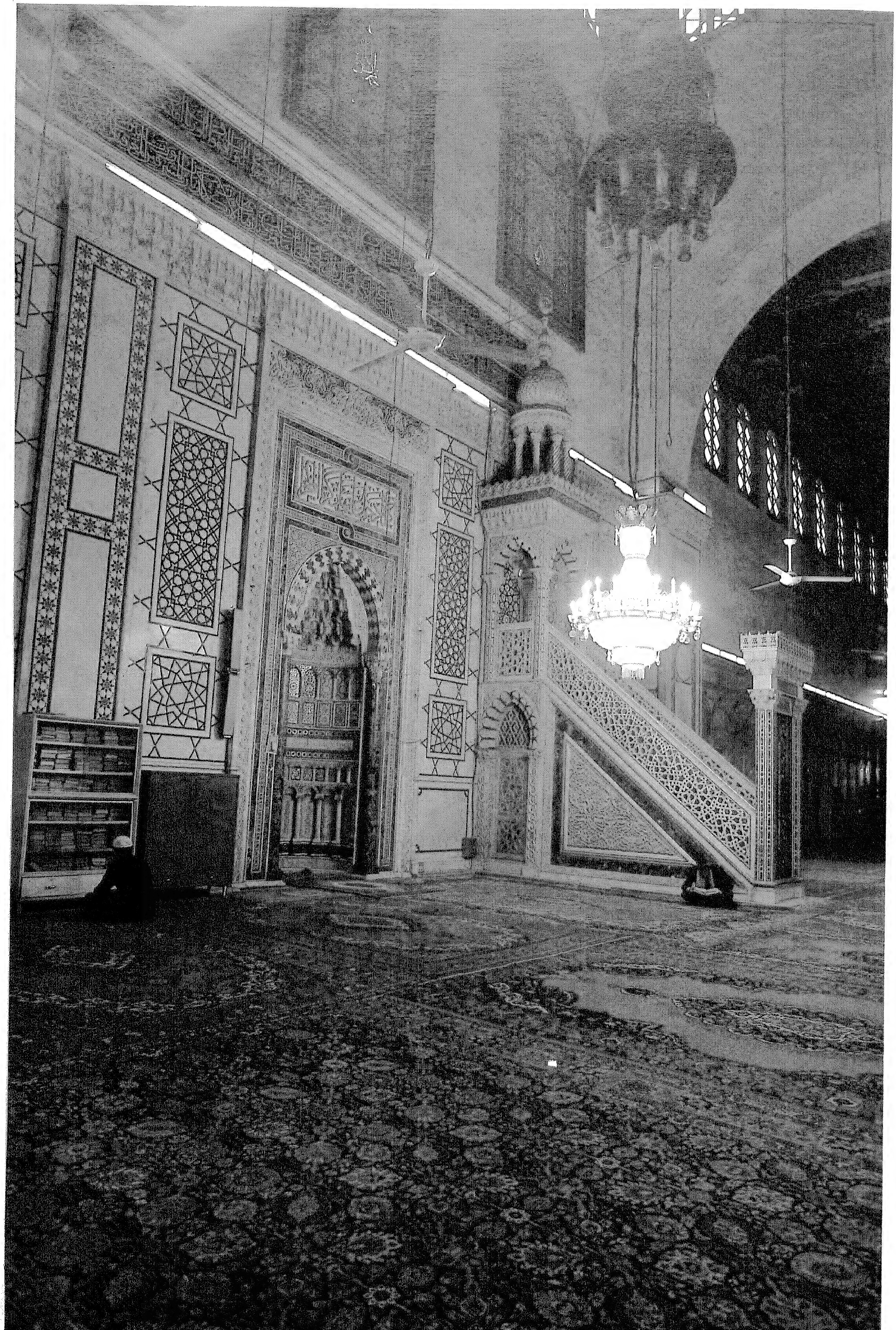

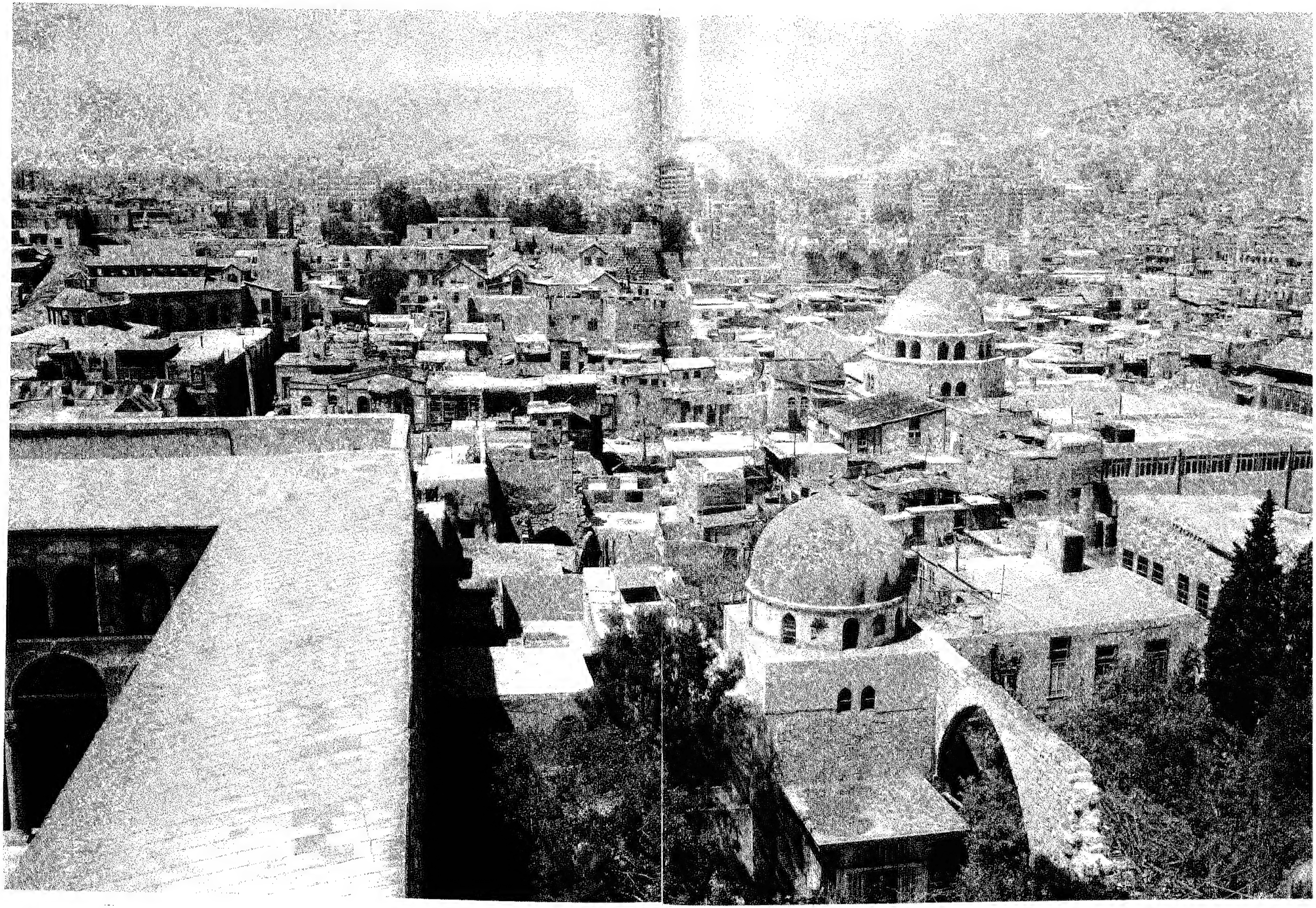

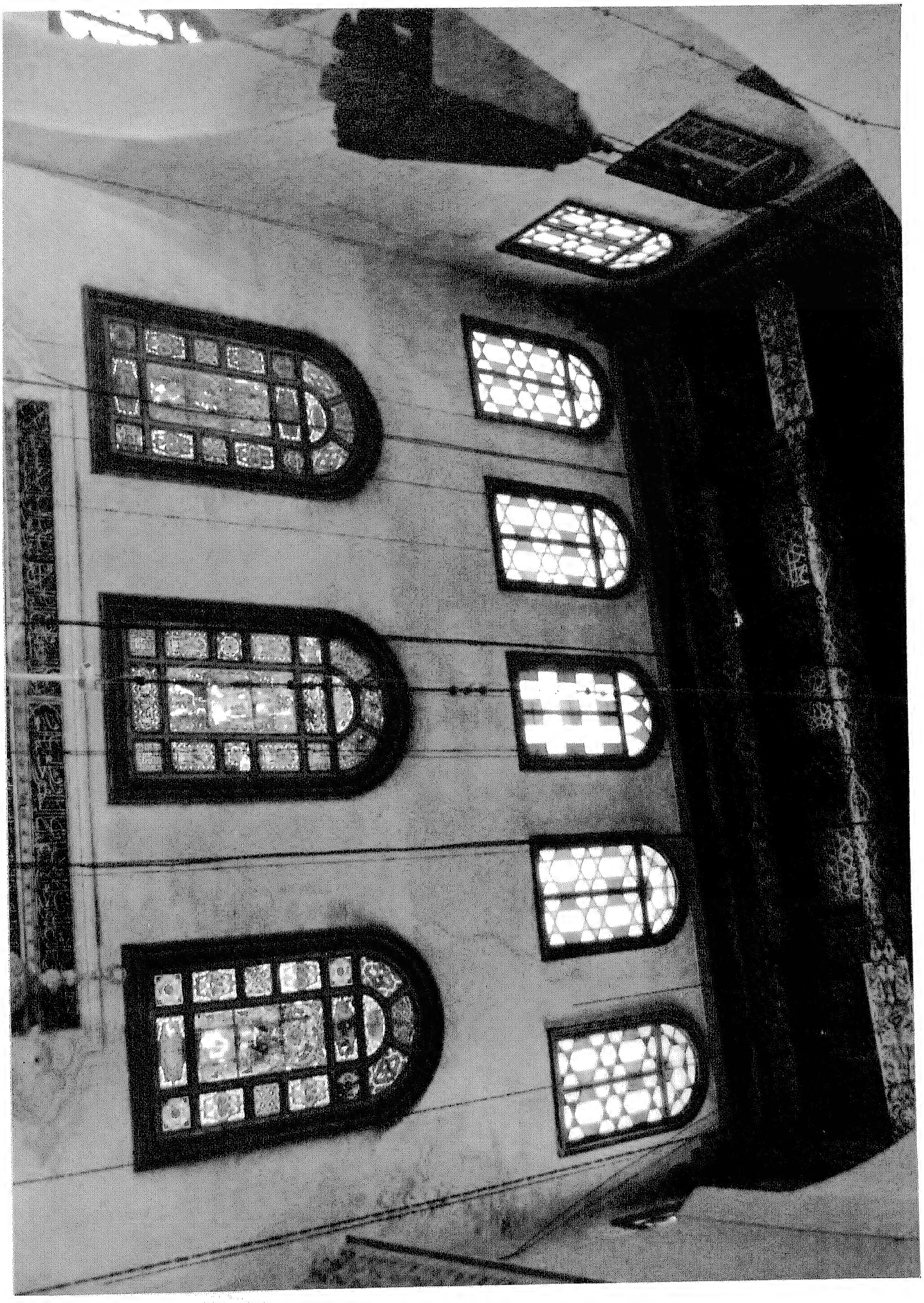

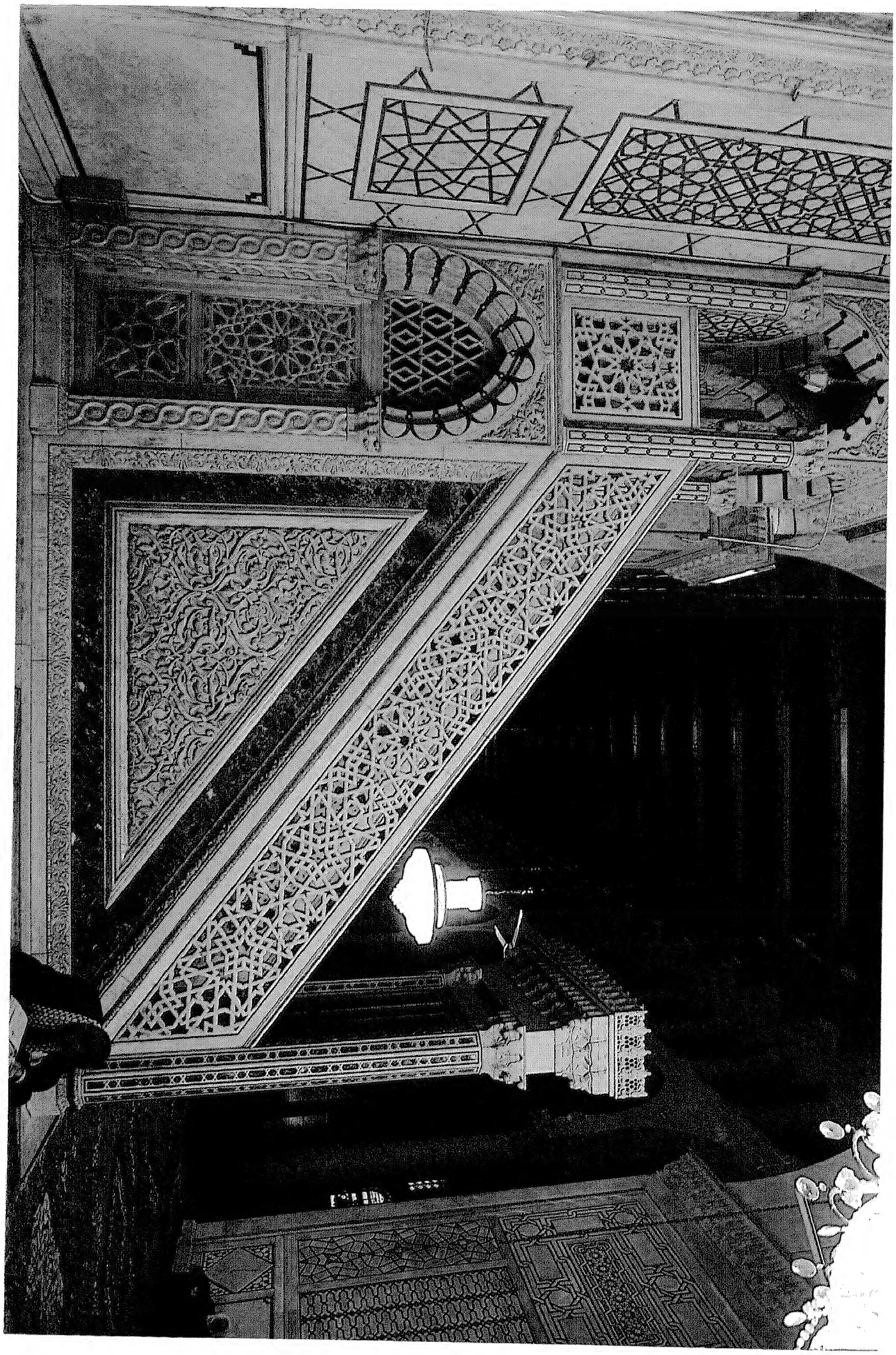

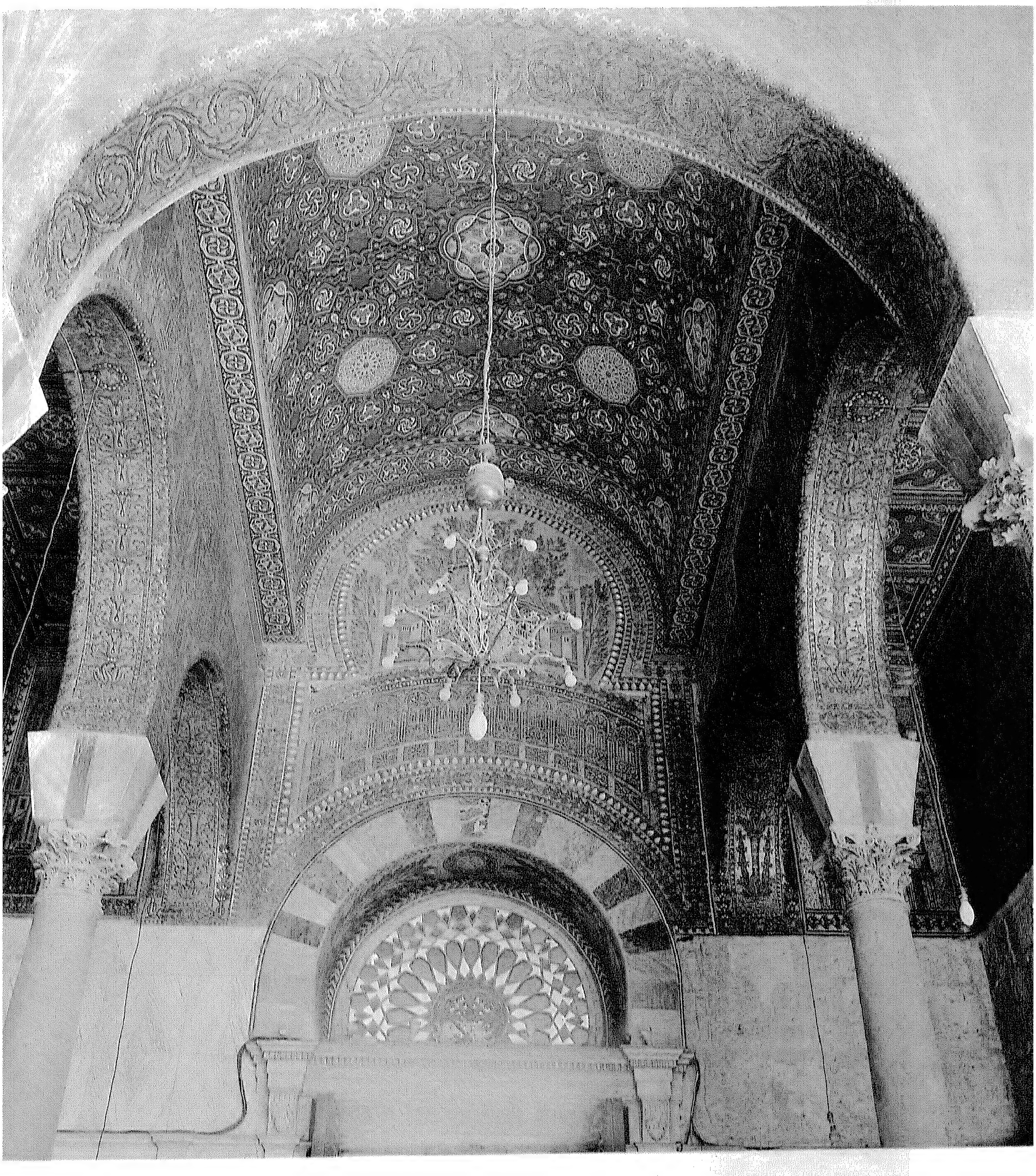

الفصل السادس

الزخرفة

- الرخاميّات .
- الخشبيّات .
- الكتابة والزخرفة على المعدن .

الزخرفة

الرخاميات

الرخام الذي يغطي جدران الحرم في الجامع الكبير ، والذي يغطي أقساما كثيرة من عضادات واجهة الحرم المطلة على الصحن هو رخام حديث . قام عمال دمشقيون معروفون باعداده وتغطية الجدران به على أجمل وأبهى تنسيق .

ولقد كان الرخام في السابق يكسو الجدران أيضا بشكل أوسع من واقعة الحالي ، ويشهد على ذلك الثقوب التي كانت تستوعب المماسك المعدنية المثبتة لألواح الرخام على الجدران .

وكان الرخام مجزعاً كما يقول العمري : « وكل أروقته بالعمد والعضائد ، عليها طاقات القناطر المعقودة بعضها على بعض . وقد أزرّت جدر هذه الأروقة بالرخام الأبيض والمجزع والأحمر المنقط والأخضر المرشوش والاسود الغرابي والأبقع والمعجون الأزرق .

وأما أركان القبة الأربعة وجناحا النسر القبلي والشامي فمن الرخام الى أعلى الجدر والأركان معمول بالفسيفساء ، مسقوف بالبطائن المعمولة بالذهب واللازورد والزنجفر والاسفيداج والأصباغ الخالصة من لون والمركبة من لونين » .

فالرخام ، كان ممشحا بزرقة ، ويبدو من بقايا الرخام الأصلية الموجودة في دهليز باب جيرون حتى يومنا هذا على أن الصناع يستفيدون من تجزيعات هذا التمشيح اذ

يقطع اللوح الرخامي إلى أربعة شرائح متماثلة في صورة التمشيح حتى إذا وضعت متقابلة شكلت وحدة زخرفية مجردة

وفي المتحف الوطني نموذج من ألواح الرخام هذه ، عثر عليها في صحن الجامع .

ولم يقتصر التزيين الرخامي على الألواح الواسعة التي غطت الجدران ، بل ان ثمة شريط من الزخرفة الرخامية كان يحيط جدران الحرم أسفل الفسيفساء الذي غطى الجدران العليا . وكان هذا الشريط الرخامي متمثلا برسوم تمثل عروقا نباتية هي اوراق الكرمة وعناقيد العنب ، مما كان شائعاً في تقاليد الفن في سورية قبل الإسلام . وكان هذا الشريط وحتى حريق عام ١٨٩٣ واضحا اخاذا بألوانه الذهبية التي أمر الملك الظاهر بيبرس بتجديدها وطليت الحجارة بماء الذهب او بورق الذهب .

ونوافذ الجامع الكبير كانت في البداية مشبكات زخرفية ، هندسية أو نباتية ، لكل واحدة صيغة خاصة مختلفة عن الصيغة الأخرى ، ومن هذه النوافذ ستة مشبكات مازالت قائمة في نوافذ مشهد عثمان الذي أصبح قاعة الاستقبال الغربية ، ونعتقد ان هذه المشبكات أصلية وأن باقي النوافذ في الجامع الكبير كانت من هذا النوع الرخامي .

ومن مستحدثات الزينة الرخامية في الجامع ، ضريح النبي يحيى وهو بناء رخامي تعلوه قبة أنشيء بعد الحريق الأخير ولم يكن هذا الضريح الرخامي قائما قبل الحريق ، بل كان ثمة ضريح خشبي مزين بنقوش التهمته النيران ولم يبق منه أثر وان كانت الصور تحفظ ذكرى واضحة عنه .

على أن أروع زخرفة رخامية كانت قبل الحريق ثم أعيد تصميمها وتنفيذها بعد الحريق ، هي زخرفة محراب الجامع الكبير . يقول ابن جبير : « وكان هذا الجامع المبارك ، ظاهرا وباطنا منزلا كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة ، فأدركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدد ، وذهب أكثر رخامه ، فاستحال رونقه ، فأسلم مافيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسنا وغرابة صنعة ، يتّقد ذهبا كله . وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سويرايات مفتولات فتل الاسورة كأنها مخروطة ، لم ير شيء

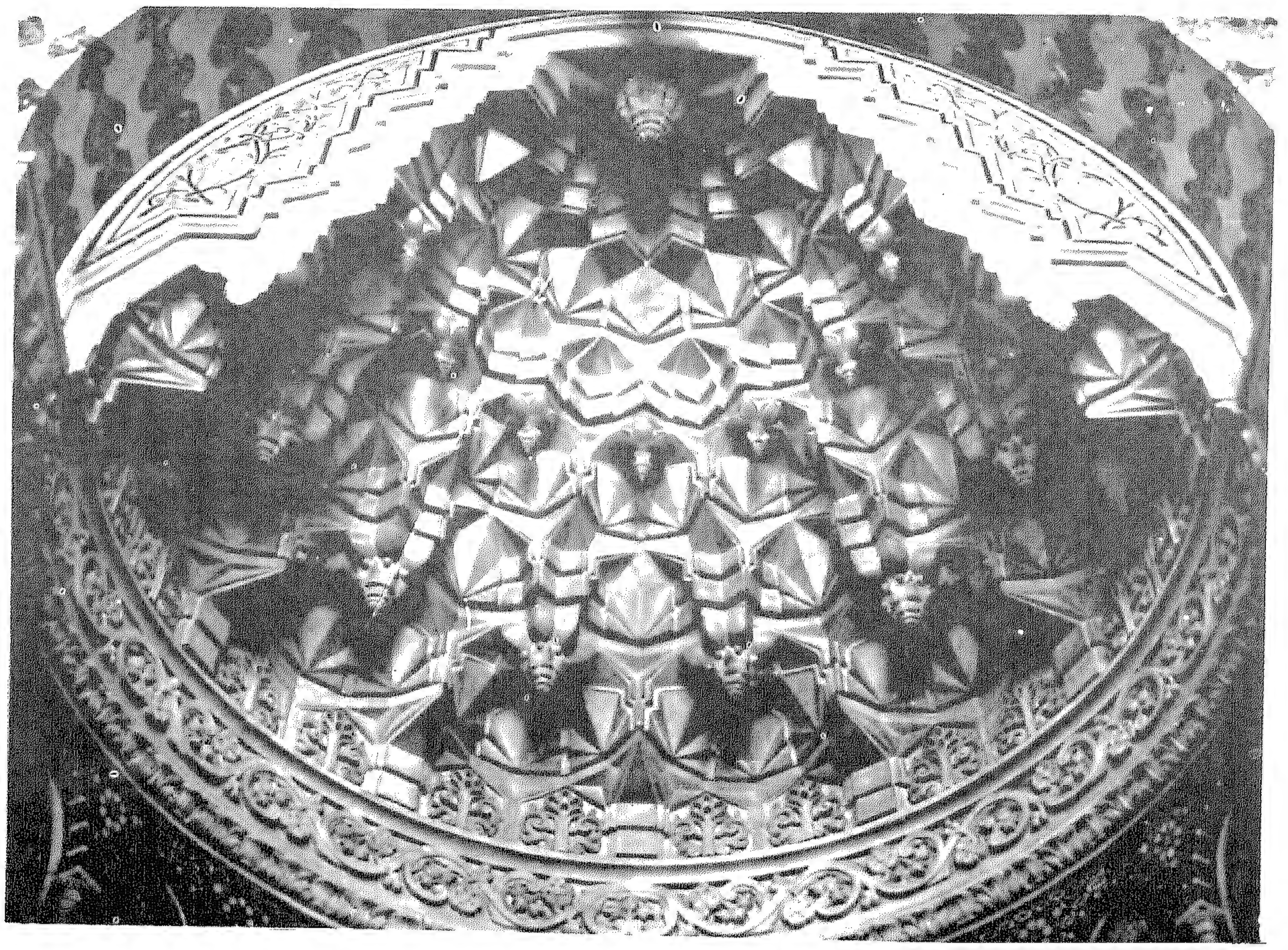

٤٣ ـــ قبة المحراب المقرنصه .

أجمل منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان . » ولقد هدم هذا المحراب في الحريق الأخير . وأعيد بناء محراب جديد .

ويتألف المحراب الجديد من خلفية رخامية واسعة نستطيع فصلها عن الزخرفة الجدارية المتممة لها تسهيلا لدراستها ، فنراها مؤلفة من مربع ضلعه ستة أمتار يعلوه شريطان من الكتابة القرآنية من سورة الرحمن مؤلفة من ألواح القاشاني المنقول من قبة مسجد الوزير آقوش النجيبي في محلة السويقة بدمشق . وتحتها افريز متصل وممتد على طول الجدار ، وفي طرف المربع من الشرق مستطيل قائم مؤلف من حشوتين كبيرتين وحشوة متوسطة مربعة الشكل ، وهذا المستطيل محاط باطار من المشبكات الهندسية ، وفي الطرف الغربي وفي مكان يقابل هذا المستطيل يقع المنبر الرخامي .

وفي وسط هذه الخلفية المربعة يقع المحراب يعلوه قوس ينفتح على نصف قبة مقرنصة ، ولقد حلي بطن المحراب بعضائد رخامية وصدفية رائعة مشكلة زخرفة هندسية رفيعة ، ويحيط المحراب في كل من الجانبين ثلاث حشوات هندسية عدا لوح في أسفلها .

ولقد زخرفت أجزاء أخرى من الجدار الجنوبي مع واجهات العضادات المركزية بزخرفة مماثلة من الرخام والصدف ، ونقلت هذه الزخارف وبنفس الطريقة الى الصحن حيث أصبحت تكسو العضادات الجبهية للحرم

ويعلو المحراب ثلاث شبابيك محلاة بالزجاج المعشق على ألواح مستطيلة ، وهي تختلف عن الالواح القديمة التي كانت قبل الحريق ولقد عدد ابن جبير عدد النوافذ المحلاة بالزجاج المعشق وأطلق عليها اسم شمسية ، فقال « وفي القبة المتصلة بالمحراب ومايليها من الجدار أربع عشرة شمسية وفي طول الجدار الى يمين المحراب ويساره أربع وأربعون ، وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست وفي ظهر الجدار الى الصحن سبع وأربعون شمسية » . ويضيف ابن جبير قائلا « وشأن قبلة هذا الجامع مع مايتصل بها من قبابه الثلاث واشراف شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه الى كل لون منها ، حتى ترتمي الابصار من أشعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي كله ، عظيم لايلحق وصفه ولاتبلغ العبارة بعض مايتصوره الخاطر منه » .

الخشبيات

لاشك أن سقوف الدهليز الغربي والشرقي وسقوف الحرم من جهة المحراب وجهة السدة كانت مغطاة بروائع الزخرفة الخشبية المسماة (نباتي) ، ولقد أعيد ترميم ماكان منها داخل الحرم وفي الدهليز الغربي ، ولكن بعض التجديد الذي تم في هذا الدهليز ابتعد عن الأصل كثيرا .

ولقد زين باطن قبة النسر بكتابات زخرفية « وكل يعمل على شاكلته » على شكل جامة دائرية محاطة بأسماء الخلفاء الراشدين .

وهذا النوع من الزخرفة الخشبية قديم في بلاد الشام ، فلقد عثر على أقدم آثاره وبقاياه في الرصافة ، وانتشر هذا الفن في بلاد الأندلس والمغرب

ويقوم هذا الفن على تصوير وتلوين الألواح الخشبية بصيغ نباتية محورة نافرة وبألوان ذهبية وحمراء وخضراء وزرقاء ، وينتشر هذا الفن في جميع البيوت الشامية ، ونرى نماذج منه في متاحف برلين ونيويورك وبرشلونه .

الكتابة والزخرفة على المعدن

الزخرفة المعدنية بواسطة الطرق ، تبدو واضحة في ابواب الجامع الكبير ، والباب الوسطي الكبير من المدخل الغربي (باب البريد) مؤلف من ردفتين خشبيتين كبيرتين مصفحتين بالمعدن البرونزي المزين باشكال زهرية مطروقة على هيئة ميداليات ، وتتجلى الحقول الوسطى بكتابات مطروقة .

ومن المعتقد ان هذه الزخرفة البرونزية تعود الى عام ٦٠٧ هـ حيث جددت الأبواب البرونزية كما يقول العلموي ، ولم تصب هذه الأبواب في عهد هولاكو ٦٥٨ هـ بأذى حسب رأي فاتزنغر .

اما البابان الجانبيان فيعود تصفيحهما الى عام ٨١٩ هـ .

وعلى باب جيرون زخرفة موزعة على ثلاث مناطق، العليا وتضم رنكا مملوكيا على شكل كاس، وبجواره شكلان متجاوران، وتضم المنطقة السفلية شكل كاس آخر.

والبابان الجانبيان مؤرخان بعام ٨٢٠ هـ وعليهما النص الصحيح الذي نشره فاتزنغر.

١ ـــ بسم الله الرحمن الرحيم **ادخلوها بسلام آمنين**

عز لمولانا السلطان الملك ــــ ناقص ــــ

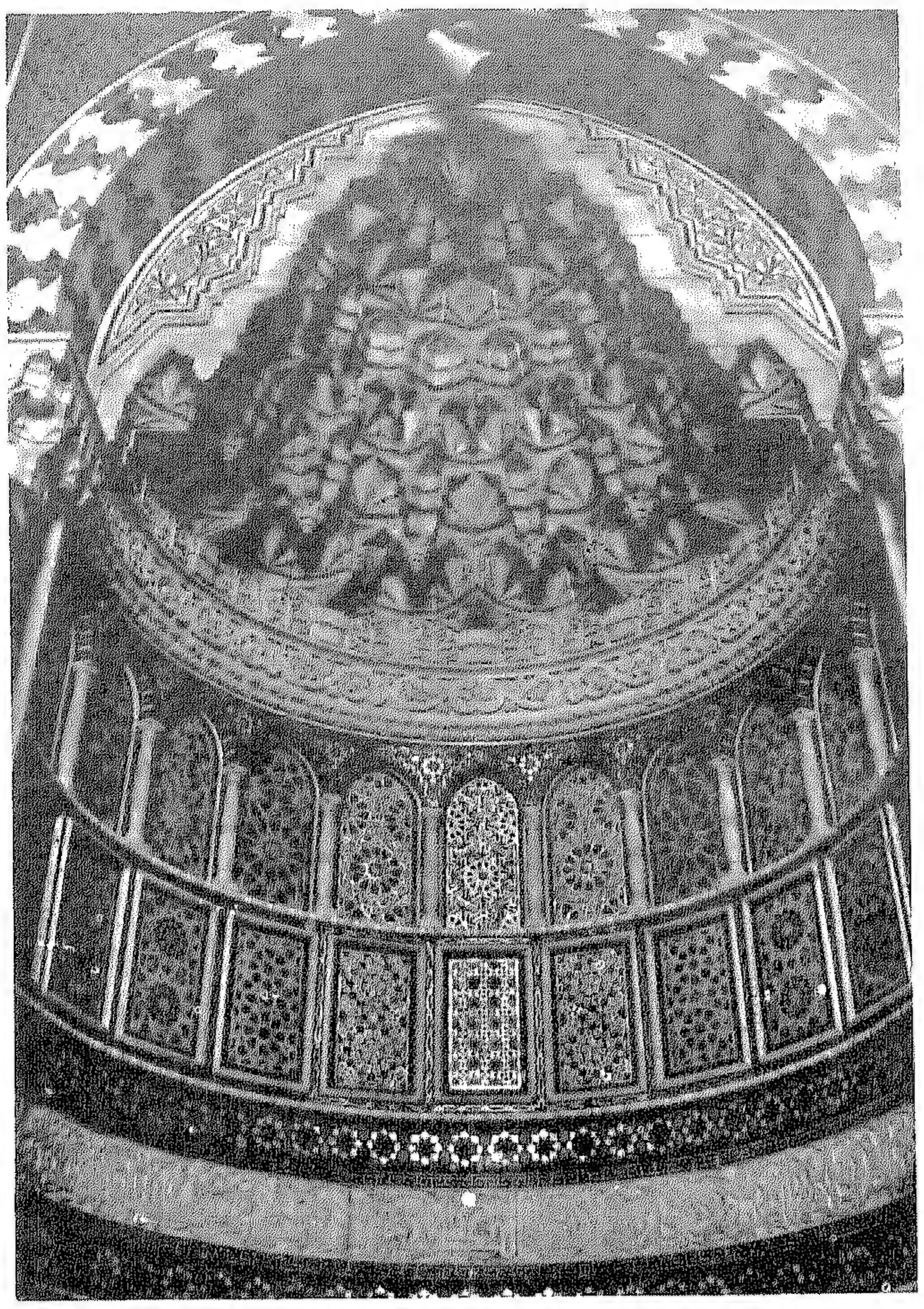

٤٤ ــ زخرفة المحراب من الداخل .

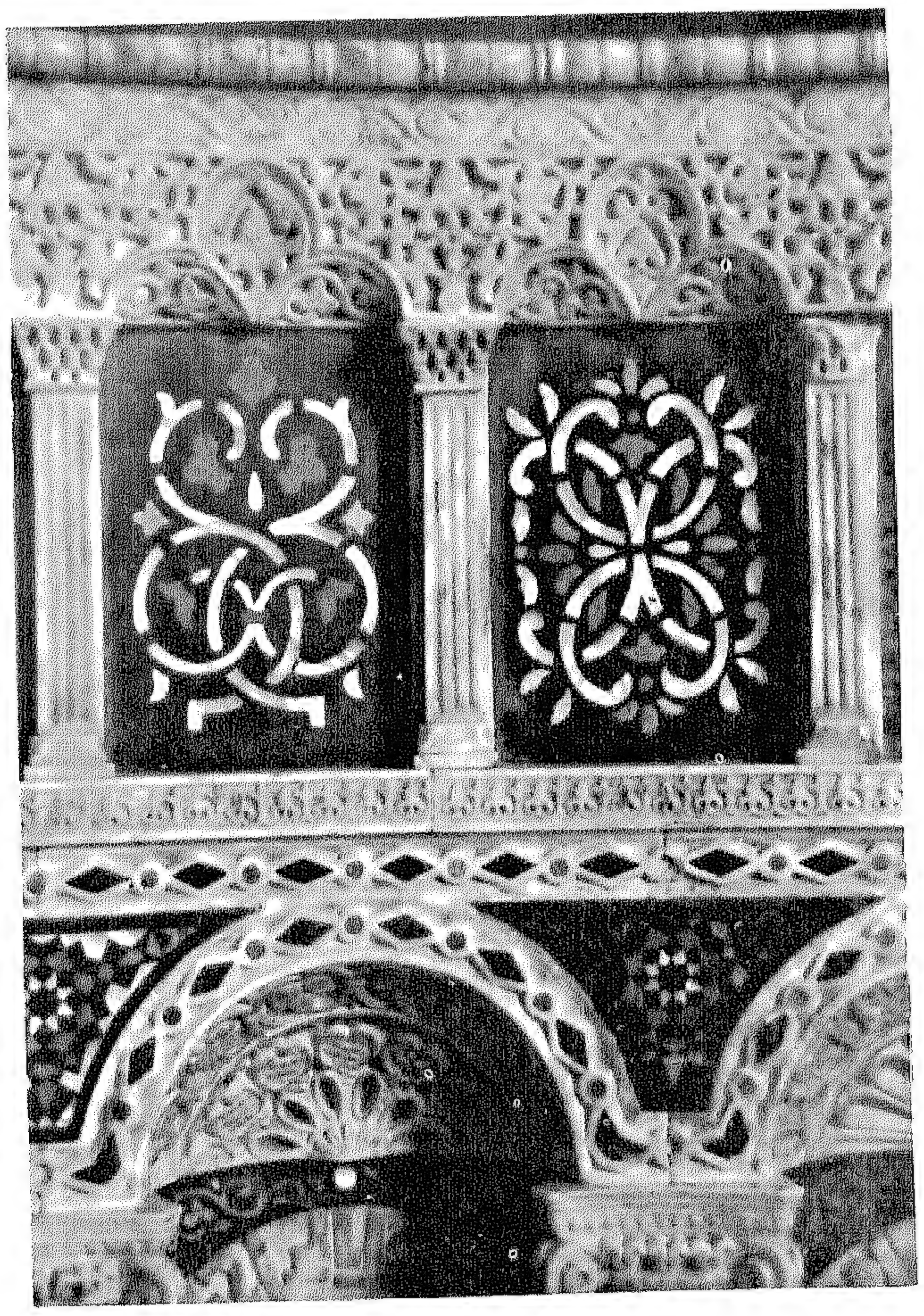

٤٥ ــ زخرفة المحراب من الداخل .

المؤيد أبو (النصر) شيخ

بادارة المقر الشريف (...) (...) سليمان بن خليل

وعلى الباب الجنوبي (باب الزيادة) نقوش وكتابات نشرها كريمر.

أما الباب الشمالي (باب العمارة) فهو يزدان برنك مملوكي ثلاثي المناطق، في المنطقة العليا شكل معيّن ، وفي المنطقة الوسطى والسفلى رنك بشكل كأس هو شعار الملك المؤيد الذي حكم من ٨١٥– ٨٢٤ هـ/ ١٤١٢– ١٤٢١م.

بسم الله الرحمن الرحيم ادخلوها...

... هذا المبارك.. عز لمولانا السلطان.

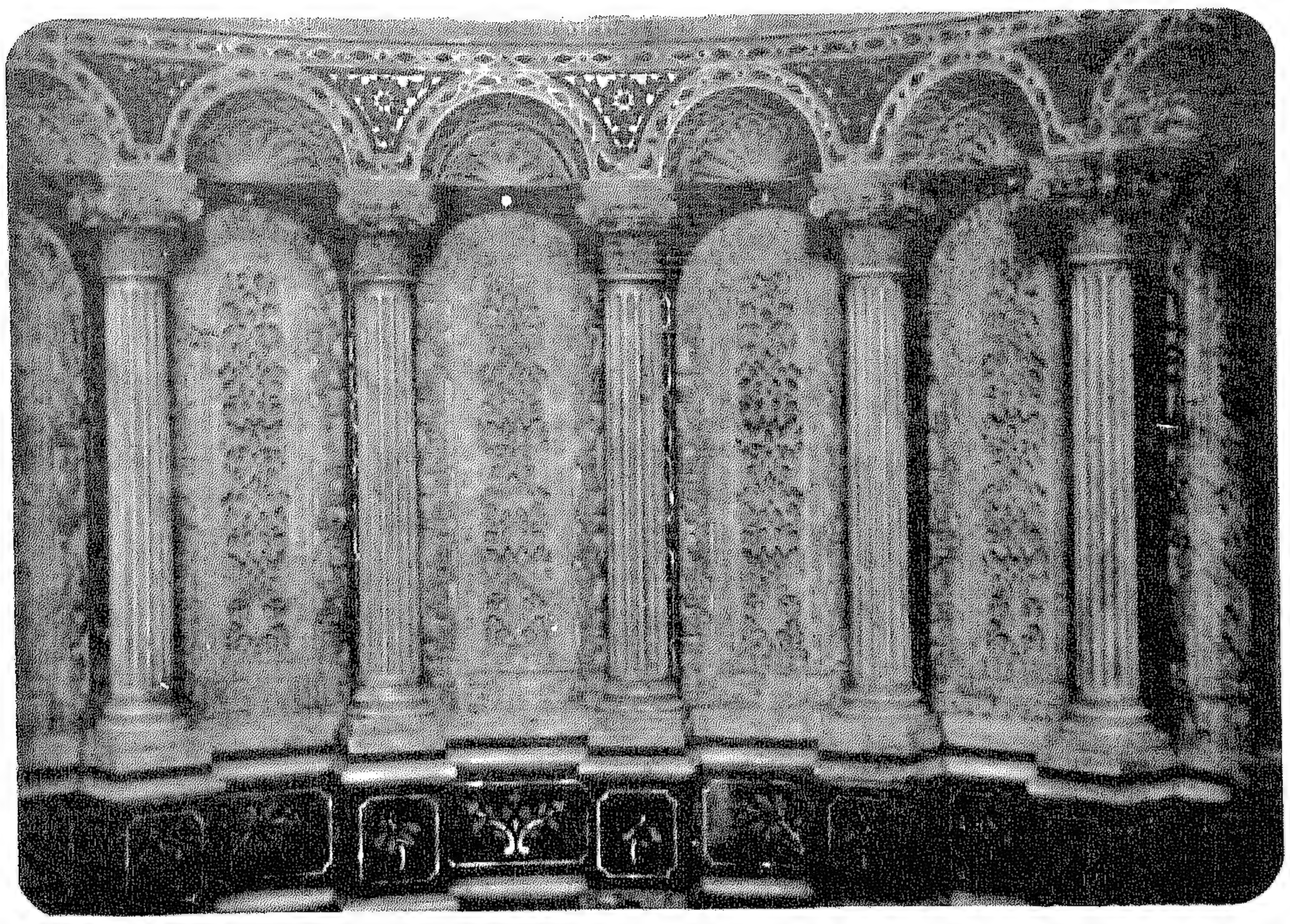

٤٦ ـ زخرفة محراب الجامع من الداخل .

٤٧ ـ زخرفة المنبر من الرخام .

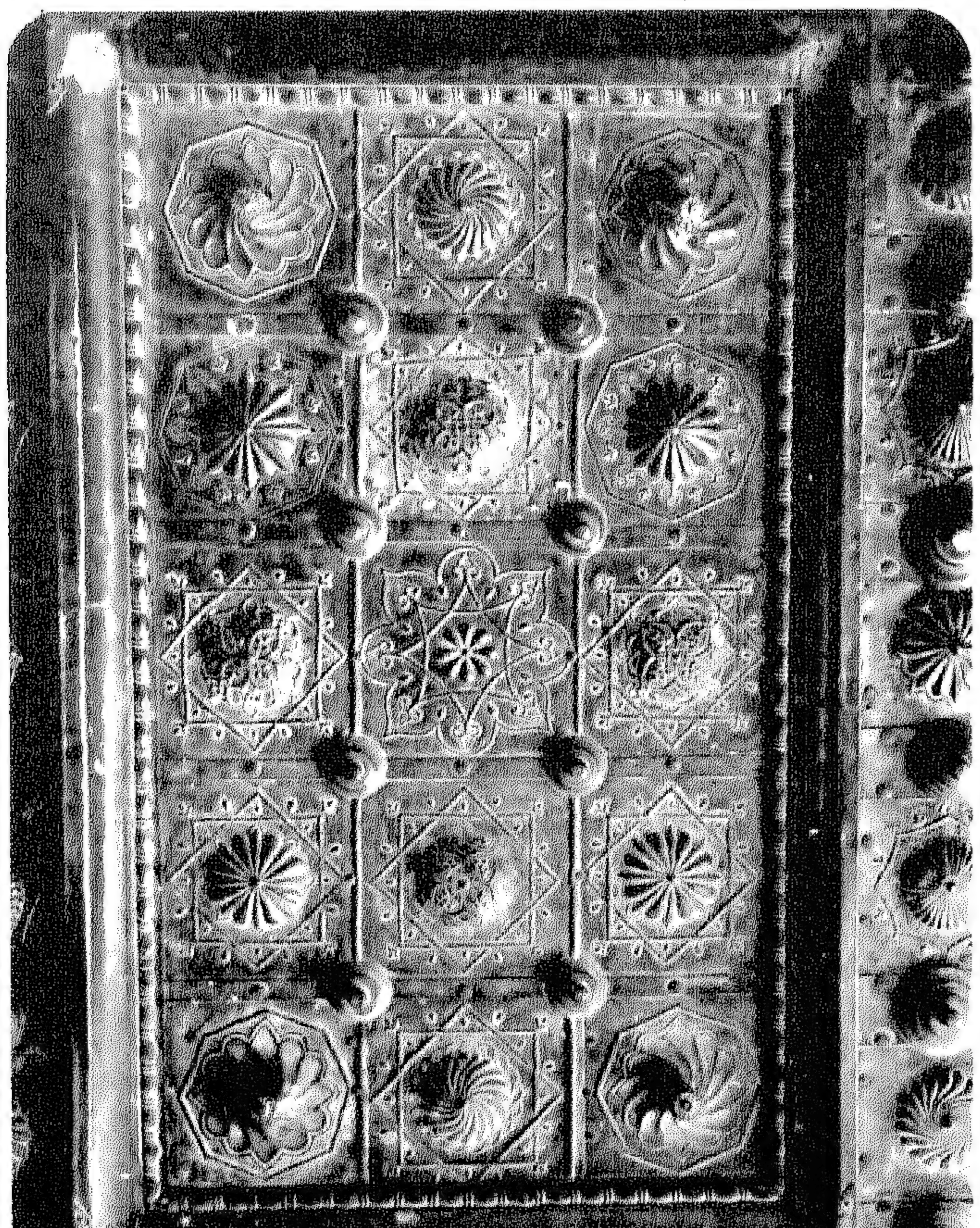

٤٨ ـ زخرفة الباب الغربي من البرونز .

الفصل السابع

الجامع مركز الحكم والعلم

- النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي .
- الجامع مركز العلم والتعليم .

الجامع مركز الحكم والعلم

النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي في الجامع

لم يكن الجامع الكبير مجرد مصلى ، بل كان بجلال بنائه وأهميةِ موقعه في دمشق عاصمة أضخم امبراطورية في زمانها ، مركزا لفعاليات مختلفة .

ومن أهم هذه الفعاليات ، الفعالية السياسية . ففي هذا البناء المنيف والرائع بزخارفه ، كان الخليفة يستقبل عماله ورسله ويقاضي الناس ويفصل في الأمور الجلل . واذا كان قصر الخليفة ملاصقا للجامع ، فلكي يسهل عليه الانتقال من مسكنه الى بيت الحكم والعبادة دونما مسافة يقطعها أو فاصل يفصله عن مهامه . ونحن نعرف أن قصر الخضراء الذي أنشأه معاوية منذ أن كان واليا وأعاد انشاؤه من الحجر بعد أن كان من الطين ، هذا القصر قد أنشيء بحجارة السور الخارجي للمعبد ، هذه الحجارة التي استفيد منها في بناء الجامع الكبير ذاته فيما بعد . ولقد سكن هذا القصر بعد معاوية ابنه يزيد ثم اشتراه عبد الملك بن مروان من خالد بن يزيد وسمي بدار الامارة كما يقول ابن عساكر . ولعل الوليد سكن هذا القصر أيضا .

ويحدثنا المؤرخون عن قصور أخرى ملاصقة للجامع ، منها قصر عمر بن عبد العزيز في المكان الذي أصبح الخانقاه الشميساطية عند باب الكلاسة الشمالي . ويقول النعيمي أنها كانت داره ودار ابنه عمر « وذلك مكتوب على عتبة الباب اليوم» .

ولقد كان معاوية أول من أوجد المحراب ، كما أنه أول من استعمل المنبر وخطب منه جالسا ، ثم هو أول من أنشأ المقصورة كما يقول اليعقوبي ، وهي حجرة في داخل المسجد جعلت مقاما للخليفة ، وقد تضاربت الأقوال في تعليل السبب من انشاء المقصورة ، فكانت لحمايته ثم كانت لاعتزاله ، ولكن الأصفهاني يعتقد أنها كانت مكانا للتداول في أمور الدولة .

ولقد سكن قصر الخضراء سليمان بن عبد الملك خلال خلافته القصيرة، وله في الجامع مجلس وكرسي فخم ويقول فيليب حتي : «وكان للخليفة مجالس رسمية تعقد في المسجد الأموي الذي لايزال من أفخم المعابد في العالم وأروعها ، وفي مثل هذه الحال من الأبهة والمجد ، فيما يخيل لنا ، استوى الخليفة سليمان الذي كان قد ارتقى العرش فاستقبل موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحي اسبانية ، ووراءهما جموع من الأسرى ، وما يكاد يحصى من الاسلاب . وكان من هؤلاء الأسرى أفراد الاسرة القوطية المالكة الصهب الشعور ، ومن الأسلاب والكنوز والذخائر النفيسة المنتزعة من قصور الأندلس ، واذا كان هناك مشهد من مشاهد التاريخ يمكن أن يمثل قمة ازدهار الدولة الأموية فهو هذا ». ولقد اصبح من المؤكد ان المشاهد الاربعة كانت جزء هاماً من قصر الامارة الاموي الذي امتد خارج المسجد ، من قصر الخضراء في الجنوب الى الباب الغربي وحتى الباب الشمالي . وهكذا كان الجامع رمز السلطة الدينية والدنيوية . ثم كان قلب دمشق تتهافت عليه النفوس ويتقرب منه الناس ، وحوله تنهض الأضرحة والمدارس والأسواق ، كسوق العنبر والطيب وسوق الصياغ والخيل . وكان يقف أمام أبوابه رجال الشرطة والوراقون وعاقدو الأنكحة والشهود .

ويقول ابن جبير : وفي الصحن بين القباب المذكورة عمودان لهما رأسان من الصفر مستطيلان قد خرما أحسن تخريم ، يسرجن ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان .

واحتفال أهل هذه البلدة بهذه اليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم .

على أن للجامع أيام محنة وبخاصة بعد غزوة تيمورلنك أو بعد حريق ١٨٩٣ فيصبح أكواماً من الأطلال والأتربة ، وتتسع فيه أمكنة للعابرين أو المتسولين وتقام فيه

المحلات المؤقتة يبيع الناس فيها ويشترون بل تقام فيه أحيانا خانات للدواب . ويقول بدران كما ذكرنا سابقا : « وفي سنة ثمان وستين وستمائة كان الجامع كأنه خان ينام فيه الناس، وكان لكل مقيم به موضع قد افرده واقتطعه وعمل فيه صندوقا وأحاطه بمقصورة ، حتى كان فيه مايقرب من ثلاثمائة خزانة ومقصورة ، فأزال الملك الظاهر ركن الدين جميع ذلك ، ونظف الجامع ، وفرشه بالحصر والبسط ، وغسل رخامه وحسنه ، وكان بصحن الجامع أيضا حواصل للمنجنيقات ، وحواصل للأمراء وغيرهم من خيم وشبهها فأزالها أيضا ، ورتب اوقافه للمستحقين » .

ويتحدث ابن جبير عن الجامع من أنه أيضا مجمع للناس يتحدثون ويتسامرون في صحنه فيقول : «ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ، وهو متفرّجهم ومنتزههم كل عشية ، تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب ، من باب جيرون الى باب البريد ، فمنهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ ، ولايزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء ثم ينصرفون ، ولبعضهم بالغداة مثل ذلك ، وأكثر الاحتفال انما هو بالعشي ، فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظّم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم » .

ومحلة جيرون المتاخمة للجامع من جهة الشرق كانت ملتمسا للناس يقضون فيها سويعات نهارهم مرحين لاهين ، ومازالت حتى اليوم هذه المحلة تحوي مقهى أو أكثر يسمى مقهى النوفرة يأوي إليه الناس لينعموا بالهدوء ومنظر النوفرة . ويقول ياقوت : « المعروف اليوم أن بابا من أبواب الجامع بدمشق — وهو بابه الشرقي — يقال له باب جيرون . وفيه فوّارة ينزل عليها بدرج كثيرة ، في حوض من رخام . وقبة خشب يعلو ماؤها نحو الرمح » .

وهكذا نجد أن اسم باب جيرون انتقل من الباب الشرقي في سور المعبد الخارجي الى الباب الشرقي في الجامع نفسه .

وفي القرن السادس نجدهم يطلقون اسم جيرون على المحلة كلها . فقد احترقت سنة ٥٥٩ هـ بعد رجوع أسد الدين شيركوه الى دمشق . فقال عرقلة الشاعر يمدحه ويذكر ذلك :

جار صرف الردى على جيرون وسقى أهلها كؤوس المنون
كل حين لها حريق جديد ليت شعري ماذا لها بعد حين
كل هذا البلاء عاقبة الفسق وشرب الخمر والتلحين

هكذا الجامع ، والصلاة مازالت أساسا فيه يمارسها الناس كل أوقات الصلاة كل يوم ، ويجتمع الدمشقيون يوم الجمعة الى صلاة جامعة يستمعون فيه الى الخطبة . وتعاقب على الجامع خطباء كل لهم دور كبير في الفقه والتشريع .

وفي كل مرة كان الجامع يتعرض فيه للهدم او الحريق ، كان الناس يلجأون الى المشاهد يجعلون منها مساجد للصلاة لايلبثون بعد اعمار الجامع وترميمه أن يعودوا الى صلاتهم في الحرم الكبير .

الجامع مركز العلم والتعليم .

والمسجد أيضا مقر لأهل العلم يدرسون فيه ويدرّسون ، وفيه اعتكف الغزالي وكتب بعض كتبه وقام بالتدريس . ويقول ابن جبير : «وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة . ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لايجيد حفظ القرآن . وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمس مئة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم . فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء . وفيه حلقات التدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم .

ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة . وأغرب ما يحدّث به أن سارية من سواريه ، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس . أبصرنا بها فقيها من أهل اشبيلية يعرف بالمرادي . وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا يستند كل انسان منهم الى سارية ويجلس أمامه صبي يلقّنه القرآن . وللصبيان أيضا على قراءتهم جراية معلومة . فأهل الجدة من آبائهم ينزهون عن أخذها وسائرهم يأخذها ، وهذا من المفاخر الاسلامية . » .

١٨٢ـ١٨٣..............................أروقة ومشاهد الجامع وكانت للتعليم
وللنشاطات الثقافية .
١٨٤..............................قبة الخزنة وقد أصبحت مستودعات
لروائع المخطوطات .

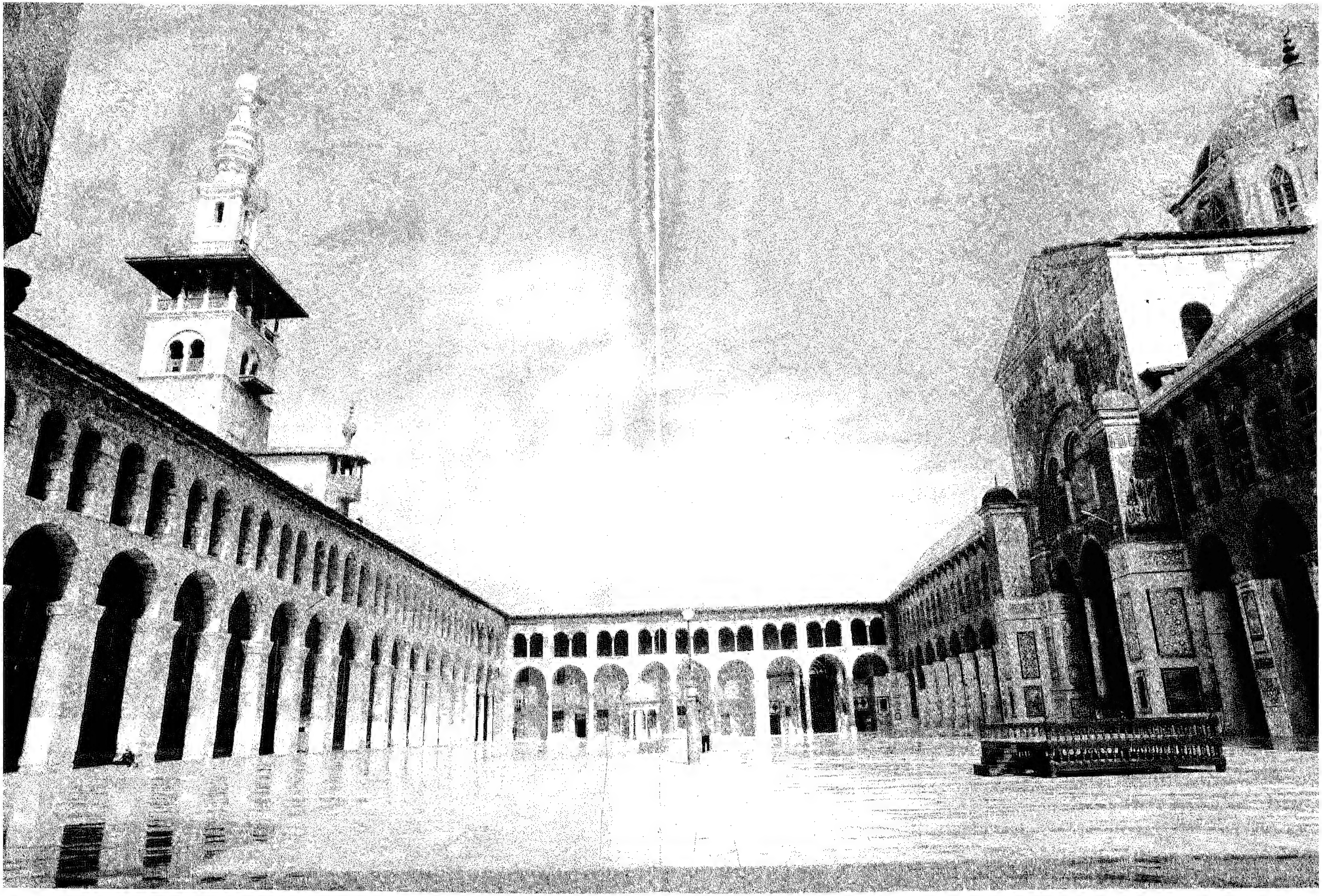

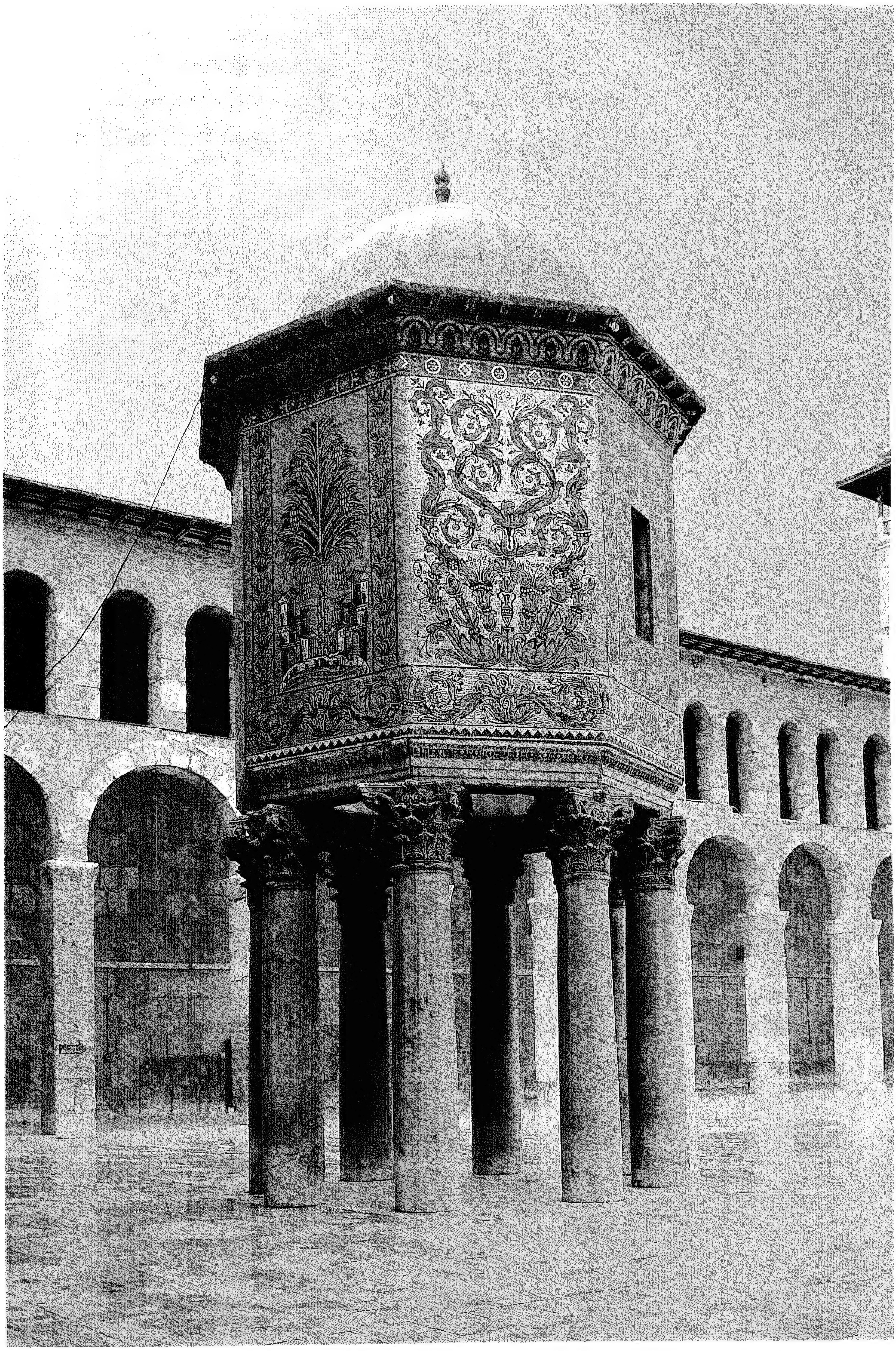

وكان في الجامع عدد من الزوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس ، وهي من جملة مرافق الطلبة . كما أن الخياري في رحلته اطلع على دور المسجد كمركز للتعليم والفقه فقال : « وأمام هذه المقصورة قبة عالية حسنة الوضع سامية ، يتزاحم الدمشقيون على التدريس في ذلك الموطن ، ويفتخرون به ، ويسمون المدرس به (المدرس تحت القبة) . والمسجد ، ولله الحمد ، عامر بالتدريس في مواطن كثيرة ، منه أول النهار ، وآخره ، وبين العشائين ، والخير كثير ، والفضل شهير ، والفضلاء للطلب متوفرون ، والعلماء للافادة متقيّدون ، فالحمد لله على عمارته حسا ومعنى » .

ويقول بدران : « وكان في هذا الجامع من المدارس : الغزالية ، والأسدية ، والمنجائية ، والقوصية ، والسيفية ، والمقصورة الكبيرة ، والزاوية ، والشيخية . وكان له تسعة أئمة ، وأربعة وعشرون شيخاً ، واحدى عشرة حلقة للتدريس في الفنون ولها مقررات من مال المصالح ، وكان به ثلاث حلقات للاشتغال بالحديث . وقد حكى المحبي الدمشقي في « خلاصة الأثر » أنه بعد الخمسين وألف أحدثت وظيفة تدريس في الجامع الأموي تحت قبة النسر ، رتبها بهرام آغا كتخدا والد السلطان ابراهيم ، وبنى السوق الجديد والخان قرب باب الجابية لأجلها ، وعين للمدرس ستين قرشاً ، وللمعيد ثلاثين ، ولقارىء العشر عشرة قروش ، ودرس بهذه الوظيفة الشيخ سعودي ، ثم بعده تاج الدين بن أحمد المحاسني الدمشقي .

وفي الجامع أيضاً بيت الخطابة ، وكان به خزانة كتب . حكى المحبي (كتابه) في ترجمة على الدفتري أنه وقف كتبه ، واستودعها بيت الخطابة بالقرب من المقصورة بالجامع الأموي ، إلى أن دعى النظارة عليها بعض المفتين بالشام واحتوى عليها . وفيها نفائس الكتب . »

وذكر ابن النديم أن أول من حفل بجمع الكتب من أمراء المسلمين خالد بن يزيد الأموي ، فأنشأ مكتبة في هذه الحاضرة وأنشأ دارا للترجمة .

وازداد عدد الكتب المخطوطة مع الأيام وكان في دمشق عدد من المكتبات نقل أكثرها الى الظاهرية فيما بعد . وكانت مجموعة ضخمة من المخطوطات محفوظة في قبة المال في صحن الجامع الأموي ، ويذكر جرجي زيدان أن الرحالة الانكليزي (روجرز) أذن له بالاطلاع على محتويات القبة في منتصف القرن التاسع عشر . كما ان (البارون

فون سودن) حصل على موافقة السلطان فأرسل موفدا عنه في نهاية القرن الماضي ، ولما فتحت القبة بحضور ناظم باشا والي دمشق وبعض الوجهاء ، تبين أن قبة المال كانت تحوي رقوقا كثيرة مختلفة ، بعضها ذو موضوع ديني ، وفيها أجزاء التوراة باللغة السريانية وبكتابة اسطر انجيلية .. ورقوق عليها كتابات يونانية ولاتينية وآرامية وسامرية ، ويعتقد ان أقدمها كتب في القرن الخامس الميلادي . وهناك رقوق أخرى عربية بكتابة كوفية ، وكان يقدر عدد موجودات الجامع الكبير ببضعة آلاف من المخطوطات ، وبعد الحريق الكبير عام ١٨٩٣ احترق كثير من المخطوطات ونقل الباقي الى مكتبة بيت الخطابة في الأموي .

ولقد نقلت بعض المخطوطات الى المانيا بمناسبة زيارة الامبراطور غليوم الثاني الى دمشق . ونقلت بعض المخطوطات ذات القيمة الفنية او العلمية الى المتحف الوطني بدمشق .

ويقول ابن جبير : « وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان ، رضي الله عنه . وهو المصحف الذي وجّه به إلى الشام . وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة فيتبارك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه »

ومصحف عثمان نقل الى دمشق من طبرية وكان قد نقل اليها من المدينة وهو واحد من مصاحف كان زيد بن ثابت قد كتبها بأمر من عثمان بن عفان ، وكان زيد من الصحابة وكان كاتب وحي الرسول ، وشهد القراءة الأخيرة من الرسول سنة وفاته . وعرف ترتيب آيات القرآن في السور بحسبها وكان يقرىء الناس بها . وأرسل عثمان مصحفا لكل اقليم ومنها الشام وتنسب هذه المصاحف الى عثمان لأنه امر بكتابتها وليس لأنه كتبها بيده . وكتبت هذه المصاحف بالخط المدني وهو نبطي متطور حسب رأي المنجد . ويصف ابن كثير مصحف دمشق فيقول : « ان زيدا هو الذي كتب المصحف الامام الذي بالشام عن أمر عثمان » ويضيف « وهو خط جيد ، قوي جدا فيما رأيته » ، ويقول في كتاب فضائل القرآن « اما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي بالشام بجامع دمشق ، عند الركن ، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله . وقد كان قبلا بمدينة طبرية ، ثم نقل منها الى دمشق في حدود سنة ٥١٨ هـ . وقد رأيته

كتابا عزيزا جليلا عظيما ضخما ، بخط حسن مبين قوي ، بحبر محكم ، في رق أظنه من جلود الأيل »

ويذكر الذهبي ان الأتابك طغتكين أمير دمشق هو الذي نقله سنة ٤٩٢ هـ من طبرية الى دمشق ، وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس .

وعندما زار ابن جبير دمشق رأى مصحف عثمان في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب ، وأكد ابن بطوطة ذلك وأضاف ان الخزانة تفتح كل يوم جمعة بعد الصلاة . فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف ، وهناك يحلّف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئا .

واستمر المصحف موجودا في الجامع الكبير حتى بداية العهد العثماني ، فلقد ذكر ابن طولون أن السلطان سليم العثماني لما دخل الى دمشق سنة ٩٢٢ هـ زار المسجد الأموي ، بليلة الاثنين سابع عشر من رمضان ، وقرأ بالمصحف العثماني وزار قبر يحيى عليه السلام .

٤٩ ـ منظر الجامع الكبير وسط مدينة دمشق القديمة.

الملاحق

أهم المراجع

ـــ المقدسي ـــ أبو عبد الله محمد بن أحمد . توفي عام (٣٧٨ هـ ـــ ٩٨٨ م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـــ ليدن ١٩٠٦ ج ٣ (ص٧٢) .

ـــ الحسن المهلبي البهنسي . توفي عام (٣٨٠ هـ ـــ ٩٩٠ م) المسالك والممالك ـــ مخطوط ، نشر منه صلاح المنجد ، في مجلة معهد المخطوطات عام ١٩٥٨ . (ص٨٠) .

ـــ ابن عساكر ـــ علي بن الحسن . توفي عام (٥٧١ هـ) تاريخ دمشق ـــ مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق نشر منه صلاح المنجد المجلد ١ عام ١٩٥١ المجلد ٢ عام ١٩٥٤، نشر منه محمد أحمد دهمان المجلد ١٠ عام ١٩٦٣، نشر منه شكري فيصل المجلد ٤ ، ١٩٧٩ . (ص٨٧) .

ـــ ابن جبير ـــ محمد بن أحمد الكناني . توفي عام (٦١٤ هـ ـــ ١٢١٧ م) الرحلة ـــ نشرت في مصر عام ١٩٥٥ وفي بيروت عام ١٩٦١ . (ص١٠٤) .

ـــ ياقوت الحموي . توفي عام (٦٢٦ هـ ـــ ١٢١٧ م) معجم البلدان ـــ طبع مصر عام ١٩٠٦ (ص١٦٣) .

— المقدسي — أبو شامة .
توفي عام (٦٦٥ هـ)
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والأيوبية — حقق ونشر في القاهرة عام ١٩٤٨ .

— العمري — ابن فضل الله .
توفي عام (٧٤٩ هـ — ١٣٤٩ م)
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار — طبع القاهرة ١٩٢٣ .

— ابن بطوطة — محمد بن عبد الله .
توفي عام (٧٧٠ هـ — ١٣٦٨ م)
الرحلة — تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار باريس ١٨٧٤ (٤ أجزاء) : مصر ١٩٣٨ .

— صلاح الدين الصفدي .
توفي عام (٧٦٤ هـ)
أمراء دمشق في الأسلام — حققه صلاح المنجد عام ١٩٥٥ .

— ابن كثير .
توفي عام (٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية — مصر ١٩٣٣ ج ١٤ .

— ابن تغري بردي .
توفي عام (٨٧٤ هـ)
النجوم الزاهرة — مصر ١٩٤٣ .

— البدري — أبو البقاء .
توفي في (القرن ٩ هـ)
نزهة الأنام في محاسن الشام — القاهرة ١٣٤١

— عبد الباسط العلموي .
توفي عام (٨٩٨ هـ — ١٥٧٣ م)
مختصر تنبيه الطالب . — تحقيق صلاح الدين المنجد — دمشق ١٩٧٤

— عبد القادر النعيمي .
توفي عام (٩٢٧ هـ)
الدارس في تاريخ المدارس — حققه جعفر الحسني دمشق ١٩٤٨ — ١٩٥١ .

— صلاح الدين المنجد .
مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين العرب — بيروت ١٩٦٧ .

ـــ صلاح الدين المنجد . تاريخ مسجد دمشق ذكر ما استقر عليه الجامع الأموي عام ٧٣٠ هـ .

ـــ عبد القادر بدران . حريق الجامع الأموي ، أيام العثمانيين ـــ دمشق ١٩٥٣ .
تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٣٤٩ هـ

ـــ عبد اللطيف قزيها . فسيفساء الجامع الأموي دمشق ١٩٦٤ .

ـــ علي الطنطاوي . الجامع الأموي دمشق
وزارة الأوقاف ـــ دمشق

Creswell:Early Muslim Arcitecture I,Oxford 1940

Dussaud: Le Temple de jupiter Damascénien et ses transformations aux époques chrétiennes et musulmanes, Syria III,1922

Sauvaget:Le plan antique de Damas, Syria XXVI,1949

Wulzinger & Watzinger: The Great Mosque of the Omeyades, Damaskus, 2Vol. Berlin, 1921-1924

Dickie: P.E.F. Q.St. 1897, PP. 268-82

الفهارس

فهرس الصور الملونة

رقم الصفحة — موضوع الصورة

٢٥ ....الجامع الأموي وخلفه دمشق .

٢٦ ــ ٢٧ ....لوحة للفنان بلليني ويُرى فيها واجهة القصر الأبلق المملوكي وخلفه الجامع الأموي ــ ق ١٦ متحف اللوفر

٢٨ ....المحراب بشكله الجديد .

٣٧ ....مشهد جوي للجامع .

٣٨ ــ ٣٩ ....زاوية من الصحن .

٤٠ ....المئذنة الشرقية .

٤١ ....مئذنة العروس الشمالية .

٤٢ ــ ٤٣ ....مشهد عام للصحن .

٤٤ ....المئذنة الغربية .

٦١ ....قبة النسر .

٦٢ ....الحرم ــ مشهد عام .

٦٣ ....الحرم مشهد جانبي من جهة القبلة .

٦٤ ــ ٦٥ ....الصحن .

٦٦ ....قبة النسر من الداخل .

٦٧ ....قبة زين العابدين .

٦٨ ....قبة النسر وقبة الخزنة .

٨٥ ....فسيفساء واجهة الحرم .

٨٦ ....الفسيفساء على عضادة الجبهة .

٨٧ ....فسيفساء قبة الخزنة .

٨٨ ــ ٨٩ ....الفسيفساء مشهد الجسر والقناطر .

رقم الصفحة	موضوع الصورة
٩٠	...........مشهد فسيفسائي .
٩١	...........مشهد فسيفسائي على ركن عضادة .
٩٢	...........مشهد مدينة من الفسيفساء
١٢٥	...........لوحة فسيفسائية في أروقة الصحن .
١٢٦ ــ ١٢٧	...........زخارف فسيفسائية .
١٢٨	...........زخرفة زجاجية في المدخل الغربي .
١٢٩	...........عمود عليه كتابة بخط جميل .
١٣٠ ــ ١٣١	...........الفسيفساء في قمة واجهة الحرم .
١٣٢	...........زخرفة سقف المدخل الغربي .
١٤٩	...........باب المنبر من الخشب المحفور والمنزل بالعاج .
١٥٠	...........المنبر من الرخام المجزع والنافر .
١٥١	...........باب خزانة الكتب في الجدار القبلي للحرم .
١٥٢ ــ ١٥٣	...........الفسيفساء ــ مشهد الجسر والنهر .
١٥٤	...........مقام النبي يحيى في الحرم .
١٥٥	...........زخارف قيشانية على عضادة .
١٥٦	...........المحراب وزخرفته الرخامية .
١٥٧	...........النوافذ في الجدار القبلي فوق المحراب .
١٥٨	...........فسيفساء أسفل الجبهة .
١٥٩	...........المحراب والمنبر وزخارفهما الرخامية .
١٦٠ ــ ١٦١	...........مشهد المدينة حول الجامع .
١٦٢	...........النوافذ الملونة في الجدار الشمالي ــ الحرم .
١٦٣	...........زخرفة طرفي المنبر .
١٦٤	...........زخارف المدخل الغربي .
١٨٢ ــ ١٨٣	...........أروقة ومشاهد الجامع وكانت للتعليم وللنشاطات الثقافية .
١٨٤	...........قبة الخزنة وقد أصبحت مستودعات لروائع المخطوطات

فهرس الصور

رقم الصفحة رقم الصورة موضوع الصورة

١٦ .... ١ ....مكة المكرمة ــ الكعبة الشريفة .
٢ ....بلاطة خزفية عليها صورة الكعبة وخارطة الحرم المقدس .
٣ ....القدس المسجد الأقصى ــ الواجهة .
٤ ....القدس المسجد الأقصى ــ الحرم .
٥ ....المدينة المنورة مخطط مسجد الرسول بوضعه الحالي .
١٨ .... ٦ ....القدس قبة الصخرة .
٧ ....القدس قبة الصخرة ــ مقطع .
٨ ....القدس قبة الصخرة ــ مقطع منظوري .
٩ ....القدس قبة الصخرة ــ المحراب .
١٠ ....حلب ــ الجامع الكبير ــ المئذنة .
٢١ .... ١١ حدود المعبد قبل الزيادات الاسلامية .
١٢ ....المعبد والسور الخارجي في العهد الروماني .
٢٩ .... ١٣ ....المدخل الغربي للجامع وترى بقايا دار الأمارة وبوابة المعبد .
١٤ ....الجامع الكبير ومدينة دمشق .
٣٣ .... ١٥ .... معبد روماني (حصن سليمان) سورية محافظة طرطوس
٤٥ .... ١٦ ....حرم الجامع ودعاماته الثمانية والستون .
٥١ .... ١٧ ....قاعدة المئذنة الشرقية واختلاف مداميكها عن المداميك القديمة .
١٨ ....مخطط واجهة الجدار الجنوبي .

رقم الصفحة	رقم الصورة	موضوع الصورة
٥٢	١٩	قاعدة المئذنة الغربية وانسجام مداميكها مع المداميك القديمة الاسلامية .
٥٧	٢٠	قسم من واجهة الحرم .
٥٨	٢١	مئذنة العروس خلف قبة الملك الظاهر .
	٢٢	ـــ مشهد قلعة دمشق ومدفن صلاح الدين من مئذنة الأموي
٨١	٢٣	حريق الجامع الأموي الكبير (مشهد واجهة الحرم) .
	٢٤	حريق الجامع الأموي الكبير .
٩٥	٢٥	حريق الجامع الأموي الكبير .
١٠٠	٢٦	واجهة الحرم من الجهة الشمالية .
	٢٧	واجهة الحرم من الجهة الجنوبيه .
	٢٨	حرم الجامع ويرى المحراب والمنبر .
	٢٩	الأروقة في الصحن .
١٠٢	٣٠	مقطع المصلبة من الداخل .
١٠٦	٣١	مقطع عرضاني للحرم من الشرق .
١٠٧	٣٢	المنبر بعد إعادة تنفيذه .
١١٢	٣٣	مئذنة العروس الشمالية .
	٣٤	المئذنة الشرقية .
	٣٥	المئذنة الغربية .
١١٩	٣٦	أقسام الجامع الكبير وتوابعه .
١٢١	٣٧	الرواق الغربي وباب البريد .
١٤٥	٣٨	نافذة رخامية في أعلى جدران مشهد عثمان .
	٣٩	نافذة رخامية في أعلى جدران مشهد عثمان .
١٤٦	٤٠	زخارف جدارية رخامية أصلية عند المدخل الشرقي .
	٤١	زخارف رخامية أصلية في النوافذ المطلة على الباب .

رقم الصفحة	رقم الصورة	موضوع الصورة
	٤٢	زخارف رخامية أصلية في النوافذ المطلة على الباب الغربي .
١٦٩	٤٣	قبة المحراب المقرنصة .
١٧٢	٤٤	زخرفة المحراب من الداخل .
	٤٥	زخرفة المحراب من الداخل .
١٧٤	٤٦	زخرفة محراب الجامع من الداخل .
	٤٧	زخرفة المنبر من الرخام .
	٤٨	زخرفة الباب الغربي من البرونز .
١٨٨	٤٩	منظر الجامع الكبير وسط مدينة دمشق القديمة .

فهرس عام

المقدمة ٩

○ الفصل الأول

﴿ الجامع قبل الوليد ﴾

الجامع الكبير وتكون الفن الاسلامي ١٥

المساجد الاولى ١٧

الارض المقدسة ــ معبد حدد ٢٢

معبد جوبتير الدمشقي ٢٢

الكنيسة ومقرها هيكل المعبد (الناوس) ٣٠

مشهد القديس يوحنا (النبي يحيى) ٣١

الجامع قبل الوليد ٣٢

الوليد والجامع الكبير ٣٤

○ الفصل الثاني

﴿ انشاء الجامع ﴾

مخطط بناء الجامع وأصالة البناء الحالي ٤٩

اقسام وتوابع الجامع الكبير ٥٣

○ الفصل الثالث

﴿ روعة الجامع ومصائبه ﴾

اوصاف المؤرخين لروعة الجامع الكبير واقسامه وترميماته ٧١
مصائب الجامع الكبير وترميماته ٧٦
حريق عام ١٨٩٣ وآخر ترميماته ٧٨
جدول مصائب الجامع الكبير وترميماته ٩٣

○ الفصل الرابع

﴿ عمارة الجامع ﴾

فن عمارة الجامع ٩٩
بناء قبة النسر وقباب الصحن ١٠١
وصف لاقسام الجامع ١٠٨
الصحن ١٠٨
الحرم ١٠٩
ابواب الجامع ١١٠
الساعات في الجامع الكبير ١١١
المآذن ١١٤
انتشار شكل مئذنة الجامع الكبير في المغرب العربي ١١٦
محراب الصحابة ، أول محراب في العالم الاسلامي ١١٨

○ الفصل الخامس

﴿ الفسيفساء ﴾

فن الفسيفساء في الجامع الكبير.. ١٣٥

صناعة الفسيفساء.. ١٣٦

ترميم الفسيفساء.. ١٣٨

مواضيع الفسيفساء.. ١٤٠

خصائص فسيفساء الاموي.. ١٤٢

○ الفصل السادس

﴿ الزخرفة ﴾

الرخاميات.. ١٦٧

الخشبيات... ١٧١

الكتابة والزخرفة على المعدن ١٧١

○ الفصل السابع

﴿ الجامع الأموي مركز الحكم والعلم ﴾

النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي.................................. ١٧٧

الجامع مركز العلم والتعليم ١٨٠

الملاحق ١٨٩
أهم المراجع ١٩١

الناشر: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر
التنضيد الضوئي: دار طلاس
الإخراج: الآنسة هدى الفرا
المونتاج والطباعة: مؤسسة الصالحاني
الخطوط : سمير مولوي
كمية الطبع ٣٠٠٠ نسخة
الطبعة الأولى ١٩٨٨
رقم الإيداع بمكتبة الأسد ١٩٨٥/٠٢٤٣

هــذا الكــتــاب

على الرغم من أن الجامع الأموي في دمشق هو أول رائعة معمارية عربية إسلامية، فإنه لم يُكتب عنه بما يستحق من أهمية، بل إن مجموعة من الدراسات تناولت عمارته من وجهات نظر لا تقوم على وثائق مؤكدة، أو على بحث أثري علمي.

هو الأول من نوعه. إذ يضم دراسة الجامع الأموي على أسس علمية منطقية لكي يؤكد أصالته ويعرض تطور عمارته ويقدمه كآبدة معمارية تتمتع بخصائص متميزة ما زالت أساساً لبناء عمارة المساجد في العالم.

وإذا كان هذا الكتاب يقدم وصفاً تاريخياً ومعمارياً واسعاً للجامع الأموي، فإنه يبني هذا الوصف على إيضاحات حاسمة في تحديد هوية الأبراج والقاعات الكبرى، وفي بيان مصير الكنيسة وأصل عمارتها، وفي توضيح شكل المعبد الوثني استناداً إلى شكل معبد آخر موجود في سورية، مما يؤكد أن شكل الجامع الأموي يختلف كثيراً عن شكل المعبد، وأن ما أنشىء في عهد الوليد بن عبد الملك كان عمارة مستقلة عن عمارة المعبد، وإن هو استفاد من أحجار المعبد المتهدم كلياً.

ولقد زُيِّن الكتاب بصور ملونة تبين مظاهر الفن الأول الذي ظهر في بداية الإسلام، وأصبح مصدراً للاستيحاء، وعنه اكتسب الفن التصويري والزخرفي والمعماري خصائصه وشخصيته.